ياسر علي عبد سلمان

صورة الذات

بين

أبي فراس الحمداني و محمود سامي البارودي



دراسة موازنة



ياسر علي عبد سلمان

صورة الذات بين

أبي فراس الحمداني ومحمود سامي البارودي

دراسة موازنة

- إطروحة دكتوراه نوقشت في كلية الآداب

جامعة القادسية . العراق

اسم الكتاب: صورة الذات بين أبي فراس الحمداني ومحمود سامي البارودي

اسم المؤلف: ياسر علي عبد سلمان

١٠٠٠/٢٠٠٨م. ١٤٢٩هـ



سورية . دمشق. ص ب ٤٦٥٠

تلفاكس: ٥١٣٦٥٢٦ ١١ ٩٦٣ +

+٩٦٣ ١١ ٥١٤١٦٠٥

موبايل: ٠٠٩٦٣٩٣٣٤٤٩٧٣٤

E-mail:ninawa@scs-net.org

العمليات الفنية: التنضيد والإخراج والطباعة

وتصميم الغلاف في مطبعة دار نينوى

القسم الفني دمشق. سوريا

القياس ١٧ * ٢٤

عدد الصفحات: ٢٥٠

لوحة الغلاف:

للتواصل مع المؤلف: هاتف. ٧٨٠١٥٤٨٠٦٤ ٠٠٩٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

صدق الله العلي العظيم

{التغابن/٤}



الإهـــداء

إلى الحاضرين الغائبين من كل البشر
ممّن نلمس في آثارهم الإباء والإنسانية
ونشم عبق الحرية مطـرّزة بنصـرة القيـم النّبيـلة

الباحث



المحتويات

المقدمة.. ٩
التمهيد.. ١٣
الفصل الاول : تجليات الذات وفقا لمعايير الحرب.................................. ٢٩
المبحث الاول : التوجه الحربي الاسباب والاتجاهات.............................. ٣١
المبحث الثاني : صورة الذات وفقا لمعايير الفروسية ومفهوم الموت............ ٤٦
المبحث الثالث : صورة الذات في المعركة وما يتلوها............................. ٦٥
الفصل الثاني : صورة الذات وفقا لتجليات المنفى.................................. ٨١
المبحث الاول : صورة الذات بين التحدي والاستسلام والاستعطاف............ ٨٣
المبحث الثاني : صورة الذات بين الشكوى والاستغاثة وبين العتاب والصبر.......... ١١٤
المبحث الثالث : الذات بين الغربة والحنين... ١٤٣
الفصل الثالث : صورة الذات وفقا لتجليا ت الأصرة الاجتماعية................ ١٧٣
المبحث الاول : الذات بين الرضى والسخط الاجتماعي............................ ١٧٥
المبحث الثاني : صورة الذات وفقا لمجريات العلاقة بالمرأة....................... ١٨٨
المبحث الثالث : صورة الذات في ضوء معاني الفخر............................. ٢١٠
الخاتمة.. ٢٣٥
المصادر والمراجع.. ٢٣٩
ملخص الاطروحة باللغة الانكليزية.. ٢٤٨

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الخلق أبي القاسم محمد واله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر المنتجبين.

وبعد:

إنّ صلة علم النفس بالأدب والنقد صلة ممتدة الجذور في التراث الإنساني، لاسيما تلك التي تربط الأدب بصاحبه. فقد ظهرت بعض ملامح النقد النفسي عند النقاد العرب القدماء يقف في مقدمتهم ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) في كتابه الشعر والشعراء، والقاضي الجرجاني(ت ٣٦٦ هـ) في كتابه الوساطة.

ربما كانت الملامح النفسية أوضح عند عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ) في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة.

إن الذين عمدوا إلى الحديث عن هذه الصلة، أو عن المنهج النفسي بشكل عام لا يمكن حصرهم هنا، ففيهم الفلاسفة، وعلماء النفس، والأدباء، والفنانون. نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصرأفلاطون، وأرسطو، وهوراس، وبوالو، وهيجل، وكانط، وكروتشه، وفرويد، ويونغ، وادلر وشارل، وغيرهم ممن كانت كتاباتهم تصريحاً أو تلميحاً في هذا المجال.

إن هذا الأديب قبل كل صفة إنسان ذو شخصية متميزة. بجوهرها وحدودها، وإمكانياتها، وهو يمتلك تجارب ذاتية كونت شخصيته بفضل سعيه في هذا الوجود بين بيئة ومجتمع، وهو في تعبيره الفني إنما يُعبر عن نفسه وخلجاتها، وهذا يعني أنّ الفنان هو نفسه مضمون فنّه، وفنّه فيض تلقائي من ذاته التي هي في النهاية حصيلة تفاعل جدلي بينها، وبين ذوات الآخرين.

ولذا فإنّ صورة الذات هي النتيجة التي سعى البحث لرسمها من خلال شعر شاعرين بارزين من شعراء العربية هما أبو فراس الحمداني، ومحمود سامي البارودي، اعتماداً على المجالات التي وظفا حياتهما فيها.

ولم يكن اختيار الشاعرين عشوائياً، وإنما جاء على وفق ضوابط معينة يقف في مقدمتها

التشابه في بعض السمات الشخصية والحياتيّة. فهما ابنا عائلتين مالكتين،

وهما فارسان وأميران. وكل ذلك كان فضاءً رحباً لتمثل شخصيتيهما، ومن ثم الدخول إلى ذات كل منهما ليتسنى بعدها الموازنة بينهما، وتبيان الأسباب التي أدّت إلى تشابه الصور أو اختلافها بينهما.

والموازنة ضرب من ضروب النقد يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف إلا أن هذه الدراسة اختلفت عن سابقاتها من ناحية التوظيف. فاغلب الدراسات الموازنة السابقة صبت عنايتها على دراسة العمل الأدبي بعد أن وظفت له كل ما يحيط به ابتداءً بشخصية المبدع ومروراً ببيئته، ومجتمعه لتسبر غور ذلك النتاج ثم توازنه بآخر يشاكله ببعض المزايا، وتصدر حينها حكماً عليهما. أما هذه الدراسة فقد اتخذت من العمل الأدبي وكل ما له علاقة به وسيلة للدخول في ذات مبدعه تلك الذات التي قد يخفى بعض من جوانبها على المتلقي، حينما تقتضي منه العملية النقدية الموازنة مع الآخرين بغية معرفة إسقاطاتها على ذلك العمل ومدى صدق العاطفة فيه. هذا من جانب ومن جانب آخر هي لكشف حيوية الأدب وقابليته على التوظيف في مجالات أخرى، وكما يقال فإنّ الفنان الذي لا يُعرف بعمله لا يستحق أن يُعرف.

لقد قامت الأطروحة على ثلاثة فصول كلّ فصل حوى ثلاثة مباحث، فضلاً عن تمهيد وخاتمة على وفق منهج استقرائي تحليلي وصفي.

فالتمهيد تضمّن حديثاً تاريخياً موجزاً عن الموازنة، وجذورها في الأدب العربي، وصولاً إلى العصر الحديث. ثم عرضاً مقتضباً للذات وتعريفاتها بالنظر لرؤية علماء الاجتماع والنفس.فضلاً عن إيجاز لحياة الشاعرين، وأوجه الشبه بين مفاصل الحياة التي تمتعا بها. فيما حوى الفصل الأول ثلاثة مباحث تناولت الحديث عن صورة الذات على وفق إفرازات الحرب من استعداد لها، وأسباب ذلك، ومدى القابلية القتالية بالنظر لسمات الفروسية، فضلاً عن صورة ذلك المقاتل في المعركة، ومدى ثباته وتحمله، ثم موقفه بعدها حينما يحرز النصر.

أما الفصل الثاني فقد اختص بحياة الشاعرين وهما يرزخان تحت وطأة الحبس والظلام، وما أفضى إليه ذلك الحبس وتلك الغربة من خلجات إنسانية داخل ذاتيهما طفحت من خلال شعريهما إبّان السجن، إذ تمثلت فيه صور الاستسلام والتحدي والشكوى، والصبر، والاستغاثة، ومن ثمّ الإحساس بالغربة وما يترتب عليه من حنين.

وأما الفصل الثالث فخصص الحديث فيه عن صورة الذات على وفق الأصرة الاجتماعية التي ربطت الشاعرين بمجتمعيهما بالنظر لعلاقتهما بالأصدقاء، وبالمرأة، وما طفحت به

القرائح من فخر شخصي، وقبلي وقومي.

إنّ مصادر متنوعة تضافرت على إمداد هذا البحث بما تطلبه من فيض معلومات تمثلت بكتب التاريخ، والأدب وكتب علم النفس والاجتماع والنقد، فضلاً عن المقالات والبحوث المتنوعة والرسائل والأطاريح الجامعية. كلفني الحصول على بعضها السفر إلى خارج البلاد مرتين.

وإنا إذ أضع بحثي هذا بين أيديكم فإنّه لا يخلو من قصور لأنّ الكمال صفة مقصورة على الذات الإلهية، وأضفاها عز وجل على كتابه الكريم دون سائر الكتب فإن كنت قد وفقت فله وحده الحمد والثناء، وإن كانت الأخرى فحسبي إنني إنسان يبحث عن حقيقة.

واقتضت الأمانة العلمية الإشارة إلى أن موضوع الدراسة كان من مبتكرات أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور شاكر هادي حمود التميمي الذي لولا الجهد الكبير الذي بذله لم تكن لتخرج الاطروحة بهذا الشكل ، فقد كان متابعا ومصوبا لكل مباحثها فضلاً عن فتح أبواب مكتبته على مصراعيها أنهل منها ما أشاء فله مني الشكر والامتنان وأدعو له بالصحة والعمر المديد. كما أتقدم بجزيل شكري لعمادة كلية الآداب بجامعة القادسية ممثلة بشخص عميدها الأستاذ الدكتور محمد كريم إبراهيم الشمرّي لما بذله من جهود متميزة لطلبة الدراسات العليا. كما أخص بشكري هذا أساتذتي في قسم اللغة العربية لا سيما رئيس القسم الدكتور عبد الإله علي جويعد. والأستاذ الدكتور علي كاظم المشري المعاون العلمي في الكلية كما وأحييّ وقفة الأخوة التي وقفها إزائي زملائي في مرحلة الدكتوراه، وإخواني من الباحثين أخص منهم السيد ثائر عبد الكريم

البديري والسيد حازم كريم والسيد حسين عبيد الشمري.

هذا والحمد لله على تسديده وتوفيقه إنّه نعم المولى ونعم النصير.

الباحث

التمهيد:

الأدب فن من الفنون التعبيرية الجميلة ، وهو نوع من الإنتاج الإنساني الراقي الذي يوصف بالجمال، ويُقصد منه التعبير عن مشاعر النفس والتأثير في الوجدان والعاطفة والخيال ٠

ومادام الأدب يؤثر بوجدان الإنسان ، وعاطفته ، لذا أصبحت الحيويّة ملازمة له ، أو سمة رئيسة فيه، وحيويّة الأدب ، جعلته محط انظار مختلف الدراسات الإنسانية وبمختلف المناهج٠

والشعر واحد من فروع الأدب ، بل وأكثرها حياة ٠ إذ بمقدوره التعبير عن كوامن النفس الإنسانية٠ إذ أنّ حياة الشاعر وفنّه شيئاً واحداً لا ينفصلان، فديوان الشاعر ترجمة باطنية لنفسه[1]٠

وبناءً على ماتقدّم فقد اتّخذ الباحث من الشعر وسيلة للكشف عن صورة ذات شاعرين من كبار شعراء العربية ، ينتميان لعصريين مختلفين تجمعهما روابط معينة ٠

وقبل البدء بالحديث عن الذات أو عن الشاعر ين لابدّ لي من التعريف بالمنهج الذي سارت عليه الدراسة وهو المنهج الموازن منذ نشأته وحتى وقتنا الحاضر بصورة موجزة٠

والموازنة منهج قديم بقدم الشعر العربي ، تعني نوعاً من القضاء فيه الخصومة والحكومة، وفيه الجمهور الأدبي الذي يكون وراء خصومة المتخاصمين [2] ٠

أو هي نوع من النقد ، أو نوع من الوصف ، فمن يوازن بين شاعرين إنّما يصف ما لكل منهما ، وما عليه بأدق ما يمكن من التعبير[3]٠

ويرى بعضهم أنّها ضرب من ضروب النقد، يتميّز بها الرديء من الجيّد، وتظهر بها وجوه القوّة والضعف في أساليب البيان [4] ٠

وقد رافق منهج الموازنة أدبنا العربي منذ نشأته وحتّى وقتنا الحاضر ٠ فأوّل ما يطالعنا من موازنات شعرية موازنة أم جندب، إذ تعُد اقدم موازنة وصلت إلينا من عصر ما قبل الإسلام،

---

١ . ينظر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر :١٣٧

٢ . ينظر: الموازنة بيئاتها ومناهجها في النقد الأدبي : ١٤١

٣ . ينظر: الموازنة بين الشعراء : ٢٠

٤ . ينظر: المصدر نفسه: ٥

كان الحَكَم فيها (أمّ جندب) زوج امرىء القيس الذي كان الطرف الأول في تلك الموازنة ، فيما عُدَّ علقمة الفحل طرفاً ثانياً فيها ، وكانت شروط الحاكم قريبة من الدقة : قولا شعراً تصفان فيه الخيل على قافية واحدة ، وروي واحد [1] ٠ وإذا ما صحّت رواية هذه الموازنة فإنّها تمثّل مظهراً متقدّماً - إلى حد ما - في منهج الموازنة في هذا العصر ٠

ثم تلا ذلك محاولات أخرى ، كالذي كان بين الخنساء وحسّان بن ثابت عندما احتكموا للأعشى في سوق عكاظ ٠

وما أن دخل العصر الأموي حتّى اتّسعت مظاهر الموازنة إتساعاً كبيراً ، إذ كان لتعدد البيئات الأدبية أثره الواضح في هذا المجال ٠ فكانت بيئة الحجاز ، العراق ، الشام ، فضلاً عن ظهور شعراء مالوا الى التخصص بغرض من الأغراض الشعرية ، أو أنّهم عرفوا به ، زد على ذلك مجالس الخلفاء ، وماكان لها من دور فعّال في النقد عامّة ، والموازنة خاصّة [2] ٠

ولعلّ أهم ما يطالعنا في ذلك العصر من فن يمكن أن ينتمي إلى منهج الموازنة هو النقائض٠

لقد تميزت النقائض في هذا العصر بوضوح المنهج الموازن فيها ٠ وإن لم يكن معروفاً بهذا الاسم إذ أثار شعراء النقائض حباً كبيراً في معارضة القصائد عند بعضهم البعض ٠ ممّا فتح باباً جديداً لهم في إقامة أسس جديدة للمفاضلة هي أن تتفق تلك القصائد في الوزن والقافية ٠

وفي العصر العباسي تطوّر المنهج كثيراً ، بل ربّما كان الإهتمام به ، يوازي الأهتمام ببقية المناهج ٠ فتراهم يوازنون بمجرد أن يتوافر أدنى سبب للموازنة ، بين هذا الشاعر وذاك [3] ٠

فقد تكون الموازنة بين الأبيات المتّفقة المعاني أو بين القصيدتين المتفقتين في الوزن والقافية ، والغرض ، أو بين شاعرين أو أكثر ، يتماثلون في الأغراض الشعرية ، أو بين الشعر المنحول ، والشعر الصحيح...الخ.

وبين أيدينا عدد غير قليل من المؤلفات القديمة التي يمكن أن يدخل قسم منها في باب الموازنة ، أمّا القسم الآخر فقد تكون قريبة – إلى حدّ ما - من ذلك ، أهمّها ٠

١- فحولة الشعراء : لعبد الله بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦هـ) ٠

---

١ - ينظر: الشعر والشعراء : ٤٥

٢ - ينظر : الموازنة منهجاً نقدياً – قديماً وحديثاً : ٢٩ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية التربية / جامعة بغداد / ١٩٨٩ ٠

٣ - ينظر : الموازنة منهجا نقديا- قديما وحديثاً : ٣٦/رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة / كلية التربية / جامعة بغداد / ١٩٨٩ ٠

إنّ معايير الأصمعي في كتابه هذا هي :

أ ـ الزمن، فقد فضّل القدماء على المحدثين ٠

ب ـ الكثرة: فإنّه قال عن الحويدرة : لو قال مثل قصيدته خمس قصائد كان فحلاً ٠

ج ـ التخصص: أي أنه لا يعد الشاعر فحلاً إذا اشتهر بغير الشعر[1] ٠

٢- رسالة يحيى بن علي المنجّم (٢٤١- ٣٠٠هـ) التي فاضل فيها بين العتابي ، والعباس بن الأحنف ٠ جاء جزء منها في الموشّح للمرزباني ، إذ لم تصل كاملة ، ذكرها صاحب الموشّح في ترجمة كلثوم بن عمر العتابي ٠ وقد كانت معايير المفاضلة عنده : الطبع ، السهولة ، العذوبة ، الرقّة ، الحلاوة.

يُؤثر التخصص في فن واحد ، والإكثار فيه والإحسان٠ ولايعد السرقة عيباً ، ولكنّه يشترط الزيادة ، والجودة [2] ٠

٣- طبقات فحول الشعراء : لمحمد بن سلاّم الجمحي (ت٢٣١هـ) ٠ إذ عمد المؤلّف في تقسيماته للشعراء على نظام الطبقات التي جاءت وفقاً لمعايير الكثرة ، وتعدد الأغراض ، والجودة [3] ٠

٤- كتب الاختيارات : إنّ الاختيارات مظهر من مظاهر منهج الموازنة بين الشعراء ((ولعلّ المحاولات الأولى من كتب الاختيارات ، كالمعلّقات ،والمفضّليات ، والأصمعيات ، والجمهرة ٠ لم تكتسب قدراً كافياً من وضوح المنهج ، وإذا أردنا أن نكون أدق نقول : إن تأثير أذواق مختاريها كان هو الغالب على قصائدها ، وأبياتها [4] ٠

٥- كتب السرقات : وقد أخذت هذه الكتب من الدليل التأريخي ، والمعاني المشتركة مادة للحكم على الأدباء بالسرقة[5] ٠ ويتصدّر كتاب الموازنة للآمدي الكتب التي أفاضت في الحديث عن السرقات حينما فصّلت القول في سرقات أبي تمام ، والبحتري ، فضلاًعن كتاب

---

١ ـ ينظر : فحولة الشعراء : ١٠ — ١٤

٢ ـ ينظر: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

٣ ـ ينظر : طبقات فحول الشعراء : ٢٤ — ٢٧

٤ ـ ينظر : الموازنة منهجاً نقدياً قديماً وحديثاً : ٤٩ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/كلية التربية/ ابن رشد / جامعة بغداد /١٩٨٩ ٠

٥ ـ ينظر : المصدر نفسه : ٥٠ ٠

الوساطة بين المتنبي وخصومه· الذي خصص مؤلّفه فصلاً يتحدّث فيه عن السرقات الشعرية · وهو يناقش هذا الموضوع ، من خلال عنوانات جانبية وضعها لهذا الغرض ن منها التفاضل في الشعر المتداول ، إذ تشترك الجماعة في الشيء المتداول ، وينفرد أحدهم بلفة تستعذب ، أو ترتيب يستحسن ، أو تأكيد يوضع موضعه ، فيريك المبتذل في صورة المبتدع المخترع ، ويضرب لذلك الأمثلة الشعرية ، ويرى أن هناك سرقات ممدوحة زادها صاحبها فانفرد بها ، إذ أنّ هناك تفنن في السرقة : وعدّ الشاعر الذي قصد بالسرقة نقض ماقبله من باب اللطيف في السرقات · وهو يعطي المعذرة لأدباء عصره، وما بعدهم في السرقات، لأنّ من تقدّمهم استغرق كل المعاني[1]·

وهناك كتاب حليه المحاضرة للحاتمي ، وكتاب الإبانة عن سرقات المتنبي· في الغرض نفسه، ولأهمية كتاب الموازنة للآمدي في إرساء أسس المنهج الموازن ، لابد من الوقوف عليه بعض الشيء ·

لقد قدّم لنا الآمـــدي صورة واضحة لمنهجـه في الموازنة بين أبي تمام والبحتري إذ يقول ((ولكنّي أوازن بين قصيدة ، وقصيدة من شعريهـما إذا اتّفقنا في الوزن والقافية، وبين معنى ومعنى···)) [2] ·

لقد رسخت فكرة الموازنة بصورة واضحة عندما ألّف الآمدي كتابه هذا، إذ كان واضحاً أنّ فكرة الموازنة قبل الآمدي كانت تقوم على منهج التشابه والتكافؤ ، كما نلمس ذلك في طبقات ابن سلاّم · أمّا عند الآمدي ، فقد كان الأساس هو الإختلاف ، والتباين في مذهب البحتري الذي يمثّل تيّارالمتمسّكين بعمود الشعر العربي ، وبين مذهب أبي تمام الذي يمثّل تيّار المجدّدين [3] ·

لقد سلك الآمدي في موازنته طريقة واضحة، واتّخذ له منهجاً يُعد خلاصة لتجارب السابقـين قبله · فبدأ بما يُعاب على الشاعرين، ثمّ وعد بالموازنة بينهما في قصيدتـين إذا اتفـقت في الوزن والقافية ، واشترط اتّحاد المعنى والغرض الشعري بين القصيدتين [4] ·

وفي العصر الحديث أولى النقاد اهتماماً واسعاً بالموازنات· التي سبقهم إليها النقّاد القدماء

---

١ ـ ينظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه : ١٨٣ – ٢١٥ ·

٢ ـ ينظر: الموازنة بين شعر أبو تمام والبحتري : ٦/١ ·

٣ ـ ينظر: الموازنة بيئاتها ، ومناهجها في النقد الأدبي : ٧٤ ·

٤ ـ ينظر: المصدر نفسه : ٧٦ ·

•ولم يقفوا عند حدودها فقط ، وإنّما أضافوا إليها ، وابتدعوا طرقاً جديدة في الموازنات، فضلاً عمّا كان معروفاً ، ومن أهّم تلك الطرق الموازنة بين الأبيات المفردّة، المقطوعات والقصائد الشعرية، الأغراض والأنواع الشعرية، دواوين الشعراء، القديم والجديد، العصور الأدبية، الفنون الأدبية، الفنون العامّة [1] •

أمّا عن أهم الدراسات الموازنة في العصر الحديث فهي : الموازنة بين عمر بن أبي ربيعة ونزار قباني، للدكتور ماهر حسن فهمي، ودراسة عباس حسن، عن أبي الطيّب المتنبي، واحمد شوقي، ودراسة عمر فرّوخ لإبراهيم طوقان، وأبي القاسم الشابّي، والموازنة بين إيليا أبي ماضي، وعلي محمود طه المهندس للدكتور عبد المجيد عابدين ، ودراسة جبران ، وأبي القاسم الشابّي لمحمد خليفة التليسي، ثمّ دراسة الدكتور طه حسين لحافظ وشوقي [2] •

وإكمالاً لهذا العرض الموجز للدراسة الموازنة لابدّ من الوقوف على أهمّ المزايا التي كان على الناقد الموازن أن يتحلى بها وهي: أن يتسلّح الناقد الذي يتصدّى لعملية الموازنة بالمعرفة التامّة لإصول الفن الذي يحكم فيه إذ ((يجب أن يصل •••• إلى درجة عليا في فهم الأدب ، وإن يصبح له في النقد حاسّة فنيّة تنأى به عمّا يُفسد حكمه من الأهواء ، ••• التي تحمل على البعد عن جادة الصواب)) [3]

وعلى الناقد أن يبرىء نفسه من جميع الأغراض حين يتقدّم للموازنة بين الشعراء [4] •

أما أهم شروط عملّية الموازنة التي يكاد أن يكون شبه إجماع عليها فهي:

١- وحدة الموضوع ، لما له من تحديد الجودة ، والبراعة في صياغة المعنى الواحد• فلم تكن العرب توازن بين قصيدة في الرثاء وأخرى في الفخر، ولا يوازنون بين بيت في المديح ، وآخر في الهجاء ، ولكنّهم كانوا يشترطون إتحاد البيت أو القصيدة في الغرض الشعري [5]•

٢- التشابه ، والاختلاف إلى حدّ ما إذ ((لا ينبغي أن نلتفت إلى أوجه الاتفاق أو الاختلاف بين المعاني ، وبين الأساليب، وبين قصيدة وقصيدة ، وبين غرض وغرض وحسب،

---

١ ـ ينظر : الموازنة بيئاتها ومناهجها في النقد الأدبي : ١٦٧٠.

٢ ـ ينظر :المصدر نفسه : ٩٤.

٣ ـ الموازنة بين الشعراء :٦.

٤ ـ ينظر : المصدر نفسه : ٣٦ •

٥ ـ ينظر : الموازنة وبيئاتها ومناهحها في النقد الأدبي : ٤٠.

ولكن ينبغي أن نربط ، نفسّر وكل ذلك بالأوضاع الحضارية ، لأنّ الفنون كلّها متشابكة))[1]٠

وقبل أن أختم الحديث عن منهج الدراسات الموازنة ، أودّ أن أشير الى أهم دواعي تلك الدراسات، وما يمكن أن تخرج به من نتائج يمكن أن يكون لها الأثر في تطوّر الأدب ٠ إذ نستطيع تبيّن أهمّية هذا المنهج من خلال تعدد الغايات التي يطمح إليها ، إذ أنّها تضرب في كل ناحية ، فهو أداة للكشف عن مذاهب الشعراء ، وتقديرهم، وبيان منازلهم الأدبيّة، ومراتبهم، وهو أداة مهمة بأيدي كثير من الباحثين في كشف أي زيف يلحق جانباً من جوانب التراث العربي ٠ وهو مفيد في وقوف الشعراء، والكتّاب على خصائص الفنون الأدبيّة، ليكونوا على دراية في أثناء ممارستها، وهو يقدّم لنا نبذاً مختصرة مفيدة عن العصور الأدبية، واختلافها فيما بينها ، وأوجه التطور التي حصلت فيها وكذلك الكشف عن التأثير والتأثر الذي نتج عن محاكاة الأدباء بعضهم بعضاً ، ومن ثمّ يستطيع الباحث الوقوف من خلاله على أوجه التطوّر في مجالات كثيرة كالمعاني ، والألفاظ ، والصورة الشعرية) والأغراض والأساليب[2] ٠

وعليه فقد صار طبيعياً أن تدخل الموازنة باب الدراسة الأدبية نقداً وتأريخاً للفرق ، والمقابلة بين عناصر الأدب وعصوره ورجاله [3] ٠

وبناء على ما تقدّم فقد توجّه البحث لشعرَي أبي فراس والبارودي بغية توظيفه في قراءة صورة ذاتيهما ، وفقاً لمعايير التنشئة الاجتماعية ، وماجُبلا عليه من عادات ، وما وقر في نفسيهما من طباع وهذا كلّه يعود للصلة الوثيقة بين الأدب وعلم النفس ٠

إذ من خلال الإبداع الأدبي نتمكّن من الوقوف على فكر المبدع ، وعواطفه، وخيالاته، على نحو متميز [4] ٠

ويبدو أنّ هناك محاولات للربط بين سيرة الكاتب ، ونتاجه ، تمتد جذورها التأريخيّة إلى القرن التاسع عشر، إذ ظهر هذا الاتجاه بنحو ملحوظ في فرنسا وسمي بـ: ((النقد السيري)) ، أما مع بدايات القرن العشرين، فظهر علم النفس التحليلي؛ واكتشف اللاشعور، وانعكاساته على الكتابة الأدبية، وصلة ذلك بالخبرات المؤلمة، وكبتها، حتى أنّ البعض يرى أنّ العمل الأدبي

---

١ ـ عمر بن أبي ربيعة ونزار قباني : ٣ ٠

٢ ـ ينظر: الموازنة منهجاً نقدياً – قديماً وحديثاً : ٢٤٧ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية التربية / جامعة بغداد /١٩٨٩ ٠

٣ ـ ينظر: أصول النقد الأدبي : ٢٨٠ ٠

٤ ـ ينظر: علاقة النقد بالأبداع الأدبي : ١٥ ٠

إفراز مقنع لعصاب الشخصية، وعليه فقد برز إتجاه نقدي مكثّف هو النقد النفسي[1] ٠

إن النفس البشرية من السعة البالغة بحيث إنها تضم في طيّاتها اسراراً بالغة الأهميّة ، لا يمكن التكهن بها بسهولة٠ فهي كانت ومازالت موضوعاً لحالات فكريّة، وعاطفيّة شديدة التعقيد عبّر الشعر عن مكوناتها على مرّ العصور بقصائد مختلفة بمعانيها وألفاظها، وشكلها[2] ٠

ويبدو أن العلاقة بين النفس والإبداع علاقة جدليّة ، فلكي نفهم شعر الشاعر علينا بادىء ذي بدء أن نلمّ بصفاته، وطبائعه ، الجسمانية والنفسيّة ، وندرس البيئة التي نشأ فيها، والمحيط الذي ترعرع في أحضانه ٠

وأن ننظر النظر الملي في عصره ، وأدوار ذلك العصر ، وفي التطوّرات التي طرأت على مجتمعه حينئذ ، وفي الظاهرات ، والمؤثرات الخارجية التي أثرت في نفس الشاعر ٠

كما يتوجب علينا أن نفهم شعره إذا أردنا فهم ذاته ٠ لأن الشعر إنعكاس لنفسيّة الشاعر، يقترن الحكم عليه بإدراك النفسيّة ، والاطلاع عليها [3] ٠

وعليه أصبح واضحاً ما للأدب من علاقة متينة بنفسيّة مبدعه، ولربّما كان – والى حدّ ما – صورة مجسّمة لذلك الجانب الحيوي، فمنهم من يرى في ((الأدب صورة نفسيّة لشخصية الشاعر، أو الأديب، فالتنفيس، والتوصّل عنده دافعان متلازمان، وشرطان هما: رغبة الفنّان في أن ينفّس عن عاطفته، ورغبته في أن يضع هذا التنفيس في صورة تشير في كل مَنْ يتلقّاها نظير عاطفته))[4] ٠

فأي عمل يبدعه أديب صادق أصيل ، إنّما يُريد منه التنفيس عن همومه ، ورغباته، وعواطفه ،وهو لايكتفي بهذا، بل يريد أن يوصل عمله الى غيره ليعيش معه تجربته ٠ فقد قيل مثلاً إنّ ((غوته)) حرّر نفسه من آلام العالم بتأليف ((آلام فرتر)) ، وإنّ الشاعر دي موسيه كان يلجأ الى الشعر لإنقاذ نفسه من الانتحار[5] ٠

---

١ ـ ينظر : الإسلام والأدب : ٢٩٩ ٠

٢ ـ ينظر : موازنة بين قصيدة الحمام لأبي فراس الحمداني، والمعتمد بن عبّاد: ٢١٧مجلة قبس العربية/ع٢٠٠٥/١ – كلية التربية الأساسية / الجامعة المستنصرية ٠

٣ ـ ينظر : نقد الشعر العربي الحديث في العراق من ١٩٢٠- ١٩٥٨ : ٧٨ ٠

٤ ـ وظيفة الأدب بين الإلتزام الفنّي ، والإنفصام الجمالي : ٢٧ ٠

٥ ـ ينظر : اتجاهات النقد المعاصر في مصر : ١٢٧ ٠

فالفنان قبل كل شيء هو إنسان ذو شخصية متميّزة بجوهرها، وحدودها، وأبعادها، وإمكانياتها، إنسان إختزن تجارب ذاتية كوّنت شخصيته بفضل سعيه في هذا الوجود، بين بيئته ومجتمعه· وهو إذ يندفع الى التعبير الفنّي ، إنّما يندفع بالفعل الى التعبير عن نفسه ، وعمّا يخالجها من ألوان المعاناة، وإلتماعات الخواطر، والمشاعر · وذلك يعني أنّ الفنّان هو نفسه مضمون فنّه، وفنّهِ فيض تلقائي من ذاته التي هي في النهاية حصيلة تفاعل جدلي بينها، وبين ذوات الآخرين [1] ·

فبمقدار تعبير الشعر عن النفس الإنسانية يعد الشعر رائعاً قوياً ، ويُعد المعنى سليماً لاعيب فيه· أمّا إذا كانت النفس لايتفق ماتشعر به مع معنى الشعر ، فجدير بنا أن نعيب الشعر ، وأن نعدّ معانيه خطأً غير مقبول[2] ·

إذ أننا نعني بكلمة ((شعر)) ((العلاقة الجدلية الخفيّة القائمة بين باطن الأشياء أو العالم، وباطن الذات الانسانية))[3] ·

نخلص من كل ماتقدّم الى أنّ نشأة الأدب كانت نتيجة طبيعيّة لحاجة الإنسان الى التعبير عن فكره وشعوره ، وكما يرى الحياة متأثراً بما ((تثيره الحياة في نفسه من عواطف ···· يحاول هو بعد نظمها أن يثيرها في نفوسنا)) [4] ·

لذا أصبحت معرفة الأديب تكمن في معرفة نتاجه ((فالشاعر الذي لاتعرفه بشعره لا يُستحق أن يُعرف)) [5] ·

وعليه أصبح لزاماً ان نتعرّف على ماهيّة الذات ، وما يميّزها عن الشخصية والأنا ·لقد تباينت التعريفات المطروحة في مجال التحليل النفسي للذات تبايناً يختلف باختلاف وجهات نظر المختصين فيها ، فأول من يطالعنا بتعريف للذات هو روجرز ، إذ يرى أنّها : الكل التصويري الثابت ، المتألف من مدركات خصائص الفرد المتفاعل مع الآخرين في الجوانب المتعددّة ، والقيم المرتبطة بهذه المدركات[1] ·

---

١ ـ ينظر : الفن والأدب / بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنّية : ٣٥ ·

٢ ـ ينظر : أسس النقد الأدبي عند العرب : ٤١٨ ·

٣ ـ مقاربات مفهومية في الأدب العربي الحديث – ثنائية التناقض والإنسجام : ١٤ ·

٤ ـ النقد الأدبي : ٢٥ ·

٥ ـ النقد الأدبي الحديث : اصوله واتّجاهات روّاده : ٢٩٥ ·

أمّا كولى فيعرّف الذات بقوله :هي كل ما يُشار إليه في لغة الحياة بضمير المتكلم (أنا) وتنمو من خلاله عملية التفاعل الاجتماعي·

إذ يُدرك الفرد ذاته من خلال رؤية الآخرين له، فالمجتمع يُعد المرآة التي تنعكس عليها ذواتنا، وهو ما يشار إليه بالذات المنعكسة [٢] ·

وقد عرّف ميد الذات بأنّها النظام المتغيّر للمفاهيم ، والقيم والأهداف ، والمثل التي تقرر الطريقة التي يسلك بها الفرد ، وهي تنمو من خلال التنمية الإجتماعية[٣] ·وقد ذهب كودر إلى أن الذات هي إدراك الشخص لنفسه، ويتضمن إدراكه لقدراته، ومظهره وإنجازه لعمله ، وللجوانب الأخرى من تفاعله اليومي مع الآخرين [٤] · ويرى يامتو : إنّ الذات هي كل انواع الصفات الموضوعية الخاصة بالفرد ، وانطباعات الآخرين عنه [٥] ، ولربما كان تعريف د· محمد عاطف أكثر شموليّة ، إذ يرى في الذات أنها جانب الشخصية الذي يتكون من مفهوم الفرد عن نفسه · وتُعد طريقة ادراك الشخص لنفسه محصّلة لتجاربه وخبراته مع الآخرين ، ولطريقة تصرفهم نحوه للانطباع الذي يدركه من نظراتهم إليه، وتتطور الذات عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية والتفاعل الاجتماعي [٦] ·

إنّ الطابع المميّز لهذه التعريفات أنّها انطلقت من وجهة نظر اجتماعية في الغالب · أما نظرة علماء النفس لها فيمكن ان تنحسر في الكيفيّة التي يرى فيها الفرد نفسه ، وهذه النظرة

---

١ ـ ينظر: الوصم الإجتماعي ومفهوم الذات الإجتماعية عند مجهولي النسب والأيتام / دراسة ميدانية في دور الدولة للرعاية الاجتماعية : ٩/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية الاداب / جامعة بغداد — ٢٠٠٠م ·

٢ ـ ينظر: الوصم الاجتماعي ومفهوم الذات عند مجهولي النسب والايتام / دراسة ميدانية في دور الدولة للرعاية الاجتماعية :٩/ رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة / كلية الاداب / جامعة بغداد /٢٠٠٠م ·

٣ ـ ينظر : المرجع في علم النفس : ٥٢ ·

٤ ـ ينظر : الوصم الإجتماعي ومفهوم الذات الإجتماعية عند مجهولي النسب والأيتام / دراسة ميدانية في دور الدولة للرعاية الاجتماعية : ١٠/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية الاداب / جامعة بغداد — ٢٠٠٠م ·

٥ ـ ينظر المصدر نفسه: ١٠.

٦ ـ ينظر: قاموس علم الاجتماع ٤٥٥.

يشترك فيها اغلب علماء النفس مثل سافلسون ، وتيرنر ، وبرونو ، وجايلن ، وزهران [1] ٠

ومع كل ماقيل عن الذات ، وعلى الرغم من تعدد تعريفاتها : فهذا لايعني أنّها واحدة في الشخص، إذ أنّها على مستويات مختلفة فمنها :

أ ـ الذات الاجتماعيّة : وهي التي يعرضها الفرد للمعارف والغرباء ٠

ب ـ الذات الشعوريّة الخاصة ، كما يُدركها الفرد ، ويعبّر عنها ، ويشعربها ٠

ج ـ الذات العميقة: وهي الذات التي نتوصّل لصورتها عن طريق التحليل النفسي[2] ٠

د ـ الذات الفضلى : هي ذلك الجانب من شخصيتنا الذي تعرف أنّه أفضل جانب نستطيع خلقه في خلوتنا مع أنفسنا، أو تحت الأضواء الساطعة، التي يوجهها المجتمع نحونا ، وهي تساوي الشخصية السليمة بأفضل أحوالها [3] ٠

وإذا ما نظرنا إلى العلاقة بين الشخصية والذات ، نجد أن الشخصية وكما أكّد ذلك فرويد ((تنظيم ثلاثي يتألف من مجموعات ثلاث من الأنظمة الفرعيّة ((الهو)) و ((الأنا)) و ((الأنا العليا))، ولكلّ منها خصائصها الذاتيّة المميّزة٠فالهو يتضمن الحافز أو القوى الدافعة داخل الإنسان، وإن الأنا يتصل بالخصائص الضابطة والتوافقية أمّا الأنا الأعلى فيختص بالقيم الخلقيّة والمثل التي تنتج من الثقافة، والأسرة، وهو في الحقيقة الضمير))[4].

في حين تمثّل الذات بالنسبة للعديد من النظريات – الوحدة المركزية للشخصية[5] أو كما يراها البعض((نواة الأنا)) [6] ٠

ولذا يقال إن مفهوم الذات هو مايستجيب به الفرد عادة عن سؤال من أنا؟ بما يتضمنه هذا السؤال من تفاصيل واسعة تتعلّق بمكانة الفرد، ووضعه الاجتماعي،وبدوره بين المجموعة التي يعيش فيها، أو ينتمي إليها ، وبانطباعاته الخاصة عن مظهره العام، وشكله ، وعمّا يحبّه،

---

١ . ينظر: نظريات الشخصية ٧٠ ـ ٨٠.

٢ ـ ينظر : وعي الذات وعلاقته بالتوافق المهني : ٢٩ – ٣٠ / رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة كلية الاداب / جامعة بغداد / ٢٠٠٠ ٠

٣ ـ ينظر : الشخصية السليمة من وجهة نظر علم النفس الإنساني : ٢١٧ ٠

٤ ـ الشخصية : ٥١- ٥٢ ٠

٥ ـ ينظر : المصدر نفسه : ٥٣ ٠

٦ ـ الأسس النفسية للإبداع الفنّي في الشعر خاصة :١ ١٤ ٠

ويكرهه، وعن تصرفاته، وأساليب تعامله مع الآخرين[1] ٠

نستشف ممّا تقدّم أن الذات تمثل جانباً رئيساً من جوانب الشخصيّة ، فعلى الرغم من الرؤى المختلفة لها، إلا انّها كلّها تصب في اتجاه واحد٠

والآن، وبعد أن قدّمنا لمفهوم الذات ، وآراء المختصين فيه ، صار لزاماً أن نضع تعريفاً واضحاً لصورة الذات ، وما يميّزها من مفهوم الذات ٠ إذ إنّها مرادف له أو هي حجر الزاوية في هذا المفهوم ، فتصوّر الذات يشتمل على عدة عناصر تؤلّف بمجموعها نظرة الشخص إلى ذاته، ويطرح تقييماً لسلوكه من خلال تلك النظرة على أساس ما يتصوّره من مضامين المديح أو الذم فيها ٠

لقد عرّف ألبورت صورة الذات بأنّها إحدى وظائف الذات الممتدّة الموحدّة ، واستنتج لها جانبين الأول: الكيفيّة التي ينظر بها الفرد إلى قدراته الحاضرة وأدواره ، أما الثاني فأطلق عليه أسم الذات المثاليّة ، أو الجانب الخيالي من الذات الموحّدة ٠ وصورة الذات التي تأخذ بالاتّضاح أكثر فأكثر عن طريق التفاعل المتبادل مع الكبار، والآخرين والوالدين، ويمكن للفرد أن يُقارن بين سلوكه الواقعي ، وما هو متوقّع منه ، وما يطمح أن يكون عليه [2] ٠

وبعد هذه الوقفة على ماهيّة المنهج الموازن، والدراسات التي أُقيمت عليه، وما تبعه من تعريفات للذات الإنسانية ، وتميّزها عن الشخصية، أصبح من الضروري الوقوف على أهّم مناحي الشخصيتين اللتين ستكونان محور الدراسة ليتسنّى لنا معرفة أوجه التشابه والاختلاف بينهما، وما أثر البيئة وإفرازاتها في تكوين شخصيتهما، إذ ((أنّ التكوين النفسي للإنسان هو حصيلة متطوّرة لعدد من العوامل البيئيّة والبايولوجيّة ملوّنة بالتجربة الذاتيّة)) [3] ٠

وستكون البداية مع أبي فراس الحمداني : فهو الحارث بن أبي المعالي سعيد بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد بن المثنى بن رافع بن الحارث بن عُطيف بن محربة بن حارثة بن مالك بن عبيد بن عدي بن اسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمر بن غنم بن تغلب الحمداني العدوي التغلبي ،كانت أمّه روميّة ٠ ولم تكد الحياة تتقدّم به حتّى قُتِلَ أبوه غدراً،

---

١ ـ ينظر : من أنا : ٣٢ ٠

٢ ـ ينظر : الوصم الإجتماعي ومفهوم الذات الإجتماعية عند مجهولي النسب والأيتام / دراسة ميدانية في دور الدولة للرعاية الاجتماعية : ١٢/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية الاداب / جامعة بغداد – ٢٠٠٠م ٠

٣ ـ الانسان والنزعة لتدمير الذات : ٦٥ / مجلة آفاق عربية /ع١ /١٩٧٩ ٠

فكفلته أمّه ،ورعاه ابن عمّه سيف الدولة ، وكان ساعده الأيمن • عيّنه والياً على منبج ، وحرّان وأعمالهما ، ولم يزل ينازل الروم حتى أصابوه سنة ٣٥١هـ ، فأسروه ، وظلّ في أسرهم أربع سنوات • فداه سيف الدولة سنة ٣٥٥هـ ، مع من فدى من أسرى المسلمين • وبعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٥هـ ، حدّثت أبا فراس نفسه بالثورة على أبي المعالي الذي شغل مكان أبيه سيف الدولة، لكنّ جنده تغلّبوا عليه وقتلوه سنة ٣٥٧هـ[١] •

نشأ أبو فراس في قبيلة عربيّة صميمة ، تقلّب أفرادها في الملك والإمارة قروناً عدّة ، وكانت لهم سيرة ملأى بمحاسن الأفعال وجميل الصفات ، من كرم ، وسخاء ، وعزّ ، وإجاء، وصولة، وشجاعة، وخصامة، وبراعة، وحلم، وصفح، وتدبير، وحماية للجار، وحفظ للذمار، ورأي رصين • وكلّهم أو جلّهم شعراء مجيدون ، أهل شجاعة وإقدام ، تعوّدوا ممارسة الحروب، وقيادة الجيوش، ويندر أن يكون فيهم من ليس بشاعر ولا شجاع فارس[٢] •

وأبو فراس أمير جليل ، وقائد عظيم أشجع قوّاد سيف الدولة ، عربي صميم ، تجلّت فيه الأخلاق والشيم العربية السامية من شجاعة، وولوع بالحرب، وكراهية الإخلاء إلى الدعة، والراحة، وفي إباء نفسه، وعلو همّته، وارتفاعه إلى الكرم، والبذل، وحبّه لفعل الخير، والمساواة بنفسه، وعدم إيثارها على الآخرين ، ورعايته لحقوق الأخوان، ومحافظته على شعب قبيلته، إلى دين متين، واعتقاد ثابت رصين ، وخوف من الله تعالى ، وغيرة على الإسلام والعروبة [٣] •

إنّ العلاقة الحميمة بين أبي فراس، وابن عمّه، كانت تقوم على عطف سيف الدولة، وتشجيعه ، وإعجابه به ، كما حظي أبو فراس بحضور مجالس سيف الدولة في حلب التي كانت اكثر المراكز الحضارية تقدماً، ففتح ذهنه على ما كان يدور فيها من شعر ، وأدب ومناقشات، ومجالات في الفنون، والعلوم كلّها • إذ كان سيف الدولة يستقطب جل العلماء، والأدباء والشعراء إلى مجلسه، ممّا أتاح لأبي فراس أن يلتقي الشعراء ((بين علم يدرسه، وأدب يقتبسه، ومحاسن ألفاظ يستفيده •••)) [٤] •كل ذلك أثر في شخصيته، صقلها وبناها هذّبها،

---

١ ـ ينظر : اعيان الشيعة : ١٨/ ٣٠- ٤٠ ، تأريخ الأدب العربي / عمر فرّوخ :٤٩٥/٢، تأريخ الأدب العربي / بروكلمان : ٩٢/٢ ، الأعلام : ١٥٥/٢ ،معجم المؤلفين: مج ٢ /٣ /١٧٥ أبو فراس الحمداني : ١٠- ٢٥ ، تاريخ آداب اللغة العربية : مج ١ / ج٢ /٥٥٩ ، معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى ٢٠٠٢ م مج ٢ / ٦ ، معجم الشعراء العباسيين : ١٢ ، سيف الدولة وعصر الحمدانيين : ١٤٢ •

٢ ـ ينظر : أعيان الشيعة : ٣٠/١٨ •

٣ ـ ينظر :اعيان الشيعة : ٣٨/١٨- ٣٩ •

٤ ـ يتيمة الدهر : ١/ ١٠ •

وتمّاها [1] . وأمّا شعره ، فقد تطرّق فيه لكل أغراض الشعر العربي إلاّ الهجاء، فلم ينقاد إليه، كونه لا يُشاكل خلقه ، وطبائعه .

وإذا ماتفحصنا ديوانه تجسّدت لنا شخصيّتهُ على أوضح ماتكون ، بحيث تكاد تكون أشعاره أقرب الى يوميّات تسجّل دقائق عيشه ، وخلجات نفسه ، لذا يُعَد هذا الديوان جريدة يوميّة لحياة الشاعر الأمير[2] .

نكاد نتعرف من خلاله على طرق حياته، دونما حاجة إلى الرجوع في ذلك الى الرواة، أو المؤرخين، إذ انّ الشاعر كلّما ألمّ به خطب انطلق لسانه بأبيات حيّة تعكس ما بنفسه، من دون تعقل أو تكلّف لاسيّما رومياته التي قالها في أسره، اذ كان في شعره ((غالباً مايدور حول ذاته)) [3]. إنّ شعره عموماً ((في غاية الجودة ، وديوانه كبير)) [4] ، إتّجه في اغلبه الى الفخر، لأن حياته كلّها اتّسمت بالحروب والغارات والانتصارات، والأسر[5]

وكان في شعره سهلاً ((يتناوله كما يتناول حياته في يسر ، وسهولة))[6].

لقد كان في شخصية الشاعر القوة والصفاء ، والوضوح، وهي كذلك ظاهرة في شعره، فكما كانت شخصيته تتدفّق بالحيويّة، كذلك شعره يفيض بالرجولة والحياة ، اذ كانت صوره الشعرية مشرقة نابضة بالحياة والفتوّة، وقد ابتعد في شعره عن المدائح الكاذبة المصطنعة، فكان مديحه صادقاً لا يقوله إلا بدافع الشعور الصادق الصميم ، لأنه لم تلجأه الحاجة الى المديح كما ألجأت غيره [7] .

إن ظروفه وبيئته لهما الأثر الكبير في بناء شخصيته [8] ، وهذا مالمسناه من شعره، إذ كان انعكاساً لتلك الشخصية ، فهومن الشعراء الذين لايمكننا عند الحديث عن سماته الشخصية ان نفصل بينه وبين نتاجه الشعري ((ذلك أنّ الأخير يتوافق مع ذاته، وما هو إلا صدى لمواقفه المتباينة من الحياة ، فتجربته الشعرية، تكشف لنا عن موقفه النفسي من جهة، وعن رؤيته

---

١ ـ ينظر : أبو فراس الحمداني / رحلة الحياة ومسيرة الموت مع مختارات شعرية : ١٤

٢ ـ ينظر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب : ٢/ ٢٧٠ .

٣ ـ أبو فراس الحمداني : الموقف والتشكيل الجمالي : ٥٢٦ .

٤ ـ نثوار المحاضرة ، وأخبار المذاكرة : ٢٢٥ .

٥ ـ ينظر : المختصر في تاريخ البشر : ٢/ ٨٩ .

٦ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي : ٣٥٣

٧ ـ ينظر : أبو فراس الحمداني : ١١٤ ـ ١١٨ .

٨ ـ ينظر : أبو فراس الحمداني / الموقف والتشكيل الجمالي : ٧٣ .

للواقع، والحياة من جهة اخرى))[1] • لذا يُعد شعره الباب الأوسع الذي نتمكن من خلاله التعرف على ذاته، ومدخلات نفسه •

وبعد هذه الإلمامة بحياة أبي فراس الحمداني، نعرّج على حياة البارودي، للكشف عن ظروفه، والعوامل التي أثّرت في تنشئته الاجتماعية • إنّه الأديب الشاعر ، محمود سامي باشا الملقّب بالبارودي نسبة الى اتياي البارود ، لأنّها كانت في التزام احد أجداده في عصر الإلتزامات• ولد في سراية ((باب الخلق)) سنة ١٨٣٩م، وهو سليل أسرة جركسيّة ، تنتمي الى حكّام مصر المماليك [2] •

توفي والده وهو لم يزل طفلاً ، فكفلته أمّه ، وكانت جركسية كأبيه ، وقامت على تربيته خير قيام ، فأحضرت له – شأن أقربائه حينئذٍ من ذوي النعمة واليسار- المعلمين كي يؤدبوه، ويلقنوه القرآن الكريم، والشعر، اذ يبدو من ذلك أنّ الثقافة العربية الإسلامية كانت هي الثقافة التي تجلّها أسرة البارودي[3] •

وفي سنة ١٨٥٠ يلتحق البارودي بالمدرسة الحربية ، يريد أن يتخرّج على شاكلة أبيه رغم ما نُكبت به مصر في جيشها سنة ١٨٤٠، وكانما يستشعر في قوة أمجاد أبيه الحربيّة، وأمجاد أمته العسكرية[4]•

رُقِيَ في سلاح الفرسان سريعاً الى رتبة ((قائمقام)) ثم الى رتبة ((أميرلاي)) مع قيادة الفيلق الرابع من عسكر الحرس الخاص • وسافر البارودي في رحلتين سياسيتين الى الأستانة ، ومكث فيها اثنتي عشرة سنة[5] •

ظلّ البارودي يرتقي في مناصب الجيش، وفي فرسان الحرس الخاص، ولمّا ولي توفيق العرش، قرّبه اليه، وولاّه وزارة الأوقاف، وأصلح فيها ماوسّعه جهده، بعدها تولّى البارودي رئاسة الوزارة، فحاول أن يوفّق بين الجيش، والخديوي، ويصلح الأمور، ولكنّها تعقّدت أمامه بمطالبة الجيش

---

١ ـ الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني: ١٣٨ / رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية الاداب/ جامعة بغداد / ١٩٩٧ •

٢ ـ ينظر : ادباء السجون : ٣١٤ ، معجم المؤلفين : مج ٦ / ١٢/ ، ١٦٥ البارودي رائد الشعر الحديث : ٤٦•

٣ ـ ينظر: البارودي الشعر الحديث: ٤٧.

٤ ـ ينظر: المصدر نفسه: ٤٨.

٥ ـ ينظر في الأدب الحديث: ١/١٦٩ ـ ١٧٠.

بعزل توفيق، ونازعته نفسه يومئذ الى المجد المؤثّل ، والى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر، فخاض الثورة مع الخائضين[1] .

ولمّا فشلت الثورة ودخل الأنكليز مصر، كان البارودي مع المنفيين ، إذ قضى سبعة عشر عاماً في جزيرة ((سرنديب)) بعيداً عن الأهل والأحبّة .

وفي عام ١٩٠٠م رأى أولو الأمر أن يعود المنفيّون الى أوطانهم، فعاد البارودي معهم ، وظل مقيماً في داره التي حوّلها الى منتدى ادبي كبير يؤمّه الكتّاب، والأدباء من مختلف أرجاء مصر، الى أن وافاه الأجل سنة ١٩٠٤م [2] .

شبّ البارودي معتدّاً بحسبه ، ونسبه في عصر ساد فيه جنسه ، اذ تبوأ ابناء جادته أسمى مناصب الدولة، ثمّ تزوّد من فنون الجندية، فنشىء تنشئة عسكرية، فكان لهذه النشأة، وهذا الحسب تأثير عميق في أخلاقه.

لذا كان الشاعر في صباه متوثّب العزيمة، واسع الآمال، يود أن يعتلي ذروة المجد قفزاً[3].

لقد شهد البارودي كثيراً من الحروب ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، فكان جندياً شجاعاً كاملاً، وكان الى جانب شجاعته معروفاً بالدهاء، والحيطة، حتّى لقد كان يجمع أحياناً بين ثقة الأمير، وثقة الثائرين[4] .

يتّضح ممّا تقدّم أنّ حياة البارودي كانت حافلة بالاحداث منذ صباه ، فمن شعور باليتم في بداية حياته الى إشتراكه في حروب كريت ، ثم حروب البلقان ، ثم سفره اكثر من مرة الى ((اسطنبول))، ومشاهداته اثناء هذه الحروب ، وتلك الأسفار وماصحب ذلك من أحداث، ثمّ إضطلاعه بدور قيادي في الثورة العرابية ، وماتلا ذلك من اخفاق الثورة ، ونفيه بعيداً عن وطنه ، وماعاناه في هذه الغربة من فقدان زوجته ، وولده ، وكثير من أصدقائه في أرض الوطن ، فكان لابدّ له أزاء تلك التجارب ، والمحن أن يرتدّ الى ذاته ، وان يبعث في شعره تلك الحرارة ، والإنسانية، التي لاتنبع إلا من صدق التجربة ،وملاحظاته في الحياة ((لأنّ ذلك يؤثر في صوغ شخصيته في صورة معينة))[5]، فانطلق في هذا المجال شادياً مفصحاً عن تجاربه الذاتية والعامّة.

---

١ . ينظر: محمود سامي البارود / عمر الدسوقي: ٢٥.

٢ . ينظر : في الأدب الحديث : ١٥١ .

٣ . ينظر المصدر نفسه : ١٥٢ .

٤ . ينظر : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي : ١٢٢ .

٥ . ثقافة الناقد الأدبي : ٨٠ .

إنّ شخصيّة البارودي واضحة في عامّة شعره ، وكأنّ قصائده ظرف أنيق يشفّ عن البارودي كما يلوح الشراب السائغ من خلال كأس شفافّة ، وهذه الخاصيّة لاتُتاح إلاّ لمن يمنح من نبع وجدانه ، ومن يعرض عواطفه ، ونفسه في فنّه الشعري[1] .

ومن هنا كانت المفاضلة بين الشعراء، اذ ان ((الشعر يختلف بحسب اختلاف أحوال القائلين، وأحوال ما يتعرّضون للقول فيه))[2] .

لقد ذهب أغلب من كتب عن البارودي الى أنّ شعره تمثيل دقيق لحياته ، وشخصه، يقول الأستاذ العقّاد ((واستعرض ديوان البارودي كلّه ، لاترى فيه بيتاً واحداً الا وهو يدل على البارودي، كما عرفناه في حياته العامّة ، والخاصّة))[3] .

فالشاعر، ومنذ أن نضجت موهبته ، واستقام أسلوبه، ودخل غمار التجارب في الحياة، فإن شعره يمثله أتمّ تمثيل ، واصدقه في نزعاته النفسيّة، واتجاهاته، وعلاقاته بمجتمعه ، ويصوّر واقعه، وكلّ ماطاف به [4] . فشعره مرآة لنفسه، ومواقفه المتعددة كما يقول[5] .

فانظر لقولي تجد نفسي مصوّرة في صفحتيه، فقولي خطُّ تمثالي فهو يودع في قصائده ذات نفسه، بما يجيش فيها من آلام، وحنين، وأمل، ويأس حتّى أن كلّ بيت يشعرك بأن الشاعر قائم بشخصه.

---

١ . ينظر : تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث (من ١٨٨١- ١٩٣٨م) : ٤٣ .

٢ . منهاج البلغاء وسراج الأدباء : ٣٧٥ .

٣ . ينظر : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي : ١٣٣ .

٤ . ينظر : تطوّر القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث (من ١٨٨١ – ١٩٣٨) : ٥٠ .

٥ . ينظر : ديوان البارودي – شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم : ٤٢٢ .

الفصل الأول

تجليات الذات وفقا لمعايير الحرب

المبحث الأول

التوجه الحربي الأسباب والاتجاهات

منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، وجعل الأرض مأوى له، أخذ التصارع بينه وبين ابناء جنسه، لاحبًا في ذلك التصارع، وإنّما رغبة في البقاء، والحصول على أسبابه ذلك البقاء.

وبناء على ما تقدّم أصبح الدفاع عن النفس حقاً مشروعاً ، إذ أنّ الحرص على الحياة هاجس إنساني طبيعي ((والرغبة في امتلاك الحرّية ، والتمكّن من ناصية الأحداث لازمة من لوازم الحياة التي ظلّ الانسان يدافع عنها ، ويحرص على الاحتفاظ بها ، ويُبدي كلّ الأساليب التي تُجيز له الوصول إليها))[1] . حتّى يطمأن على حاجاته ، وتوفير مايمكن توفيره منها إستمراراً لتلك الحياة . فكانت الحرب واحدة من الأسباب الرئيسية ، لحصوله على قوته في عالم كان يفتقد لكثير من أسس العدالة ، وقوانينها، لاسيّما في جزيرة العرب، تلك البيئة ، التي كان لها كبير الأثر في ظهور شرعيّة عالم الغاب ، بما تمتلكه من جدب، وصعوبة توفّر اسباب العيش ، فضلاً عمّا لعبته من دور فعّال في صقل شخصيّة العربي، وتعوّده أجواء الحرب، إذ إن ((العربي منذ الأزل – وعلى امتداد الحقب – صفت نفسه، وبرىء جنانه من أدران الخوف، والاستكانة، والذل، والضيم، والقهر))[2] .

إنّ هاجس الضياع، وإلحاح حاجة العيش في صحراء مجدبة ألقت بظلالها على نفسيّة العربي، لتدفعه بإتجاه النشاط، والبراعة، والجرأة . فسادت الروح الحربية عند العرب، بشكل لم نجد له مثيلاً في مكان آخر[3] .

من هنا بدأ العربي الاهتمام بجواده، درّبه ، وهذّبه، واتّخذ منه رفيقاً وفياً في حلّه، وترحاله، فضلاً عن الاهتمام بنفسه وسلاحه ليكون محارباً يشهد له بالتميّز.

ولذا فإننا نجد أنّ هذا النَفَس الحربي ماثلاً في أغلب مفاصل الحياة العربية آنذاك ، ومنها

---

١ - شعر الحرب عند العرب : ٧

٢ - لمحات من البطولة العربية في شعر الحرب ((في القرن الأول للهجرة)) : ٣

٣ - ينظر : تقاليد الفروسية عند العرب : ٣٦ .

الشعر ٠ فلقد أثّر صليل السيوف ولمعانها ، وشكل الرماح في نفسية شعراء العرب ، حتّى أنّهم وظّفوا كلّ ذلك في أغراضهم الشعرية ٠ إبتداءً من المديح ، الذي أخذ يمجّد صفات البطولة الحربية ، الى الهجاء، الذي ذمّ الجبناء ووبّخهم بالتقاعس عن الحرب ، والرثاء الذي خصّص لذكر الأعمال الحسنة للمرثي ، لاسيّما شجاعته ، وماخلّفه من ضربات موجعة في الأعداء ٠ والفخر الذي يكاد ان يكون منصبّاً في الاتجاه ذاته ٠ حتّى الغزل ذلك الغرض الذي إمتاز عن غيره من الأغراض بالرقة والعاطفة ، فإن الشاعر اتّخذ منه – في كثير من الاحيان – مجالاً لاستعراض مواقفه الحَربية، أمام محبوبته ٠ فضلاً عن أنه إتّخذ من آلات حربه صفاتاً لمفاتن تلك المحبوبة ، وراح يعيش مغامرات وهمية أو حقيقية بغية الوصول إليها ، اذ أنّها في الغالب محصّنة لا يمكن لأحد ان يصلها إلا هو، كونه يمتلك القوة التي تمكّنه من ذلك ٠

ولم يكن العربي راغباً بالحرب على الرغم من انغماسه فيها ، وتأثره بها الى حدّ كبير ٠ فقد كانت نظرته لها متباينة ، إذ انّها في الغالب نظرة تشاؤم ، وكراهية ، لما لها من ؟أثر كبير في تعكير صفو الحياة ، وماتجرّه من آلام ، وويلات كبيرة حتّى على المنتصرين[1] ٠

وبناء على هذا التباين في النظرة الإنسانية للحرب، واختلاف الدوافع التي تدفع بإتجاهها، أصبح لكلّ شخص موقف منها ٠ فأبو فراس الشاعر العباسي الحمداني ، يرى فيها ديمومة للحياة، إذ بدونها لاوجود للحياة فَهويقول[2] ٠

فلا تصفنّ الحرب عندي فإنّها   طعامي مذ بعثُ الصبا وشرابي

فالشاعر يرى أنّه خُلِقَ للحرب، والحرب قدره هو وأهله، إذ أنّ البأس أظهر صفاته، فكان محبّاً للفروسية[3]، متّخذاً منها شاغله اليومي ٠

إنّ الولع الحربي عند الشاعر، لم يكن وليد الصدفة، وإنّما تأتّى نتيجة الإستعداد الفطري، فضلاً عن وجود بيئة حاضنة وأثّرت، وبشكل كبير في تكوين شخصيته ((فالشخصية هي كل ماكان فطرياً بيولوجياً من الاستعدادات، والنزعات، والميول، والشهوات والغرائز عند الفرد، وكذلك كل مااكتسبه الفرد بخبرته من استعدادات وميول)) [4] ٠ إذ أنّ أبا فراس من قبيلة

---

١ ـ ينظر : شعر الحرب عند العرب : ٣٤ ٠

٢ ـ الديوان : ٤٤ ٠

٣ ـ ينظر: الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني: ١٤٥ / رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة : كلية التربية: ابن رشد/ جامعة بغداد /١٩٩٧ ٠

٤ ـ الشخصية وقياسها : ٨ ٠

عربيّة صحيحة تقلّب أفرادها في الملك والإمارة ، فضلاً عمّا حَووه من محاسن الأفعال المتمثلة بالسخاء، والعزّ، والإباء، والشجاعة، وحماية الجار ، وممارسة الحروب وقيادة للجيوش[1] ٠

كل هذه الخصال أثّرت في صقل شخصيته ، ونموّها ، إذ تزامن ذلك مع ماأكسبته الوراثة والتقاليد الاجتماعية من تنمية لصفاته الغريزية ، وتقويتها ، وإبرازها ، لاسيما وأن الشاعر قد ورث من أجداده الشيء الكثير٠

مضافاً الى كل ماتقدّم العناية الخاصة التي حظي بها من سيف الدولة إذ ((اصطحبه في غزواته ليكسب المهارات العملية ٠٠٠٠٠فقد استمرّ أبو فراس يُقاتل مع سيف الدولة ، ويذيق ، الروم طعم الهزائم)) [2] ٠ ومثّل الشاعر ذلك كله في شعره ، إذ أخذ ينظر الى قومه نظرة مغايرة لسواهم إذ يقول[3] ٠

لئن خُلِقَ الأنام لحسو كأسٍ ومزمارٍ وطنبورٍ وعودِ

فلم يُخلَق بنو حمدان إلا لمجدٍ أو لبأسٍ أو لجودِ

فبنو حمدان ليسوا كغيرهم ، ممّن وجد في الحكم مجالاً يحقق فيه ملذّاته ، ونوازعه الذّاتيّة، فهم رعاة المجد، والبأس، والجود ٠

لقد كان أبو فراس طموحاً الى المجد، مستهيناً بالأخطار في سبيله، ملولاً بالقعود، يكره الاحتباس عن الجد ، يُقبل على الموت في غمار الحرب ، إقبال مَنْ يستهويه الموت البطولي، فهو يكره الهزيمة ويأبى الاستسلام[4] ٠

فسائر شعره لاتكاد تخلو قصيدة منه من ذكر الحرب والتغنّي بذكر المواقع ، تغنّي القائد المقدام ، ومن أحبَّ شيئاً أكثر ذكره٠ ((فقد كان الطعن ، والضرب ، وإعزاز قومه حاجة نفسيّة في شخصيته، تقتضيها حيويته، في رجولته وفروسيته))[5] ٠ وتؤكّدها الحوادث التي نقلت عنه٠

أمّا البارودي فقد اختلفت الدوافع – الى حدّما – التي جعلت من الحرب مطمحاً يسعى إليه، فاحساسه بضخامة النسب الذي ينتمي اليه ، إذ أنّه من عائلة شركسية ترجع في أصولها الى

---

١ ـ ينظر : شرح شافيه أبي فراس في مناقب آل الرسول ، ومثالب بني العباس : ١٣ ٠

٢ ـ ابو فراس الحمداني //رحلة الحياة ومسيرة الموت مع مختارات شعرية : ١٣- ١٤ ٠

٣ ـ الديوان : ٨٠ ٠

٤ ـ ينظر : دراسات في الادب العربي : ٢٠١ ٠

٥ ـ ابو فراس الحمداني : ٢٤ ٠

حكّام مصر المماليك · جعله ذلك يعتزّ بهذا النسب ويمجّده[1] إذ يقول [2] ·

أنـــا مـــن معـــشر كـــرام علـــى الدهـــر أفـــادوه عـــزّة وصلاحـــا

عمـــروا الأرض مـــدّةً ثـــمّ زالـــوا مثلمـــا زالـــت القـــرون اجتياحـــا

إنّ اعتداده المتزايد بنسبه ، وبما قدّمه أجداده للبلاد المصرية وقّر في نفسه أحقيّته في الحكم والإمارة · من هنا أخذ ((يسعى الى إعادة مجد أجداده أولئك الذين حملوا ألوية النصر على الصليبيّين ، ورموهم في البحر))[3] · فحموا بشجاعتهم المشرق العربي من زحف التتار ، والمغول المدمّر، وهزموهم في عين جالوت ، ورفعوا أعلام النصر فوق بلاد الشام ، وجزر البحر المتوسط [4] ·

ولذا أخذ الشاعر ينظر الى اسرة محمد علي الحاكمة ، على أنّها مغتصبة لحقّهم ، من هنا بدأ البحث عن الوسائل التي تمكّنه من استرجاع ذلك الحق ، فكانت الحرب الطريق الأكثر ضماناً لتلبية طموحاته – على الرغم من أهوالها المرعبة – سواء عن طريق تحقيق الانتصارات من خلال اشتراكه في حروب الدولة العثمانية، أم من خلال طموحه في أن تكون الحرب السبيل الذي يتمكن من خلاله أن يتبوأ مراتب عليا في الدولة، لذا نجده يقول [5]:

فلـــولا العـــلا مـــا أرســـل الـــسهم نـــازعٌ ولاشـــهر الـــسيف اليمـــاني شاهـــرُ

من العار أن يرضى الدنيّة ماجدُ ويقبـــل مكـــذوب المنـــى وهوصـــاغرُ

اذا كنـت تخـشى كـل شـيء مـن الـردى فكـل الـذي في الكـون للـنفس ضـائرُ

إن احساسه بمكانة عائلته كان دافعاً للبحث عن ذرى المجد ، وطرق العُلا، مماجعله يحثّ الخُطى من أجل الوصول السريع ، فلم يكن أمامه إلا التميّز في الحرب ، ليجلب انظار أولو الأمر

---

١ . ينظر : في الادب الحديث : ١ / ١٤٥ ·

٢ . الديوان : ١/ ١١٠ ·

٣ . نفسيّة البارودي من خلال شعره : ٢٩٤ / مجلة آداب الرافدين : ع ٨ / ١٩٧٧ / كلية الاداب / جامعة الموصل ·

٤ . ينظر : محمود سامي البارودي شاعر النهضة : ٧٢ ·

٥ . الديوان : ٢/ ٦٩ ·

نحوه اذ ان ((البطل الحقيقي من كان نبيل النسب من آباء كرماء ، ولم يختلط نسبه))[1] .

إنّ توجهه الحربي هذا ساعده في تولّي المناصب الهامّة في الدولة لتكون الخطوة الأولى بإتجاه مايطمح إليه .

ولم يكن نسبه، ولاتطلّعه للمجد وحدهما اللذان دفعا به الى التوجّه الحربي ، فقد كان لليتم الذي عاشه الأثر الكبير في إندفاعه في الجندية ، وحصوله على رتبة ضابط من المدرسة الحربية، ليكون بذلك محارباً من طراز آبائه، إذ لايرى في الموت إلا خلوداً أو رفعة فهو ((لايجد أثراً للخير بعد موت والده فقد هانت الدنيا – بنظره – واستشرت الضلالة ، وجفّ الخير والعطاء، وماتت الحياة في الأحياء))[2] ولذا يقول [3] :

هانت لميتته الدنيا وزهّدنا	فرط الأسى بعده في الماء والزاد
هل للمكارم مَنْ يُحيي مناسكها؟	أم للضلالة بعد اليوم من هادي
جفّ الندا، وانقضى عمرالجداوسرى	حكم الردّى بين أرواح وأجساد
مضى وخلّفني في سنّ سابعة	لايرهب الخصم إبراقي وإرعادي
إذا تلفتّ لم ألمح أخاثقة	يأوي إليّ ولايسعى لإنجادي

لقد عرّضه موت أبيه لتجربة مبكرة بالحياة ، والناس ، ومافيها من شعور تمتليء به النفوس من ظلم ، وغدر ، ومكيدة ، وعدم وفاء ، وهي تجربة ظلت آثارهاالسّيئة تعيش في نفس الصبي حتّى كبر فانفعل بها، وردّدها في شعره ، فلم تزدها الأيام وأحداثها، إلاّ تأكيداً، ففقد الثقة بالأصدقاء ' والناس عامّة[4] .

إن الإحساس بالضعف ، وعدم القدرة على التعايش المجتمعي ، دفعاه الى الشكّ بالجميع،فهو لا يجد بينهم من يثق به ، لأنه لم يرَ احداً سعى لحمايته إبّان ضعفه ، وحاجته للرعاية غير أمه التي حبيّته بعاطفة عظيمة، كثيراً ماكانت تدفع في نفسه القوة، والشجاعة والإباء، إذ انّ

---

١ ـ شعر الحرب في العصر الجاهلي : ١/٧٩ .

٢ ـ نفسيّة البارودي من خلال شعره : ٢٨٧مجلة أداب الرافدين : ع١٩٧٧/٨ .

٣ ـ الديوان : ١/١٧٠ .

٤ ـ ينظر : محمود سامي البارودي شاعر النهضة : ٢٨٥ .

((البيئة الأسريّة الجيّدة تقدّم خدمات إيجابية كثيرة))[1] ٠

إن تنامي الإحساس بالغربة الإجتماعية دفعه للبحث عن مصادر القوة ٠ ((لأنّها عنصر أساسي من عناصر المباشرة ، لترسيخ الذات الأنسانية ، في حالة تعرّضها ، لما يهدد وجودها ، ويتقصد إسقاط دورها ، ويسعى لإزاحتها عن أهدافها))[2] لكونه في مجتمع ، كان الضعيف فيه طعماً للآخرين ، لذا اتّجه للحرب ليتّخذ منها وسيلة يقوى بها على أعدائه ، أو ممّن تخلّوا عنه أيّام ضعفه ، ليكون بذلك مظلوماً وجد في الحرب وسيلة للقصاص ممّن ظلمه إذ يقول[3] :

هو السيف في حدّيه لين وشدة	فتلقاه حلو البشر مرُّ المطاعم
تراه لدى الخطب الملمّ مجمّعاً	عُرا الحلم ثبت الجأش ماضي العزائم
له النظرة الشزراء يعقبها الرضا	لإسعاف مظلوم وإرغام ظالم

فبالسيف يُصان العرض ، وهو القاطع في أمر الملمّات ، والمنتصف للمظلوم ٠

وبعد هذا كلّه يدخل البارودي باب الشعر العربي ليستطلعه بشغف ، فيقرأ شعر الحماسة ، ويقف على سيرة فرسان العرب ، فيتمثّل شخصياتهم ، كما تمثّل شعرهم٠ ((فالنشأة الحربية إذا اجتمعت الى الشعر والأدب ، تُشير في النفس روح الخيال ، والتطلّع الى أقصى مراتب المجد ، والعلا٠

من هنا جاءت آمال البارودي بعيدة الأفق ، لا تقف عند حدّ حتى بلغت التطلّع إلى العرش[4]

مما تقدّم يتّضح أن الأسباب التي خلقت من أبي فراس محارباً شرساً ، تباينت مع الأسباب التي وفّرت الإتّجاه الحربي في نفس محمود سامي البارودي ٠

فممّا لاشكّ فيه أنّ هناك عوامل مشتركة ، لابدّ منها في تكوين الشخصيّة ذات الطابع الحربي : منها الفطرة ، والتنشئة ، والبيئة ، اذ بدون هذه العوامل ، لايمكن وجود هذه الشخصيّة القتاليّة المتميّزة ٠ إلا أنّ لكلّ محارب متمرّس ، وظّف أغلب حياته للحرب ، أسبابه الخاصة ، التي زادت من اندفاعه بهذا الإتّجاه ٠

---

١ ـ سيكولوجية الابداع في الفن والأدب : ٢٤٠ ٠

٢ ـ محاولات في دراسة اجتماع الادب : ٥٦/٢ ٠

٣ ـ ديوان البارودي : شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم : ٤٦٦- ٤٦٧ ٠

٤ ـ ينظر : نفسية البارودي من خلال شعره : ٣٣٢ / مجلة آداب الرافدين : ع ١٩٧٧/٨ كلية الاداب / جامعة الموصل ٠

فالشاعران يشتركان في العوامل الآنفة الذكر، على الرغم من أنّ البيئة المصرية لم تكن مشابهة تماماً لبيئة الحمدانيين، من ناحية كثيرة الحروب فيها ٠

فأبو فراس مطبوع الفطرة ، متحلّي بالخلق العربي الرفيع [1] ، فتداولت ظروف حياته هذه الفطرة السليمة الصافية، حتى إتّسعت معها، تنميها، وتغذّيها، إذكانت رغباته قيد ارادة قويّة ، ومجال واسع في الإمارة، والرياسة، لتحقيق ماتصبو اليه نفسه ٠ لقد هيأ له ذلك أن يباشر الحروب، وقيادة الجيوش، وهو ابن تسع عشرة سنة٠ فنمت فيه ذرى الشجاعة ، وقويت ، وعظمت ، وهو الى ذلك يجرُّ وراءه ماضياً ضخماً من تراث الآباء، والأجداد، ويحمل في قرارة نفسه عقيدة دينيّة صُلبة تَعرف معه نفسه ، مالها ، وماعليها ، فأهلّه ذلك لأن يكون الأمير ، وأن يكون اكبر قوّاد سيف الدولة ٠

لقد عانى الشاعر من اليتم ، وهو في سن الثلاث سنوات من عمره ، فكان ذلك دافعاً لأن يتمثل دور والده ، لاسيما وأنّ أباه من رجالات البلاط الحمداني المعروفين بالإمارة ، والشجاعة ،فقد أثار مقتل أبيه في نفسه ، التطلّع لإحتلال أرفع المناصب ، وان يكون فارساً تتجلّى فيه كلّ قيم الفروسية العربية ، اذ لم يتمكن اليتم من إثارة روح الحقد والانتقام فيه فقد ((نمت شخصيته، واطمأنت خطوطها العامّة في وضوح، وصفاء، حتّى كان بعيداً كلّ البعد عن أن يحمل الحقد، والنقمة على الحياة، وبني البشر)) [2] ٠

لقد اتّحدت حياة أبي فراس بالحرب، حتى يُخيّل أنّنا لانستطيع الحديث عن أحدهما بمعزل عن الآخر، فحياته كلّها حرب، يمكن ترجمتها من خلال البيتين اللذين يقول فيهما [3] ٠

جمعت سيوف الهند من كلّ بلدة وأعددت للهيجاء كلّ مجالد

وأكثرت للغارات عندي، وعندهم ثُبات البُكيريّات حول المراود

وأمّا البارودي ، فقد شبّ معتمداً بحسبه ، ونسبه ، ثم تزود من فنون الجنديّة ، فنشىء تنشئة عسكريّة ، فكان لهذه النشأة ، وهذا النسب، تأثير كبير في أخلاقه على الرغم من أنّ الزمن حوّر في هذه الأخلاق، مجاراة لعصره، وعادات الناس الذين يخالطهم، إنْ طوعاً، وإنْ كرهاً ،

---

١ ـ ينظر : أبو فراس الحمداني : ١٥ ٠

٢ ـ أبو فراس الحمداني : ١٦ ٠

٣ ـ الديوان : ٧٠ ٠

بيد أن كثيراً من صفات الشباب التي اعتد بها لازمته حتى مماته[1] • لقد هيأه نسبه ونشأته العسكرية ، وما أضفاه على نفسه من اخلاق أن يتمثّل مكانة فرسان العرب الأوائل • يساعده في ذلك، ماخلّفه في نفسه اليتم الذي عاناه في طفولته• فقد أحسَّ بنقص كبير يكتشف نفسه، إذ كان لم ينعم بنعمة الأبوّة فكان لهذا الشعور، تفتّحت في نفسه أحاسيس بالضعف، والغربة • فحاول تعويض ذلك، على شكل فخر بأبيه، وأصله، ونسبه، بثّه في ثنايا شعره، مع احساس داخلي بأن مقتل أبيه، والقضاء على مملكة أجداده مسببهم هو محمد علي كبير الأسرة الخديويّة[2]•

من هنا بدأ حقده الدفين ينمو على هذه الأسرة منذ صغره ، دون أن يفصح عن ذلك في أول أمره الى أن قامت حركة الضباط التي انضمّ اليها ليكشف بذلك عن مكنون نفسه ضدّ هذه الأسرة •

لقد حاول الشاعر أن يتوجّه توجهاً تامّاً للحرب ، ليحقق مايصبو اليه حتى أنّه ((اعدّ ليكون جندياً ، ولم يُعد ليكون أديباً)) [3] •

وبناء على ما تقدّم، فقد اختلفت الطموحات المرجوّة من وراء تلك الحروب ، عند الشاعرين، كلّ بحسب تطلّعات ذاته، وميولها •

فأبو فراس تحكمه عقيدة دينية متينة، كان لها الأثر الكبير في بناء شخصيته الحربية بناء يتوافق وطموحاته، التي تتلخص بالدفاع عن الاسلام ، والعرب ، والإيقاع بمعسكر الشرك، الذي كان يمثله الروم آنذاك، اذ يقول[4]

فأحوط للإسلام أن لايُضيعني ولي عنك فيه حوطة ومنابُ

من هنا ، لم ترض نفسه التخلّف عن أي غزوة من غزوات الحمدانيين لاسيما التي كانت مع الروم • فحينما سار سيف الدولة لغزو الروم ، واستخلف أبا فراس على الشام ، لم ترض نفسه بالإخلاد الى الراحة ، والدعة ، وأراد أن يكون شريكه في كل غزواته ، ومواسياً له في

---

١ ـ في الأدب الحديث : ١/ ١٧٩ •

٢ ـ ينظر : نفسية البارودي من خلال شعره : ٢٦٨/ مجلة آداب الرافدين / ع٨/ ١٩٧٧ / كلية الاداب / جامعة الموصل •

٣ ـ في الأدب الحديث : ١/ ١٨٣ •

٤ ـ الديوان : ٣٠ •

السرّاء، والضراء [1] ، فغلظ عليه القعود عن المسير معه ، فكتب اليه من قصيدة يتألّم من تأخّره عنه ، ويسأله الأذن له في صحبته في ذلك الغزو فيقول[2] :

تـضنّ بالحـرب عنّـا ضـنّ ذي بخـلٍ ومنك في كلّ حال يُعرَفُ الكرمُ

لا تبخلنّ علـى قـوم إذا قـتـلوا أثنى عليك بنو الهيجاء دونهـمُ

ألبست ما لبسوا ، أركبت ما ركبوا عُرّفت ما عَرفوا ، عُلّمت ما علموا

لا تشغلنّي بأمر الشام أحرسه إن الشام على من حلّه حَرَمُ

لا يحرمنّي سيف الدين صحبته فهي الحياة التي تحيا بها النّسمُ

فلم تقبل نفسه التخلّف عن واحدة من الغزوات لذا حاول أن يستعطف سيف الدولة ، في العدول عن رأيه القاضي ببقائه على أمرة الشام ٠

ولشدة ولعه بالحرب يترك الصبر إذا كان هو الخيار بينه وبينها إذ يقول[3]:

دع العبرات تنهمر انهمارا ونار الوجد تستعر استعارا

أتطفأ حسرتي وتقرّعيني ولم أوقد مع الغازين نارا؟

رأيتُ الصبر أبعد مايُرجّى إذا ما الجيش بالغازين سارا

وقد ثقفت للهيجاء رُمحي وأضمرت المهاري والمهارا

إذا سار الأمير فلا هدو لنفسي أو يؤوب ولا قرارا

أكابد بعده همّاً وغمّاً ونوماً لاألذ به غرارا

فالشاعر يتألم ، وهو الفارس المجاهد لأنّ جيش الحمدانيين سار للقتال ، ولم يأذن له الأمير بالسير معه، وفي هذه الحال فإن عبراته لاتتوقّف عن الدمع ، ونار الشوق تستعر ويزداد لهيبها في قلبه والحسرة تملأ عليه روحه ، ولن تقرّ له عين أو يرتاح باله ، لأنّه لم ينل شرف المشاركة مع المقاتلين في جهادهم وذودهم عن حمى الوطن والدين ولذا فمن المستحيل أن يصبر

---

١ ـ ينظر : اعيان الشيعة : ١٨/ ٥٨ ٠

٢ ـ الديوان : ٢٠٢ ٠

٣ ـ المصدر نفسه : ١٠٠ - ١٠١ ٠

على هذا الأمرالجليل ويبقى مع القاعدين ،وسيظل كذلك لايقرّ له قرار حتى يعود الأمير بجيشه منصوراً مؤزّراً ٠

لقد استولت الحرب على كلّ حياته ، فعلى الرغم من كونه الأمير في إمارته إلا انه يجد صوت قراع السيوف بين الصفوف أشهى اليه من شرب السلاف من كفّ ظبي ذي شنوف اذ يقول[1] :

أحسن من قهوةٍ معتّقةٍ بكفّ ظبي مُقرطق غنج

صوت قراعٍ في وسط معمعةٍ قد صبغ الأرض من دم المهج

إنّ الحرب لاسيّما مع الروم أصبحت شغله الشاغل حتى في حياته الطبيعيّة والتحكّم بعواطفه، ففي خطابه للمحبوب، وغزله، لايجد إلاّ الحرب، وغزو الروم اعداء بلاده وقومه موضوعاً يتمثّل به فيقول[2]:

أيّها الغازي الذي يغـزو بجيشِ الحبُّ جسمي

مايقوم الأجر في غَـزوك للروم بـإثمي

ولم تفعل مرارة الأسر ، ووحشة الغربة عن أهله ، وصحبه ، ووطنه في نفسه مافعله قعوده في هذا الأسر عن الحرب ، وتدبير أمور القيادة والرياسة، اذ يقول[3]:

تمرّ الليالي ليس للنفع موضعٌ لديّ ولاللمعتفين جَنابُ

ولاشدَّ لي سرجٌ على ظهر سابحٍ ولاضُربت لي بالعراءِ قِبابُ

ولابَرَقت لي في اللقاء قواطعٌ ولالمعت لي في الحروب حرابُ

إنّ مجمل التفكير الذي حدد أبو فراس بموجبه حياته ، وجُبلت عليه نفسه هو ((انّه محارب ماعاش مكافح في سبيل العُلا ، وإذا مامات فذاك أمر قد أولع به ، فذكره في شعره كثيراً لانّه شغل ذهنه ، ولهج به لسانه))[4]، فراحَ يباشر الحرب بنفسٍ توّاقة ، ترى في القعود

١ ـ الديوان : ٥٤ ٠

٢ ـ المصدر نفسه: ٢١٢

٣ ـ المصدر نفسه : ٢٨ – ٢٩ ٠

٤ ـ لغة شعر أبي فراس الحمداني : ٢٤ / رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية التربية للبنات / جامعة الكوفة / ٢٠٠١ ٠

عنها عاراً لايُمحى، لذا تذلّلت مخاوفه من الموت، حتّى استسهله فلايهابه فهو يقول[1] :

هو الموت، فإختر ماعلا لك ذكره ... فلم يمت الآنسان ماحيي الذكرُ

ولاخير في دفع الرّدى بمذلّة ... كما ردّها يوماً بسوءته عمرو

في حين ذهب البارودي في طموحه الحربي بإتجاه آخر ، فميراثه من عنصره الشركسي جعله حادّ المزاج ، كما جعله واسع الآمال ، بل لقد جعله يشعر في ضميره بأنّه فارس من طراز آبائه المماليك [2] ٠

لذا اتّخذ من نفسه وريثاً ذا سمات ميّزته عن غيره، وساعدته على ان يجعل من ذاته الطموح، الذي يسعى لإعادة مُلك أجداده، فقد دخل ((حرب كريد)) فأبلى فيها بلاءً حسناً ، وهو يقول[3]:

إنّا رجال تعلم الحرب أنّنا ... بنوها ويدري المجد ماذا نحاولُ

إذا مابتنى الناس الحصون فمالنا ... سوى البيض والسمر اللّدان معاقلُ

لقد وجد الشاعر في هذه الحرب فرصته العظيمة التي يحقق فيها هدفين معاً ، إشباع رغبته الخاصّة في خوض الحروب متمثّلاً في نفس والده وأجداده من ناحية ، ومقتدياً بالشعراء الفرسان الذين طالما أُعجبَ بهم ، وهو يقرأ شعرهم وسيرهم من ناحية أخرى[4] فهو يقول[5] في معرض التفاخر بشجاعته ، حينما تضطرم نار الحرب ، فتبلغ القلوب الحناجر ٠

فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى ... وماكنت إلا السيف فارقه الغمدُ

صؤول وللأبطال همس من الونى ... ضروب وقلب القرن صدره يعدُ

فما مهجة إلا ورمحي ضميرها ... ولالبّة إلا وسيفي لها عقدُ

والشاعر بإسلوبه هذا حاول مجاراة فرسان العرب الأوائل ممّن اختلطت شخصياتهم الأدبية،

---

١ ـ الديوان : ٨٧ ٠

٢ ـ ينظر : البارودي رائد الشعر الحديث : ٩٧ ٠

٣ ـ ديوان البارودي شرح : علي عبد المقصود عبد الرحيم : ٤١٢ ٠

٤ ينظر : نفسية البارودي من خلال شعره : ٣٠٧ / مجلة آداب الرافدين / ع٨ / ١٩٧٧ / كلية الاداب / حامعة الموصل ٠

٥ ـ الديوان : ١/ ١٣٩ ٠

بشجاعتهم الحربية ، وهذا ماكان يسعى لتحقيقه اولاً ، أما الهدف الثاني له فهو تحقيق الممارسة الفعلية التي يعتقد في لاشعوره أنه سيخوضها ، ان عاجلاً أم آجلاً للوصول الى بغيته ، كما إن شجاعته وقدرته في ادارة المعركة يعدان وسامي شرف يقودانه خطوة أكبر عند إسماعيل [1] ، ومن ثم يقودانه لارتقاء درجات جديدة في سلّم المناصب٠

إلاّ أنّ ذلك لم يلبّ طموحاته ، على الرغم من رئاسته لوزراء مصر ، إذ أنّ العرش كان نصب عينيه ، لذا وظّف قدراته العسكرية والحربية لصالح ثورة عرابي بعد ان انضمّ اليها٠

ويشارك البارودي في المعركة ، ويذكي المشاعر ضدّ إسماعيل إذ يقول[2] :

دع الذُّلَّ في الدنيا لمن خاف حتفه ... فَللموت خير من حياة على أذى

ولاتصطحبُ إلا امرأً إن دعوته ... لدى جمرات الحرب لبّاك واحتذى

فحتّى متى يادهر أكتم لوعة ... تكلّف قلبي كُلفة الريح بالشذا

ألم يأن للأيام أن تبصر الهدى ... فتخفض مأفوناً ، وترفع جهبذا

وهنا نداء صريح بالثورة وحمل السلاح على نظام الخديوي ، وذلك واضح من لفظة الموت التي تعني الكفاح المسلح ، وهو في الوقت ذاته يضع البديل أمام الثوّار؛ إذ أنه القادر أن يلبّي طموحاتهم ، فضلاً عن استعداده لقيادة الثورة ٠

والشاعر لايتردد عن ان يفصح عمّا في نفسه ، ففي قلبه لوعة ونارٌ مستعرة لاتطفأ إلا بتحقيق مايطمح اليه ، وهو يدعو الأحرار الى اتّباعه والسير ورائه إذ يقول [3] :

لعمري لقد ناديت لو أن سامعاً ... ونوّهت بالاحرار لو أن مُنقذاً

ولايتوانى عن لوم الاخرين لأنهم كسالى خاملون ، فهو يحثّهم على الاشتراك في الثورة ، والإطاحة بالنظام اذ يقول[4] :

وطوّفت بالآفاق حتّى كأنني ... أحاول من هذي البسيطة منفذا

---

١ - ينظر نفسية البارودي من خلال شعره : ٣٠٧ مجلة آداب الرافدين/ع١٩٧٧/٨ ٠ كلية الاداب / جامعة الموصل ٠

٣ - الديوان : ٢٢١/١ ٠

٣ - الديوان : ١ / ٢٢١ ٠

٤ - المصدر نفسه : ٢٢٢/١ ٠

فمـا وقعـت عـيني علـى غـير أحمـق غـويٍّ يـظنُّ المـجد فـي الـريِّ والـغـذا

إنّه سعى الى المجد من خلال تطوافه في البلدان، واشتراكه في الحروب، وقد حقق طموحات عدّة، ولكنّه مازال يطلب المجد ٠

مما تقدم يتّضح انّ الحرب كانت تمثل لأبي فراس المكان الأرحب، الذي يتمكّن من خلاله التفاخر مع الفرسان والوصول الى التفرّد ٠

وهذا يفسر لنا كثرة شعره الحماسي، والتطاول بفروسيته، إذ انّه يجد في الحرب متعة، وتحقيقاً لذاته [1] ، وسبيلا لما يطمح إليه من ميتة بين طعن القنا، وضرب السيوف، ولذا فهو لا يرتضي القعود عن واحدة من الغزوات ، ولأي سبب كان ، لاسيّما أنّه كان رجلاً حسن التديّن ، فـأثّر ذلك في شخصيته الحربية ، حتى أخذ يعتقد أنّ قتال الروم واجب ديني أملته الشريعة الإسلامية ، فضلاً عن أنّ البلاط الحمداني كان بعيداً عمّا يمارس في مركز الدولة العباسيّة، من مجالس للّهو، والطرب، لذا فإنّه لم يركن الى الدعة والراحة [2] ، ممّا أعطاه ذلك دفعاً بالاتّجاه الذي وظّف حياته لأجله ٠

ووفقاً لذلك أصبح ابو فراس متأهباً لحرب مستمرة داخل البلاد وخارجها ، فصيّره هذا محارباً قوياً غير كاره للقتال ، إذ أصبح ذلك بحكم عمله اليومي الذي يجد فيه نفسه بل صورته التي أحبّها، ولذا فقد هانت عليه الصعاب بعد أن تعوّد الصبر٠

من هنا يمكن القول : أنّ الحرب كانت بالنسبة له غاية أقرب منها للوسيلة، على أن لا يُفهَم من ذلك سيطرة النزعة العدوانية عليه، إذ لم يُعرَف عنه ذلك بقدر ما كانت بيئته بيئة حربيّة ، كان يجد ذاته في سوحها، إذ وظّف نفسه لقتال المفسدين، وانتزاع الحق لأهله٠

بينما البارودي فكان ترّقب الفرص سمة بارزة في سلوكه ،لأجل الوصول السريع لما يطمح إليه [3] ، ولذا فإنّ حربي كريد، وروسيا كانت الفرصة التي ينتظرها، كي يُظهر شجاعته، وحسُن قيادته للجيوش، إذ انّ ذلك سيرفعه درجة عند الخديوي، وهذا ما حصل فعلاً، إذ ظلّ يتدرّج في المناصب حتى وصل لرئاسة الوزراء، ولم يكتف عن هذا الحدّ، ((بل حاول أن

---

١ ـ ينظر : لغة شعر ابي فراس الحمداني : ٢٣/ رسالة ماجستير مطبوعة على الالة الكاتبة / كلّية التربية للبنات / جامعة الكوفة ٢٠٠١

٢ ـ ينظر : اعيان الشيعة : ٨١/ ٣٨ ٠

٣ ـ ينظر : نفسية البارودي من خلال شعره : ٢٨٩ / مجلة آداب الرافدين / ع ٨ / ١٩٧٧ / كلية الاداب / جامعة الموصل ٠

يوفّق بين الجيش والخديوي ويصلح الأمور، لكنّها تعقّدت أمامه بمطالبة الجيش بعزل توفيق، ونازعته نفسه يومئذ إلى المجد المؤثّل والى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر فخاض الثورة))[1] .

من هنا يتضح أنّ الشاعر وظّف الحرب بالشكل الذي يلبي مطمحه، وإذا ما حقّق مبتغاه أو فشل في ذلك ، فإنّه يحلّ ترحاله عنها.

نستدل على قولنا هذا من خلال موقفين للشاعر، الأول : تمثّل بجزعه الحرب في جزيرة ((كريد)) حينما طال به الأمد، إذ حنّ الى العيش الرغيد في القصر الملكي بعد أن إطمأنّ إلى مكانته فهو يقول [2]:

فمن لغريب ((سرنسوف)) مُقامه	رمتْ شمْلَه الأيّام فهو لهيدُ
بلاد بها مابالجحيم وإنّما	مكان اللظى ثلجٌ به وجليدُ
فمن لي بأيّام مضت، قبل هذه	بمصر ، وعيشي لو يدوم حميدُ

وهذا الموقف على خلاف ماعليه الفرسان المحترفين ، فلا وعورة المكان ولاالبعد، ولا شدة هول المعركة ممّا يثير في نفوسهم الجزع، إذ على العكس من ذلك فهم يتباهون بهكذا حال، وهذا ما لمسناه عند أبي فراس، إذ يفتخر باشتراكه مع جيش الحمدانيين حينما ذهب لمقاتلة الروم، فألمّت به ظروف عصيبة إذ يقول [3]:

علونا جوشنا بأشدّ منه	وأثبت عند مشتجر الرماح
بجيش جاش بالفرسان حتى	ظننت البرّ بحراً من سلاحِ
وألسنة من العذبات حمر	تخاطبنا بأفواه الرماح
فجادت ليلها سحّاً وهطلاً	وتسكاباً كأفواه الجراح
وأروع جيشه ليل بهيم	وغرّته عمود من صباح

فقد رسم لنا الشاعر صورة للجيش وقد احتشد فوق الجبل الشاهق في ليلة حالكة السواد

---

١ ـ محمود سامي البارودي / عمر الدسوقي : ٢٥ .

٢ ـ الديوان : ١/ ١٣٢ .

٣ ـ الديوان: ٦٣ .

غزيرة المطر حتى لكأن غزارته أفواه الجراح العميقة ، ولكن ذلك لم يثنه ، أو يفلّ عزيمته كما كان مع البارودي ، وهذا بطبيعة الحال يعود الى صلابة المبدأ ، وقوة الأيمان ، فضلاً عن شمولية الهدف.

أما الموقف الثاني الذي نستدل من خلاله على أن الحرب كانت بالنسبة للبارودي سبيلاً لتحقيق غاية ، هو أنّ الشاعر لم يُظهر شوقاً وتلهفاً للحرب، أبّان أسره بخلاف ماكان عليه أبو فراس، اذ لم يكن لبعده عن وطنه وأهله أثر في نفسه بقدر ماخلّفه البعد عن المعارك وسوح القتال ومقارعة الفرسان إذ يقول [1]:

فقد الضيوف مكانه	وبكاه أبناء السبيل
واستوحشت لفراقه	يوم الوغى سرب الخيول
وتعطّلت سمر الرما	ح وأغمدت بيض النصول

يتضح من هذا أن الحرب كانت عند أبي فراس غاية اقرب منها إلى الوسيلة، في حين كانت عند البارودي وسيلة تنقضي بانقضاء تحقق الغاية المرجوّة من ورائها .

ونخلص من كل ما تقدم، إلى أنّ الإنسان التجأ إلى الحرب باعتبارها وسيلة من وسائل البقاء، وضمان العيش، والحريّات، إلا أن لكل شخص أسبابه التي كونت منه مقاتلاً ، كما أن لكل شخص طموحاته، ووجهات نظره في الحرب التي يخوضها، فقد تظافرت عوامل سايكولوجية، وبيئية، واجتماعية، لتكوين شخصيتي ابي فراس، والبارودي، وطبعهما بالطابع الحربي ، فضلاً عن عوامل اخرى انفرد بها كل منهما ، فالاثر الديني كان واضحاً في شخصية أبي فراس، وتوجيهها بالاتجاه ذاته، لاسيما وأن الشاعر يعتقد ان قتال الروم واجب أملته الشريعة الاسلامية، على اعتبار انّهم مشركين .

وكان لليتم أثر ايجابي في حياته ، اذ خلق في نفسه هاجس التعويض لمكان والده ، واثبات ذاته في هذا المجال ، ايماناً منه للدفاع عن دينه ووطنه .

أما البارودي ، فقد خلقت عنده عقدة اليتم هاجساً انتقامياً للناس عامة ، والأسرة الحاكمة خاصة . لذا صيّر من نفسه جندياً محارباً، يسعى لاستعادة ملك آبائه المماليك، فكانت الحرب سبيله لذلك .

---

١ ـ المصدر نفسه :١٩٤ .

المبحث الثاني

صورة الذات وفقاً لمعايير الفروسية ومفهوم الموت

كانت الحرب صناعة البدوي في بيئة شديدة الجدب دفعته إلى النشاط والبراعة والجرأة كي يلبّي حاجات عيشه الملحّة ، لذا فان الروح الحربية لم تسد مكانا كما سادت جزيرة العرب .

من هنا جاء اهتمام العرب بتحسين أدواتهم وأسلحتهم وجيادهم ، إذ أحب العربي بوجه خاص جواده، فدربه وهذبه وعلمه، واتخذ منه صديقا وفيا ورفيقا ذكيا، فضلا عن حرصه على اقتناء الأسلحة الجديرة به[1] .

فقد كانت الفروسية محط اهتمام العرب كونها ميدانا للتسابق والتفاخر مع الآخرين فكان أغلب شعراء الجاهلية وصدر الإسلام فرسانا يخوضون المعارك ، ويتعاملون معها متخذين من الشعر أداة تعبيرية فاعلة في تسجيل وقائعهم وبطولاتهم[2].لذا كانت الفروسية سمة مميزة للعرب عن سواهم ،فضلا عمّا لها من ثراء في الشعر العربي القديم ، إذ أن لها تقاليدها وأعرافها التي يمكن أن تكون ماثلة في شخصية الفارس العربي . وأول تلك التقاليد : الشجاعة ، فالشجاعة قيمة اجتماعية حيّة دافع عنها الإنسان في مختلف عصور التاريخ ، وتحلّى بها على وفق أنماط سلوكية مختلفة ، وتجاوز في بعض الأحيان أبعادها المعروفة ، وقدم من أجل الحفاظ عليها تضحيات جسيمة لأنها عنصر أساسي من عناصر المباشرة لترسيخ الذات الإنسانية في حالة تعرضها لما يهدد وجودها [3] .

والشجاعة وسيلة من أبرز وسائل بقاء الأوطان والمحافظة عليها . فإنّ ما يميز الناس عن بعضهم هو قابليتهم في الدفاع عن النفس وعن الوطن حين تلم بهم الملمات،

---

١ - ينظر: تقاليد الفروسية عند العرب : ٣٧

٢ - ينظر: مع المتنبي في شعره الحربي : ٦٩

٣ - ينظر : محاولات في دراسة اجتماع الأدب : ٢ : ٥٦

وحين تمتحنهم الأحداث . ففي هذا الصراع يمكن فرز الخانعين عن الناهضين .[1]

من هنا كان للشجاعة الأثر الرئيس في تكوين الشخصية الفروسية عند أبي فراس الحمداني وتعوده الحروب وشدة هولها، إذ أنها ((أبرز ما في شخصيته، بل هي في طليعة مزاياها))[2]، لذا نجده يكثر من التفاخر والتغني بها، إذ يقول[3] :

واني لجرار لكل كتيبـــــــــة	معــوده أن لا يخـلّ بها النصــــر
واني لنزّال بكل مخوفـــــــــة	كثير إلـى نـزّالها النضر الشــزر
فأصدي إلى أن ترتوي البيض والقنا	وأسغب حتى يشبع الـذئب والنسر

هذه هي الصورة التي رسمها الشاعر لنفسه بعد أن خاض المعارك وجرّب هولها، ويبدو أنه صادق فيما يقول ((إذ لم يقل يوما ما لا يشعر به، ولم ينطق بما لا يعتقده، كان في شعره مثله في حياته، ذاك الصريح الصادق، الواثق بما يفعل ، فما كان الشعر عنده إلاّ صورة نفسه في خلجاتها الشتى وتجاريبها المختلفة ولذلك كان التلاؤم تاما بين الإحساس واللفظ ، فاللفظ يصطخب عندما يصطخب الشعور))[4].

فحينما يتحدث عن شجاعته إنما يتحدث عن مكنون ذاته التي كان لقومه الأثر الكبير في غرس تلك القيمة في نفسه، لاسيما وأن ذاته استوعبت قيم الآخرين وتمثلتها، وأدركتها[5]، فكانت شجاعته فطريّة مكتسبة، إذ أنّ للبيئة والتنشئة الاجتماعية دور كبير في تنميتها، فهي ليست وليدة حاجة معينة، أو موقف عابر بل هي مطمح شخصي سعى إليه الشاعر منذ نعومة أظافره.

في حين أن البارودي على الرغم من كون الشجاعة لابد أن تكون لها جذور ممتدة في نفس صاحبها إلا أن تأثير العوامل الخارجية في تكوين شجاعته وتنميتها واستجابته

---

١ - ينظر: مع المتنبي في شعره الحربي : ٧٩

٢ - أبو فراس الحمداني ، دراسة في الشعر والتاريخ : ٥١

٣ - الديوان : ٨٦- ٨٧

٤ - دراسات في الأدب العربي / انعام الجندي : ٢١٦

٥ - ينظر: الوصم الاجتماعي ومفهوم الذات الاجتماعية عند مجهولي النسب والأيتام ، دراسة ميدانية في دور الدولة للرعاية الاجتماعية : ٤٩/ رسالة ماجستير ، مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية الآداب/ جامعة القادسية ٢٠٠٠ م

هو لتلك العوامل كان أكبر بكثير من أثر الدور الفطري في خلقها ، فقد تضافرت عوامل عدة على صقلها منها ما ترك أثرا عميقا في نفسه ، ومنها ما وقف عند السطح والظاهر.

وأوّل ما يلاحظ من ذلك ـ وكما ذكر سابقا ـ أنه من عنصر شركسي، كان لآبائه حكم مر في وقت من الأوقات إذ أورثه هذا العنصر حدة في المزاج وطموحا واسعا، وميلا إلى حياة الحرب والفروسية [1] ، وهذا العنصر الوراثي قابله عنصر عربي مكتسب تمثل في قراآته لدواوين الحماسة العربية، فضلا عن إطلاعاته الواسعة على الآداب التركية والفارسية والانجليزية وما حققته حياة العسكرية له من سفر واحتكاك بالحضارات الأخرى وما كان للبيئة المصرية من أثر واضح في حياته[2]، كل ذلك وفّر له ميدانا خصبا لبناء تلك الشخصية التي كانت حلما يراوده منذ صباه، فأخذ يتطلّع إلى الملك بهمّة عالية حتى تذللت الصعاب أمامه إذ يقول[3]:

ومن تكن العلياء همة نفسه   فكل الذي يلقاه فيها محبب

إذا أنا لم أُعطَ المكارم حقها   فلا عزني خال،ولا ضمني أبُ

يتضح من هذا أنّ الشجاعة سمة تحلى بها البارودي ووطّأ نفسه لها ، على الرغم من التضحيات الكبيرة التي تتطلبها، كونها تمثل سبيله الوحيد إلى العلياء. فقد كان كثير الطموح، كبير المطامع في طلب العلا ، فلم يعبأ بركوب الأخطار فطلبها[4].

لقد حاول أن يشترك في كثير من الحروب التي اشتركت بها بلاده مع الدولة العثمانية ضد روسيا، إلى درجة أنّ المعارك أخذت حيزا كبيرا من حياته، فأصابه ولع بها منذ صباه،فترك لذلك الدعة والراحة، إذ يقول [5]:

لهج بالحروب فلا يألـف الخفـ   ـض ولا يصحب الفتاة الرداحا

---

١ ـ ينظر :الأدب العربي في مصر :٨٦

٢ ـ ينظر: المصدر نفسه :٨٦

٣ ـ الديوان : ١ /٣١

٤ ـ ينظر: أدباء السجون : ٣١٣

٥ ـ الديوان : ١ : ١٠٩

مسعر للوغى أخـــو غــدوات   تجـعل الأرض مــأتـمـا وصياحــا

ولا عجبَ في نلاحظ أنّ الفاظه في هذين البيتين وقد دلّت كلّها على القوة والبطش والموت لأن هذا ما أراده الشاعر ليدلّ على شجاعته التي ستكون سبيله الوحيد لتلبية طموحاته، فانه نأى بنفسه عن كل متع الحياة التي يمكن أن تقف حائلا دون تحقيق أمانيه.

مما تقدم يتضح أنّ شجاعة أبي فراس مطمحٌ شخصي وجد بوادره في نفسه فسعى لتنميته وتفعيله، إذ ساعدته عوامل عدّةٌ منها : بيئية واجتماعية ودينية، حتى صارت الشجاعة عنده عنوانا يتغنى ويتفاخر به، وصفة ثابتة في ذاته وشكّلت جزءاً مهما وكبيرا من شخصيته لأن ((شخصية الإنسان، تعني الخواص الثابتة نسبيا لسلوك الفرد في كل الأوقات، وفي مختلف الظروف))[1] .

في حين كانت شجاعة البارودي استجابةً لحاجات نفسية ملحّة، فشعوره بالمظلومية ولّد في نفسه إحساساً بوجوب الثأر من الظالمين ، حتى صار التميّز عنده مطلبا اجتماعيا مؤرّقاً ، إذ قاده ذلك إلى طلب الفروسية التي من خلالها يصبح فارساً ذا شأنٍ كبيرٍ عند الحكومة والشعب ، فكان هذا حافزاً دفعه للبحث عن الشجاعة، إذا ما علمنا أن الذات العربية تقدّس الشجاعةَ وبخاصة المتأججة بالثأر[2]. من هنا صارت الشجاعة هاجساً ملأ أُذنه رنينا منذ صباه ، ساعدت في توطيدها عوامل عدّةٍ منها: تأريخية واجتماعية.ولذا أصبح الدخول إلى المعركة حلماً يراوده كي يصل إلى مبتغاه في الإمارة.

ولعل توفّر دواعي الشجاعة في ذات الشاعرين ذلّل أمامهما كلَّ الصعاب والمخاطر التي يمكن أن تنجم جرّاء استعمالها ، فأبو فراس لم يتهيب المواقف الصعبة، ولم يكن للموت تأثير في زعزعة قوة قلبه ورباطة جأشه فهو يقول[3]:

علينا أن نعاود كلَّ يـوم   رخيـص عنـده المهـج الغـوالـي

فـان عشنا ذخرنـاها لأخرى   وان متنـا فـموتـات الـرجـال

---

١ - شخصية الإنسان : تكوينها وطبيعتها واضطراباتها : ٦

٢ - ينظر: التحليل النفسي للذات العربية – أنماطها السلوكية والأسطورية : ١١٣

٣ - الديوان: ٤

إنّ شجاعته لم تقترن بزمان أو مكان معينين، بل إنها خلاصة حياة كانت بين طعن وضرب، إذ أنّ ((الفارس يبذل نفسه في الحروب ولا يصونها مع اقتناعه بغيرها لحرصه على تخليد الذكر الجميل، والإبانة عن محلّ النفس في الشجاعة))[1] . فالشاعر حمل في ذاته تصورات معينة عن الموت والحياة، فقد كان موقفه من الموت يحمل معنيين: الأول تيقنه من الموت بين الأعنة والأسنة إذ يقول[2]:

وقد علمــت أمي بأن منيتـي　　　بحــد ســنان أو بــحدّ قضــيب

ويقول [3]:

متى مـا يدن من أجل كتابــي　　　أمُــتْ بـيــن الأعنّــة والأسنّــه

ويقول [4]:

حملت علـى ورود الموت نفسي　　　وقـلـت لعصبـتي ((موتوا كراما))

هـذه الرؤيـة اليقينيـة جـاءت وفقـا لمعـايير ذاتيـة جسّدها قـولا وفعـلا تمثّلت في أن الشجاعة وقاية والجبن مقتلة، واستقبال الموت خير من استدباره. من هنا أخذ ينظر ((إلى الموت قي ساحة النزال على أنه لون من ألوان العزّة والفخار ، ولذا صار رفيقا يؤنسه، لا شبحا يطارده))[5] .

ووفقا لما تقدّم لم ينشغل الشاعر بالموت والخوف منه بقدر انشغاله بنوع الميتة التي يرغب بها إذ يقول [6]:

ولكنني أختار موت بني أبـي　　　على صهوات الخيل غير موسّد

وتأبى، وآبى أن أموت موسّدا　　　بأيدي النصارى موت أكمد أكبد

---

١ - محاولات في دراسة اجتماع الأدب : ٢ : ٦٣

٢ - الديوان : ٤٢

٣ - المصدر نفسه :٢٢٠

٤ - المصدر نفسه : ٢١٣

٥ - لغة شعر أبي فراس الحمداني ، ٢٥ / رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية التربية للبنات / جامعة الكوفة - ٢٠٠١

٦ - الديوان : ٦٤

فلا يخاف من الموت إلاّ ذلك النوع الذليل الذي بقدومه يحطم عزّه وإباءه وكبرياءه .أمّا المعنى الآخر للموت فهو ما انتهى إليه جرّاء تأملاته المستمرة للحياة، واستسقاء المواعظ والعبر منها، إذ صار الموت في نظره رادع لكل أهل الغيّ والضلالة كي يعتبروا به فهو يقول[1]:

أما يردع الموتُ أهل النهى	ويمنع عن غيه من غوى
فيا لاهيا ً،آمنا والحمامُ	إليه سريع قريب المدى
إذا ما مررت بأهل القبور	تيقنت أنّك منهمُ غدا
فلا أملٌ غير عفو الإله	ولا عمل غير ما قد مضى

لقد استولى الموت على كل كيان الشاعر حتى إننا نجده يشحذ الهمم ويشد العزيمة كي يختار الميتة التي تخلد ذكره، معتقدا أن الإنسان يمكن أن يهب الحياة َحياة دائمة[2].

ومن غير الإنصاف أن نجد السيد إيليا الحاوي في كتابه الفنون الادبية عند العرب يعقد موازنة بين نظرة طرفة للموت ونظرة أبي فراس له ، إذ يرى أنّ أبا فراس لا يواجه فكرة الموت بالتعقيد بل واجهها بفكرة تقترب الى التفكير العلمي بينما طرفة أخذ يلج في سر الموت[3] ٠ والباحث بموازنته هذه لم يراع الفارق الزمني بينهما إذ أنّ أبا فراس كان متدينا زاهدا موقناً بالحياة الآخرة ، في حين أنّ طرفة جاهليا نظر الى الموت نظرة الحائر المتذبذب الذي لم يتيقن من الطريق السوي ، فضلا عن أنّنا لم نلحظ حديثا لأبي فراس – في شعره – عن ماهية الموت حتى يتسنّى له الغور في تفاصيله ٠

وربما لا يختلف البارودي عن الحمداني كثيرا ً فان مطامحه الكثيرة، وحبه المعالي أمليا عليه ركوب الصعاب فهانت عليه الأخطار فلم يعد يعبأ بها إذ يقول[4]:

---

١ – االبمصدر نفسه : ٢٣٠

٢ - ينظر : لغة شعر أبي فراس الحمداني : ٢٩ / رسالة ماجستير مطبوعة على الألة الكاتبة /كلية التربية للبنات /جامعة الكوفة /٢٠٠١.

٣ . الفنون الأدبية عند العرب فن الفخر وتطوره في الأدب العربي: ١٥١ . ١٥٢.

٤ . الديوان: ٥٢/١.

ولمّا تداعى القوم ، واشتبك القنا   ودارت كما تهوى على قطبها الحرب

ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا   سُقينا بكأس لا يفيق لها شرب

صبرت لها حتى تجلّت سماؤها   واني صبور إن ألمّ بيَ الخطب

هذه هي صورة الثبات في المعركة حين يتجلّى الموت بأبشع صوره أمام الأبطال و تكون الهزيمة طريقاً مشروعا إلاّ لمن وطّد نفسه على الصبر مستهيناً بالموت .

إنّ إقدام البارودي وولعه الحربي وتوظيف حياته بهذا الاتجاه، كل ذلك لم يأت استجابة عابرة، وإنما جاء وفقاً لرؤية شمولية جسّدها في نفسه أمران: تمثل الأول بإيمانه بحتمية الموت، وأنّه مصير كل البشرية، فهو يقول[1]:

فقد يهلك الرعديد في عقر داره   وينجو من الحتف الكميّ المسايح

وكل امرئ يوما ملاقٍ حمامه   وان عار في ارساته وهو جامح

وهذا باب من أبواب تعزيز الثقة بالنفس، وإعطاء الجانب البطولي فيها دفعة إلى الأمام ((إذ يكون من الطبيعي أن ترفد سمات الشجاعة في صور البطولة التي تقوّم مضامين قصيدة الحرب، حين ارتبطت بقانون حتميّة الموت، وتفضيل الموت العزيز على الموت الذليل))[2].

أمّا ثاني هذين الأمرين فهو ما تؤول إليه هذه الحرب إذ يقول:

فان عشت صافحت الثريا وان أمت   فانّ كريما من تضم الصفائح

إنّ الذكر الحسن وبناء المجد في كلا الحالين هو النتيجة الطبيعية التي يروم الحصول عليها، وهذا غاية طموحه، إذ أن ((مستوى الطموح معيار يحكم به الفرد على نجاحه أو فشله، فيما يقوم به من أعمال، ويستهدف تحقيقه من غايات))[3]. وذلك ليس بجديد على شخصية مزجت ماضيها بحاضرها، لتنشد من خلاله مستقبلا يرضي طموحها ويستوعب آمالها، إذ أنّ تاريخها الفكري - بما قدمه من أحداث فكرية ونزوعات ثقافية - يخلق ذاتاً اجتماعية فكرية لا تغاير السلف بل تنشد فيه المحاكاة

---

١ . الديوان : ٩٦/١

٢ . دراسات نقدية في الأدب العربي : ١١٧

٣ . أصول علم النفس : ١٠٤

والمماثلة[1].

وإذا ما علمنا بأن سلالة المماليك كانت تحكم مصر حكما ملكيا وراثيا فإنها لا يمكن أن ترى غير أبنائها وقد تربعوا على عرش البلاد، وهذا ما نقله البارودي من وحي آبائه له إذ يقول[2]:

وحسب الفتى مجداً إذاطالب العلا بما كان أوصاه أبوه وجدّه

إذا ولد المولود منا فدرّه دمُ الصيد، والجرد العناجيج مهده

يتبين مما تقدم أن عدم تهيب الموت في الحرب وغيرها كان سمة ملازمة لشجاعة الشاعرين. إلاّ أنّ الفارق بينهما هو أن أبا فراس ارتبطت ذاته بالشجاعة لأجل الشجاعة ذاتها، ولأجل تحقيق ما يراه صالحا عن طريقها، ولذا فقد غاب الموت عن عينيه حتى في أشد الصعاب، فلم يعبأ به حينما شَخَصَ أمامه في المعركة التي أُسر فيها، إذ لم يندم على موقفه هذا طول حياته بل ظلّ يتفاخر به[3]، كما و أنه ظلّ يقاتل ويقترب من الموت – على الرغم من علمه بدنوّه ـ حتى آخر لحظة من حياته، مع إمكانيته ترك المعركة التي قتل فيها، والتوجه إلى مكن آخر[4]، إلاّ أنه لم يشأ إلاّ الموت على أرضها.

أما البارودي فان شجاعته ارتبطت بمطامحه، فلم فلا يعبأ بالموت مادام يسير لأجل تحقيق تلك المطامح، إلاّ أن شبح ذلك الموت يرعبه حينما ييأس من تحقيق أهدافه، ولذا فقد انهار أمام المحكمة التي أخذت على عاتقها محاكمة الثوار في ثورة عرابي وأخذ يتنصل من التزاماته، والتبرؤ من رفاقه[5] لا سيما حين أخذ الموت يلوح أمام عينيه.

ووفقا لما تقدم من أسباب خلق وتحفيز الشجاعة في ذات الشاعرين تتجلى لنا المجالات التي وظّفت تلك الشجاعة فيها. فلم تكن الشجاعة عند أبي فراس مطمحاً شخصيا عابرا أو عبثيا، وإنما كانت استجابة لحاجات نفسية ملحة آمن بها، فوظّف نفسه للدفاع عنها، والموت في سبيلها، ويقف في مقدمة تلك الحاجات الحماس الديني وضرورة الدفاع عن العقيدة. إذ أنّ ((القيم الأخلاقية والعوامل الثقافية الدينية صاحبة أول دور في

---

١ - ينظر : علم النفس والتاريخ : ١٣٢

٢ - الديوان : ١ : ١١٨

٣ - ينظر : أبو فراس الحمداني : ٢٩

٤ - ينظر : خاتمة ديوان أبي فراس الحمداني : ٢٥١

٥ - ينظر : الثورة العرابية والاحتلال الانكليزي : ٥٦٦

تكوين الشخصية العربية))[1]. فكان ذلك حافزا قويا لتنمية قدرات الشجاعة والإقدام في نفس الشاعر كونه ((ذا دين متين واعتقاد ثابت رصين وخوف من الله تعالى وغيرة على الإسلام والعروبة))[2]. والمعروف عن الحمدانيين بشكل عام، وسيف الدولة وأبي فراس بشكل خاص أنهم ليسو طلاب ملك صرف،وإمارة محضة بل أن الباعث الديني، والغيرة الوطنية هما الدافعان الرئيسان على حماية المملكة وحفظها. فسيف الدولة يجمع من غبار غزواته للروم التي كان يقصد بها رد عادياتهم، لبنة ويوصي بها أن توضع تحت رأسه في قبره[3]، وأبو فراس يقول [4]:

فأحوط للإسلام أن لا يُضيعني ولـي عنك فيه حوطة ومنـاب

فهم الذائدون عن حمى الإسلام في وقت كان أغلب ملوكه مشغولين بلذاتهم، أو بالحروب بينهم .وبنو حمدان وحدهم الحامون للثغور، والواقفون بوجه الروم، يصدونهم عن غزو بلاد الإسلام، ولم يجرأ الأجنبي من اقتحام تلك الثغور إلاّ بعد انقضاء دولتهم[5].

لقد قضى الحمدانيون أيامهم في حروب متواصلة مع جيرانهم وأعدائهم الروم ، فكان لأبي فراس اليد الطولى في قيادة الجيوش الحمدانية وتسيرها ، وكان له الفضل الأكبر في إحراز النصر[6]، إذ انه المدافع عن قومه ووطنه، فقد بلغ من تحمسّه بقبيلته مدىً بعيدا فهو يقول[7]:

لنا في بني عمّي وإحياء إخوتي علاً حيث سار النيّران سوائـر

وإنهم السادات والغرر التـي أطول على خصمي بها وأكاثـر

من هنا كان الدفاع عن الوطن والأهل هاجسا أثار في نفسه الحميّة ليحث العنصر

---

١ - التحليل النفسي للذات العربية ، انماطها السلوكية والأسطورية : ١١١

٢ . أعيان الشيعة : ١٨ : ٣٩

٣ - ينظر : أبو فراس الحمداني :١١١

٤ - الديوان : ٣٠

٥ - ينظر : أبو فراس الحمداني : ١١١

٦ . ينظر : أعيان الشيعة : ١٨ : ٣٦

٧ - الديوان : ١٢٤

البطولي فيه كي يوظّفه بهذا الاتجاه، فكان التفاني من أجل بلده المكان الثاني لاستيعاب تلك الشجاعة فهو يقول[1] :

سيذكرني قومي إذا جد جدهـــم　　　وفـــي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ

فان عشت فالطعن الذي يعرفونه　　　وتلك القنا والبيض والضّمر الشقر

فمكانه بين قومه مكان البدر وسط الظلام ، وفقدان البدر يثير الخوف والرعب من المجهول . وهذا ما كان يلمسه الشاعر من مكانته المهمة بين الحمدانيين . ولم يكن إحساسه هذا تمنيات وأحلام فانّ أخباره – كما وصلت إلينا- تدل أن أشعاره صور صادقة عن حياته الواقعية ومُثُلُه العليا ، فتجربته الشعرية انعكاس لحياة عاشها، متفاعلا ومنفعلا ومتفهما لكل أبعادها، فقد بينت تلك التجربة موقفه النفسي من جهة، ورؤيته للواقع والحياة من جهة أخرى[2].

مما تقدّم يتّضح لنا أنّ الشاعر نظر إلى شجاعته وفروسيته على أنها ميدان يتمكن من خلاله خدمة مبادىء الدين الحنيف، والدفاع عن وطنه.

هذه المجالات التي أفنى الشاعر حياته فيها وُظّفت في نهاية المطاف – من قبله- لتكون الأداة الأكثر مطاوعة في بناء مجده وخلوده الأزلي ، وهذا ما كان يسعى إليه كثيراً سواء بتحقق النصر أو بالحصول على الشهادة. إذ أن الاستشهاد صورة من صور الاقتحام البطولي[3]، الذي سجله المجاهدون واعتزوا به، ولذا نجده يقول[4]:

فمثلي من نال المعالي بنفســه　　　وربّمـا غالتـه عنـها الغوائـــلُ

وما كلّ طلاّب من الناس بالـغ　　　ولا كـلّ سيّار إلـى المجـد واصل

ومالي لا تمسي وتصبح في يدي　　　كـرائم أمـوال الـرجال العقائـل

أُحكّم في الأعداء منها صوارم　　　احكّمها فيـها إذا ضاق نـــازل

---

١ – المصدر نفسه : ١٢٤

٢ - الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني : ٦٣ / رسالة ماجستير ، مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية الآداب / جامعة بغداد / ١٩٩٧

٣ - ينظر : شعر الحرب في عصر الرسالة : ٣٧

٤ - الديوان : ١٨٥

فليس كل من يطلب المجد يحصل عليه، إذ أنّ لذلك أدوات خاصة به، وشخص يحسن استعمالها، فكان هو الذي تحكّم بناصية الأمور من خلال ما حضي به من تفرد بطولي أهّله لذلك ، فصار محطّ أنظار الآخرين ،إذ أنّ بعضهم ينظر إلى الشخصية بأنها ((ذلك المفهوم الذي يصف الفرد من حيث هو كل موحد من الأساليب السلوكية والادراكية المعقّدة التنظيم ، التي تميزه عن غيره من الناس وبخاصة في المواقف الاجتماعية))[1] .

أما البارودي فشعره البطولي ينبئنا أن شجاعته كانت سبيلا لمبتغاه،إذ أنّ أغلب قصائده في هذا الباب هي إشادة بآبائه ،وتذكير بمجدهم ومآثرهم البطولية إذ يقول[2]:

وإنا رجال تعلم الحربُ أننا بنوها ويدري المجد ماذا نحاولُ

إذا ماابتنى الناس الحصون فما لنا سوى البيض والسمر اللذان معاقلُ

بهذه الصورة حاول الشاعر أن يصنع له أرضية صلبة يحاول الانطلاق منها لمديات أرحب في سبيل إعادة المجد المملوكي إلى سابق عهده، لذا فقد ألحّت عليه فروسيته العارمة في أطواء نفسه تريد أن تثبت ذاتها في ميادين الحرب، فيلهج بذلك في عالم خياله،راجيا أن يستكمل مناه، فهو يقول[3]:

فمن لي -والأماني كاذبات- بيوم في الكريمة ارونان

ألاعب فيه اطراف العوالي وأطلق بين هبوته حصاني

تراني فيه أول كل داعٍ ويرتفع الغبار فلا تراني

ولربما سمعت الأقدار ندائه فاستجابت له، إذ قاد حملة عسكرية ضاربة في جزيرة كريد عام ١٨٥٦[4]. وهناك أبلى البلاء الحسن الذي ميّزه عن الآخرين ،إذ قاده درجات عند الحكومة. فحقق بذلك أولى خطوات طموحه،ومن هنا صارت بطولاته سبيلاً لإعلاء شأن، وإشادة بذاته وما يصبو إلى تحقيقه، وما يظنّه من صفات نفسه.ولذا لم

---

١ - الشخصية وقياسها: ١٠٥

٢ - ديوان البارودي : شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم : ٤١٢

٣ - ديوان البارودي شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم : ٥٦٢

٤ - ينظر : محمود سامي البارودي/ علي الحديدي : ٤٧

نلمح في شعره أي إشارة تعنى بتوظيف بطولاته لأجل وطنه أو عقيدته، إذ أن كل ما قاتل لأجله ودافع عنه هو طموحه ومجده. ولذا تنصل عن الثورة العرابية التي انتمى إليها وحرّض الشعب للقيام بها حينما وجد أنّ مطامحه وما بناه من مجد قد ذهبا أدراج الرياح[1]، فهو يقول[2]:

فيا ليتني راجعت حلمي ولم أكن | زعيما وعاقتني لذاك العوائقُ

ويا ليتني أصبحت في رأس شاهق | ولم أر ما آلت إليه الوثائقُ

انه قد ندم على تزعّمه الثورة وكم كان يتمنى لو أن عائقا عاقه عن ذلك، أو أنه كان في مكان عالٍ ولم ير الأمور حتى لا يخوض الثورة مع الثوّار.

من هنا يتّضح أنّ أبا فراس وظّف شجاعته وبطولاته الحربية دفاعا عن دينه ووطنه وبناء مجده، إيمانا منه بهذه المجالات، وتحقيقاً لذاته التي أرادت تعويض ما فقده بموت أبيه دون الانتقام من احد، وهذا بفضل التنشئة الاجتماعية ((فالمعتقدات الدينية تشحذ الأخلاق وتربطها بالذات الخالدة، والقيم الدائمة السامية))[3].

في حين كانت شجاعة البارودي مجالا لتحقيق أهدافها المتمثلة بإعادة مجد آبائه المماليك، فعكف على تعلم سبل الحرب عن طريق انخراطه في سلك الجندية، إذ قوّى نفسه عليها حتى خاضها بكل بسالة. فأوصله ذلك إلى مناصب عليا في الدولة على الرغم من أن هذا لم يلبِّ مطمحه، لذا نجده يشترك بثورة الضباط، التي كان يأمل منها عرش البلاد، إذ يقول[4]:

فحتى متى يا دهر أكتم لوعةً | تكلف قلبي كلفة الريح بالشذا؟

الم يأن للأيام أن تبصر الهدى | فتخفض مأفونا، وترفع جهبذا؟

لقد جاءت آمال البارودي بعيدة الأفق لا تقف عند حدّ، حتى بلغت التطلّع إلى العرش[5]، إلا أن الأقدار خانته، فقضى بقية حياته في المنفى.

---

١ - ينظر : الثورة العربية والاحتلال الانكليزي : ٥٦٦

٢ - الديوان : ٢ / ٣٠٠

٣ - التحليل النفسي للذات العربية – أنماطها السلوكية والأسطورية : ١١٩

٤ - الديوان : ١ : ٢٣٢

٥ - ينظر: الثورة العرابية والاحتلال الإنكليزي : ٢٣١

ويبدو أن تعلق الشاعر في المناصب، وطموحاته التي ليس لها حدود، كان بسبب إحساسه بالمظلومية التي استشعرها نتيجة إزاحة آبائه عن ملكهم ، على الرغم مما قدموه للبلاد ، فضلا عن مقتل أبيه وجده لامه من قبل أسرة محمد علي الغاصبة لحقّهم، كل ذلك خلق في نفسه عقدة انتقامية من الآخرين، لذا حاول أن يجعل من ذاته الشخصية َ المعيدة للأمجاد. فأخذ يترقب الفرص، فكان ذلك سمة بارزة في حياته[1]. فضلا عن أن الشاعر بتربيته الخاصة وشخصيته الشاعرة قد ((امتلك نفسا تستنكر الظلم والاستبداد. وكان إسماعيل حاكما مستبدا، ومن هنا جاءت ثورة البارودي ضد حكم إسماعيل وبطانته))[2].إلاّ أن البارودي وعلى الرغم من معرفته لذاته هذه فقد كان يعيش نوعا من الصراع الداخلي، أو حالة من عدم التوافق بين صورة ذاته من جهة، والإلحاح اللاشعوري الذي كان يدفعه باتجاه تحقيق أهدافه الخاصة من جهة أخرى. فالذات – بحسب رأي روجرز – ليست هي القوة الوحيدة التي تسيطر على توجيه السلوك، بل هناك الدوافع العضوية والشعورية التي قد يقع الفرد فريسة لها في بعض الأحيان، فيشعر بالتمزق والصراع، صراع بين ما تقتضيه هذه الدوافع وبين فكرته عن ذاته، إذ يحصل التوافق إذا ما عملت هاتان القوّتان في اتساق وانسجام الواحدة مع الأخرى . أمّا إذا حدث تعارض بينهما وتكرر ذلك فان النتيجة تكون عدم التوافق وعدم التكيف والوقوع في حالات التأزم [3]. وهذا ما عاشه البارودي إبان اندلاع الثورة العرابية، فلم يدخلها باندفاع قوي ((إذ حاول أن يتلافى هذه الحركة.... ولكن الأمور سارت على غير هواه، واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق، وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد، وتحركت فيها أسباب الاعتداد بمكان أجداده المماليك[4])).

إنّ هذا الصراع الداخلي جعله في حيرة من أمره غير متيقن من جادة الصواب، ولذا فحينما دخل الثورة لم يدخلها بخطى ثابتة ومبدأ رصين، إذ سرعان ما تبرّأ منها ومن الثوار أمام المحكمة بعد فشل تلك الحركة. وظلّ الندم يراوده طوال سنيّ نفيه. في حين

---

١ - ينظر : نفسية البارودي من خلال شعره ، مجلة آداب الرافدين / ع ٨ / ١٩٧٧ / كلية الآداب - جامعة الموصل : ٢٨٩

٢ - نفسية البارودي من خلال شعره : ٣٢

٣ ـ ينظر: الشخصية وقياسها : ١٠٧

٤ - في الأدب الحديث : ١ : ١٠٥

أن دخول أبي فراس الحرب وإصراره على القتال في موقف يقتضي منه الفرار لعدم التناسب في العدد والعدّة بينه وبين العدو جعله غير آبه بما يقوله الناس حينما أُسِرَ عند الروم، ولم يندم على ذلك طيلة حياته، وهذا يعود لصلابة الموقف وقوة الإيمان المبدئي.

إنّ وجود الشجاعة وحدها في الشخص غير كاف لتمتعه بسمة الفروسية، إذ لا بد من توفر بعض المزايا التي من خلالها يستطيع صقل تلك الشجاعة ، وتوجيهها الوجهة الصالحة للمجتمع، ولقد ((حرص الشعراء ...... على اقتران الجانب البطولي بالجانب الأخلاقي، وتوحيد خصائص الشجاعة مع نوازع الالتزام بكل ما يدعو إلى الحفاظ على المُثل العربية، ......وهنا تتجلى صورة الفخر، وتلــوح هيئة النموذج البطولي الرائد بطولــــةً وأخلاقاً))[1]. إذ أجهد الفرســان أنفسهم لاجل تمثّل تلك الخصال، وممارستها قولا وفعلا ، ومن ثمّ التفاخر بها. وأول ما حاولوا إضفائه على أنفسهم صفة الحكيم، فلقد كانت صورة الحليم من الصور التي استحسنوها وتباهوا بها في محافلهم، لا سيما إذا كانت تمارس مع أعدائهم.وأبو فراس اعتز بهذه السمة بعد أن اعتقدها في ذاته إذ يقول[2]:

إباء إباء البكر غير مذلل   وعزم كحد السيف غير مفلل

فلما أطعت الجهل والغيظ ساعة   دعوت بحلمي: أيها الحلم أقبل

فالضعيف ليس حليما، إنما الحليم من كان يملك قوةً وعقلا يتحكم بتلك القوة حتى لا تتحول بطشا وظلما دون مسوِّغ. وكثيرا ما كان العرب حلماء في تركهم الحرب وجنوحهم للسلم، إذ أن ((جنوح العربي إلى السلم ودعوته إلى نبذ الحرب، اتقاء لويلاتها كانت حقيقة مشرقة تؤكد حلم العربي والتزامه))[3].

ولم يكن حلم أبي فراس مجرد أماني قالها في شعره بل كانت حقائق مارسها في حياته سلماً وحرباً. فعلى الرغم من معرفته بوشاية قومه به عند سيف الدولة، حاول أن يظهر أمامهم بمظهر الحليم الذي يعفو عن سيئاتهم ويتجاوز عن خطاياهم، إذ يقول

١- محاولات في دراسة اجتماع الأدب : ٢ : ٦١

٢ - الديوان : ١٧٦- ١٧٧

٣ - لمحات من البطولة العربية في شعر الحرب ((في القرن الأول للهجرة)) : ١١

وهو في الأسر[1]:

وأسطو وحبّي ثابت في صدورهم	وأحلم عن جهالهم وأهـــابُ

أمّا في معرض الحرب فقد كان كثير الصفو والصفح لا سيما عندما يتمكن من عدوّه فهو يقول[2]:

وفتيان صدق من غطاريف وائل	إذا قيل ركب الموت قالوا له انزلِ
يتيمات نحميهن ليس يرينني	بعيد التجافـــي أو قليل التفضّــل
شفيع النزاريات غيـــر مخيّب	وداعي النزاريات غيـــر مخـذل
رددت برغم الجيش ما حاز كلّه	وكلفت مالــــي غرم كل مضلل
فأصبحت فـي الأعداء أيّ ممدّح	وإن كنت فـي الأصحاب أيّ معذّل

وهنا يتجلى موقف الفتيات المنكسرات وهن يتعلقن برداء ابي فراس يستعطفنه ويرجون ردّ أموالهم وإطلاق سراح رجالهن، بعد تغلب الجيش عليهم، فما كان من الفارس الحمداني إلاّ أن يلبي طلبهن ويردّ كلّ الغنائم التي حازها جيشه، ويعوّض من ماله الخاص ماضاع من تلك الغنائم ليكسب الثناء والذكر الحسن، وهذا ما اعتاد عليه العربي فقد كانت الشهامة والمروءة من السجايا الملازمة لحياتهم . ويتمثل ذلك في الإسراع إلى إجابة الداعي والمستغيث والملهوف والمكروب وحماية الذليل وتامين الخائف وتهدئة المرتاع وبخاصة النساء، والأنفة من الظلم[3]. وذلك
ما أوجبته متطلبات البيئة العربية حتى أصبح جزءاً من شخصية فرسانها .

ولم يكن البارودي بمنأى عن هذه السمة الرفيعة اذ عرفها وتمثلها في شعره ومن ذلك قوله[4]:

تحبب إلى الأخوان في الحلم تغتنم	مودّتهم فالحلم للشـــرّ يرفــض

---

١ - الديوان : ٢٩

٢ – المصدر نفسه :١٧٦- ١٧٧

٣ - ينظر : شعر الحرب في العصر الجاهلي : ١: ١٩٦

٤ - الديوان : ١ /١٦

والبارودي كثيرا ما ينصح بمراعاة الناس ودفع الشدة باللين والغضب بالحلم[1]. وقد صوّر جملة من صفاته ومراعاته الناس ومودته لأصدقائه ووفائه لهم في قوله[2]:

ملكت يدي عن كل سوء ومنطقي فعشت بريء النفس من دنس العذر

وأحسنت ظني بالصديق وربما لقيت عدوّي بالطلاقة والبشر

فأصبحت مأثور الخلال محببا إلى الناس مرضي السريرة والجهر

إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن لدوداً ولا تدفع يد اللين بالقسر

ولا تعترف بالذلّ في طلب الغنى فان الغنى في الذلّ شرٌّ من الفقر

ودار الذي ترجو، وتخشى وداده وكن من مودّات القلوب على حذر

هذه الصفات التي أوصى بها الشاعر لا شك أنها تمثلت في شخصيته، وذلك لسببين الأول يكمن في انه يحمل نفساً حسّاسة شاعرة تستهجن ظلم الناس ، أمّا الثاني فانه حاول كسب ودّ المجتمع ليتخذه سبيلاً لتحقيق غاياته، وهذا ما نلحظه إبان الثورة العرابية، فقد حاول التوفيق بين الحكومة والشعب لكسب رضا الطرفين[3].

ومن صفات الفروسية الأخرى التي تغنّى بها الشعراء، وحملت في طيّاتها مدلولات إنسانية عظيمة هي (البيات) ((فالعرب لا تعرف البيات – مباغتة العدو ليلا- وكانوا لا يهاجمون خصما حتى يعذروا إليه ويخيروه بين أداء الحق أو التبرؤ منه مع تقديم البيّنة أو الحرب))[4].

وقد حمل أبو فراس نفسه على التحلي بهذه السمة وممارساتها، فهو يقول[5]:

ولا أصبح الحيّ الخلوف بغارة ولا الجيش ما لم تأته قبلي النُذر

فشخصية أبي فراس المتمثلة بفروسيته حكمت علاقته حتى مع الاعداء، فلا يغدر ولا يفاجئ، وهو يعلن - حينما يكر- أنه أبو فراس، وكأنه يريد ان يضرب باسمه

---

١ - ينظر : في الأدب العربي : ١ : ١٥٥

٢ - الديوان : ٢ : ١٢- ١٤

٣ - ينظر : في الأدب الحديث : ١: ١٥٠

٤ - الفنون الأدبية عند العرب : فن الفخر وتطوره في الأدب العربي : ١٨

٥ - الديوان : ٨٦

المرعب قبل سيفه[1].

في حين أنّ البارودي لم يتعرض لمسألة(البيات) ولم يذكرها في شعره، وهذا يعود إلى طبيعة الحرب في عصره ، إذ اختلفت عن طبيعتها في العصر العباسي، لا سيما بعد التقدم الإعلامي والمشاحنات الكلامية التي كانت تسبق الحرب، وهذا ما لم يكن عليه الأمر زمن أبي فراس الحمداني.

ولم تقتصر سمات الفروسية على ما تقدّم ذكره، فهي كثيرة،تمثل كل الصفات الحسنة التي تلاقى بالترحيب من قبل المجتمع ، وتستحق أن يُفاخر بها.

وأبو فراس لا يرى مكاناً للسوء في نفسه تلك النفس الأبيّة التي لم تقبل الضيم يوما، إذ يقول[2]:

افرُّ من السوء لا أفعلــــه	ومن موقف الضيم لا اقبلـــه
وأبذل عدلــــي للأضعفين	وللشامخ الأنف لا ابذلــــه

وكأنّي بالشاعر قد نصّب نفسه سيفاً للعدل والانتصاف من الظالمين.

والبارودي هو الآخر حاول أن يضفي على شخصيته الكثير من صفات الفرسان منها ما هو قديم لا يتناسب ومجريات عصره، لكنّه جاء بها تقليداً لفرسان العرب الأوائل، ومنها ما كان مغروساً في ذاته وجزاءاً من طباعه.

فقد كان عالي الهمة، سريع النجدة أبيا إذ يقول [3]:

إذا لم يكن إلاّ المعيشــــة مطلب	فكل زهير يمسك النفـــس جابــــر
من العار أن يرضى الدنية ماجــد	ويقبل مكذوب المنى وهو صاغـــر
إذا كنت تخشى كل شيء من الردى	فكل الذي في الكون في النفس ضائر

وأمّا جوده فطالما تغنّى به في شعره وحثّ الناس على الجود، ووضع من شان المال والتباهي به[4]،

---

١ ـ أبو فراس الحمداني : رحلة الحياة ، ومسيرة الموت ، مع مختارات شعرية : ٢٤

٢ ـ الديوان : ١٩٥

٣ ـ المصدر نفسه : ٢ : ٦٨- ٦٩

٤ - ينظر: في الأدب الحديث : ١ :١٥٥

فيقول[1]:

فلا تحسبنّ المال ينفع ربّه ... إذا هو لم تحمد قراه العشائر

فقد يستجمُّ المال، والمجد غائب ... وقد لا يكون المال والمجد ناصر

ولو أن أسباب السيادة بالغنى ... لكاثر ربّ الفضل بالمال تاجر

لقد أدرك الشاعر أن المال لا يمكن أن يجلب له العز والجاه بقدر ما يبذله من هذا المال، ليذيع به صيته، وتحمد خصاله.

ومن تمام شخصية الفارس العربي في عصوره القديمة أن يحمل بين جنبيه قلباً عاشقا، وفي يديه دناً مسكراً،وأن يتسامى في عشقه، وخمره، يحكم سمو نفسه فلا يتدنى فيهما، بل يظل محتفظاً بشيمه النبيلة، وكان البارودي يتمثل هذه الصورة منذ صباه، حتّى تكاملت في نفسه حينما أصبح فارسا شاكي السلاح[2].

مما سبق يتبين أن أبا فراس تغنى بأغلب سمات الفروسية المتعارفة في عصره، ومارسها في حياته، وهذا ما أملته عليه تقاليد الحرب آنذاك، وقيدته به البيئة العربية، فضلا عمّا وقر في نفسه منها بسب حرص عائلته على تنشئته بهذه الصورة.

أمّا البارودي فتربية القصر له وحرص والدته على غرس صفات الفرسان في نفسه، فضلا عن نفسه الشاعرة،كل ذلك ولّد فيه خصال الفروسية الحميدة، إلاّ انه حاول إضفاء بعض مزاياه على شخصيته مجاراةً للشعراء العرب الفرسان وذلك نابع من إيمانه أن الفروسية باب من أبواب المجد والرفعة . لذا حاول حمل نفسه على إتقانه.

وخلاصة القول أن الشجاعة عند أبي فراس مطمح شخصي وجد بوادره في نفسه فسعى لتنميته ، إذ ساعدته في ذلك عوامل عدة منها بيئية واجتماعية ودينية حتى أصبحت شجاعته عنوانا له ، فكانت سمة مميزة لشعره .

وهو بهذا الحال، لم يعد يعبأ بالموت ولم يتهيّبه بقدر ما كان حريصا على أن لا يفوته موت العزّ والشرف وسط المعارك.

لقد وطّد الشاعر نفسه لأن تتمثل جميع مزايا الفرسان حتى مارسها قولا وفعلا، إذ أن تقاليد الحرب في وقته ومتطلّبات بيئته فضلا عن تنشئته الحربية، كل ذلك وقّر

---

١ - الديوان : ٢ :٧٠

٢ - ينظر: البارودي رائد الشعر الحديث : ٥٤

تلك السجايا في ذاته حتى أصبحت جزءاً من شخصيته

أمّا البارودي، فان شجاعته كانت استجابة لحاجات ملحّة في نفسه، فإحساسه بالظلم ولّد في نفسه دافعاً للثأر، لذا حاول تعلم سبل الحرب أيمانا منه بتنمية تلك الشجاعة التي ساعدت في بنائها عوامل تأريخيّة واجتماعية، فضلا عن سعيه لتمثل مزايا الفرسان بقصد التميز والظهور بمظهر الفارس الشجاع الذي لا يهاب الموت، لذا اندفع للدخول في المعارك بشدّة لأجل تحقيق أهدافه. إذ لم يحسب للموت أي حساب، ولكن متى ما ضاعت مطامحه، فان الموت يصبح شبحاً يطارده

يحاول التخلّص منه بأي صورة وبأي ثمن.

المبحث الثالث

صورة الذات في المعركة وما بعدها

لقد أدرك العربي أنّ الحرب نتاج طبيعي لردّ العدوان حين تفشل سبل السلام. وهي نتاج للصراع بين الحقّ والباطل. لذا أخذ يعدُّ العدّة ويهيئ نفسه، ويوطّدها على تحمّل أعبائها إذا فرضت عليه.

لذا فأنّ الحياة عوّدت الإنسان - في الغالب - على أن يكون قويا، وحملته على أن يمارس كلّ الأساليب التي تجعله قانعا بما يؤكد في نفسه من أسباب هذه القوّة، لأنه كان يدرك أنّ الضعف في حدّ ذاته فناء، وأنّ الهزيمة التي تكتب عليه في كلّ معركة تعني خضوعه وارتماءه في مهاوي الذلّ، وقبوله بكلّ ما تفرضه عليه إرادة المنتصر مهما كانت هويته، وقد دفعه هذا الشعور إلى أن يظلّ دائما في حالة توثّب، وأن تظلّ أسلحته مهيأة قادرة على الردّ الحاسم[1].

ومع هذا التوثّب والتهيّؤ، اختلف الفرسان في مدى قابليّاتهم على خوض المعارك، إذ اقترن ذلك بقوّة الدافع نحوها، وقابلية خوضها والصبر على أذاها، وتقبّل نتائجها.

فكلّما كان الدافع قريبا من الحقّ، أو انه الحقّ- في نظر صاحبه- كان ذلك حافزاً لدخولها وبذل المزيد لأجل كسبها.

وقد تفاوتت دوافع الحرب فيما بين المحاربين على اختلاف العصور، على أنّ هناك اتّفاقاً يقضي بأحقّية الدفاع عن النفس، والحقوق في حال تعرّضها للانتهاك.

ووفقاً لما تقدّم فقد وظّف أبو فراس حياته في معارك ضارية امتدّت حتى مماته، تمثّلت في الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وعن العرب، إذ ينتظم أبو فراس في سلك الذين أخذتهم العزّة العربية، فافتخروا بها، ورأوها ذات قيمة في المجد[2].

ولذا ظلّ يخوضها مدافعا عن قومه، حتى اعتقد أنها خصيصة من خصائص العرب والمسلمين، لا يجوز لأحد غيرهم ممارستها، والتفاخر بها، فهو يقول[3]:

---

١ - ينظر: شعر الحرب عند العرب:٢٧

٢ - ينظر: أبو فراس فارس بني حمدان، وشاعرهم : ٦١

٣ - الديوان: ١٩٨

فقل لابن فقّاس: دع الحرب جانباً فإنّــك رومـــيّ، وخصمــك مســلم

نلمس من فخره هذا وحماسه الحربي حسّه القومي[1].إذ أنّ أبا فراس يمثّل الفتوّة العربية في أخلاقه ومزاياه وفي دفاعه عن العرب، فالشعور بالقومية كان شبه معدوم عند القدماء، فظهرت بوارقه بعد الإسلام[2]. من هنا كان الشاعر يرى في سيف الدولة الحمداني، والحمدانيين عامّة رمزاً عربيا قومياً، إذ يقول[3]:

وانــك للـجـبل المشـمخــ ـرّ لـي بـل لقومـك بـل للعـرب

لقد اعتقد أبو فراس أنّ دولة الحمدانيين هي الدولة العربية التي يمكن أن تكون أنموذجا صالحاً لدولة العرب الموحّدة حين كان يعتري الدولة العباسيّة التفرق والتمزّق وتشكو سيطرة الأعاجم على سلطانها، فالحمدانيون لم يكونوا يخوضون غمار المعارك أو يريدون الحرب لأجل الحرب، وإنما ليدافعوا عن حماهم ووطنهم غائلة الظلم والعدوان، متّخذين من منابع الدين الإسلامي وقيمه الروحية وتراثه النضالي مناراً للتصدي للمعتدين[4].

لكلّ هذا توثّبت روحه للقتال، فاندفع بقوّة متيقّناً من عدالة القضية التي يدافع عنها، فكان لذلك الأثر الكبير في استسهال الموت في نفسه. إذ أخذ يحذو حذو الشهداء الذين يتخلّون عن حياتهم، ويتّجهون صوب الموت، فذلك - في نظرهم- أقلّ أهمية من بنية الذات، لكي يتمسّكوا بمعتقداتهم، وينطبق ذلك على كلّ المعتقدات الدينيّة والسياسية والأيدلوجية[5].

فمن هنا بدأ الشاعر يدخل المعارك بروح متفانية، صابرة، شديدة البلاء، إذ امتلك من المقوّمات ما يؤهّله لذلك.

فإحساسه بالتفرّد بالشجاعة مكّنه من زرع الثقة العالية بالنفس إذ أنّ ((الشجاعة أهمّ صفات البطل، لأنها العماد الذي تقوم عليه شخصيّته، وتتوقّف عليه شهرته، وعدّه بطلاً حقيقياً، ومعناها شدّة القلب، ورباطة الجأش، وقوّة العزيمة، والثبات عند البأس، وهذه أمور معنوية لا

---

١ - ينظر الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني: ٢٥٢/ رسالة ماجستير/كلية التربية /ابن رشد - جامعة بغداد/١٩٩٧/ مطبوعة على الآلة الكاتبة.

٢ - ينظر أبو فراس الحمداني / دراسة في الشعر والتاريخ:٥٥

٣ - الديوان :٤٦

٤ - ينظر التيار القومي في الشعر العراقي الحديث، منذ الحرب العالمية الثانية حتى نكسة حزيران ١٩٦٧: ١٧٢

٥ - الشخصية السليمة: دراسة من وجهة نظر علم النفس الإنساني: ٢٢

تعرف بطبيعة الحال إلاّ بآثارها))[1] وآثارها واضحة وجليّة عند الشاعر، فحينما نقرأ حربياته فكأنما نسمع صليل السيوف وهي تبعث أنغاما صادقة تثير أمام أعيننا غبار المعركة، فالشاعر لم يكن بعيداً عن أجوائها وإنما وظّف سيفه لها، فأصبحت كلماته راوية لأفعاله، وأصبح خياله الشعري واقعاً حقيقياً ينقل الأحداث كما هي، فهو يقول[2]:

ألا ليت قومــــي، والأمـانـــي كثيرة	شـــــهودي والأرواح غيـــر لوابـــث
غـــداة تـناديـنـــي الفـــوارس، والقنـا	تـــردّ الـــى حـــدّ الظبـــا كـلّ ناكث
أحـــارث ان لـم تصدر الـــرمح قانيـــا	ولــم تدفـــع الجلّـى فلســـت ((بحارث))

فالمنادي هنا ليس الضعيف، والمستغيث ليس النساء، إنما الفوارس الذين ينادون ويحثّون على القتال.وهنا يتجلّى التميّز بأروع صورة، فالمستغيث لا يستغيث إلاّ بمن هو أقوى وأصلب منه، ولذا لجأ إليه الأبطال حينما اشتدّ لهيب المعركة، وبرز الموت أمام العيون.

بهذه الصورة كان ينظر لذاته وسط قومه. ولذا اختار لنفسه مكانا يضاهي منزلة البدر في الليلة الظلماء سموّاً ورفعةً إذ يقول[3]:

سيذكرنـــي قومـــي إذا جـدّ جدّهـــم	وفـي الليلـة الظلمـــاء يفتقـــد البـــدر

ومكانته هذه ليست بالخافية على أحد، إذ عرفها الكلّ حتى جواده الذي يشعر بالزهو والفخر حين يكون على ظهره فهو يقول[4]:

ومهـــري لا يمـــسّ الأرض زهـــواً	كـــأن ترابهـــا قطـــب النبـــال
كـــأن الخيـــل تعـــرف مـــن عليهـــا	ففـــي بعـــض علـــى بعـــض تعـــالِ

وأما البارودي فقد شحذ الهمم وهو يتهيأ للحرب، يدفعه إلى ذلك طموحات تكوّنت في ذاته منذ صباه، فإحساسه بشرف النسب، ونصاعة الماضي، وخلو الساحة من المنافسين من عائلته كل ذلك ولّد في ذاته تطلّعاً لإثبات مشروعيّة وراثته لأسرة المماليك، ليتسنّى له التأهل لاستعادة أمجادها فاتّجه صوب الحرب، إذ أدرك أنه لا يستطيع إثبات ذاته إلاّ من خلال تميّزه فيها، فقد

---

١ - شعر الحرب في العصر الجاهلي:١/٨٢

٢ - الديوان:٥٣

٣ - الديوان: ٨٧

٤ - الديوان: ١٧٤

((ألحّت عليه فروسيته العارمة في أطواء نفسه، تريد أن تثبت ذاتها في ميادين الحرب، فيلهج بذلك في عالم خياله راجيا أن يستكمل مناه))[1]. ولذا نجده يسرع في خوض غمارها بكلّ بسالة وشجاعة إذ يقول[2]:

فمن لي- والأماني كاذبات- بيوم في الكريهة أرونانِ

الاعب فيه أطراف العوالي وأطلق بين هبوته حصاني

تراني فيه أوّل كلّ داعي ويرتفع الغبار فلا تراني

إلى أن تنجلي الغمرات عنه ويعرفني بفتكي من بلاني

أنا ابن الليل والخيل المذاكي وبيض الهند والسمر اللدان

إذا عين أجدّ بها طماح جعلت مكان حبّتها سنان

نستشف من هذه الأبيات أنّ الشاعر يريد إثبات مقدرته وتفوّقه في تلك المعارك ليؤكّد لنا أنه يمتلك الأهليّة لوراثة مجد آبائه، والارتقاء بهذا المجد من جديد ليتسنّى له النفاذ إلى عرش البلاد، فهو يقول في صباه[3]:

لهج في الحروب، لا يألف الخفـ ـض ولا يصحب الفتاة الرداحا

فالشاعر عزف عن كلّ ملذّات الحياة في صباه، إذ وظّف جهده لتحقيق طموحاته أملا منه في اعتلاء ذروة المجد، حتّى نجده يرحل إلى الإستانة يلتمس بها منصبا[4]، ولذا لم يبال بركوب الأخطار، إذ يقول[5]:

فاحمل بنفسك تبلغ ما أردت بها فالليث لا يرهب الأخطار إن وثبا

فكلّ المخاطر تتلاشى ويسهل تجاوزها ما دام الأمر يتعلّق بالمطامح، ولذا فإنّه يعتقد أن لا خير

---

١ - محمود سامي البارودي/ علي الحديدي:٤٧

٢ - ديوان البارودي/ شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم:٥٦٢

٣ - الديوان: ١٠٩/١

٤ - ينظر : أدباء السجون:٣١٣

٥ - الديوان:٥٣/١

في الدنيا إن لم يكن بها متميّزا إذ يقول[1]:

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش	بها بطلا يحمي الحقيقة شدّه

والشاعر هنا يحثّ نفسه على اغتنام فرص الحياة، إذ لم يُخلق الإنسان ليكون خاملا يعدّ الأيّام التي تمرّ عليه دون أن يحقق غايته أو يأخذ دوره المناسب.

وتبقى روح البارودي في مرحلة الشباب متهيئة للحرب مستعدّة لها تتمنى دخولها لتقاتل بحزم وشجاعة تُمنح بموجبه التميّز، حتّى أننا نلحظ كثرة تغنّيه وافتخاره بتلك المعارك إذ يقول[2]:

وبحر من الهيجاء خضت عبابه	ولا عاصم إلاّ الصفيح المشطّب
تظلّ به حمر المنايا وسودها	حواسر في ألوانها تتقلّب
توسطته والخيل بالخيل تلتقي	وبيض الظبا في الهام تبدو وتغرب
فما زلت حتّى بيّن الكرّ موقفي	لدى ساعة فيها العقول تغيّب
كذلك رأيي في المراس وإنني	لأمرح في غيّ التصابي وألعب

هذه هي صورة الشاعر في المعركة، مقاتلا شرساً لا يهاب الموت. فقد ذكر مؤرخوه أنّه كان جندياً شجاعاً قد شهد الحروب، وأبلى فيها البلاء الحسن. وكان إلى جنب شجاعته معروفاً بالدهاء والحيطة[3]، غير متهيّب من الموت، إذ يبدو أنه تيقّن من نهاية الوجود، وأن الموت مصير كلّ البشرية ، فكان ذلك دافعا لانبرائه في سوح القتال من دون خوف أو خشية من الموت فهو يقول[4]:

فعلام يخشى المرء صرعة يومه	أوَ ليس حياته لنفاد

وبهذا الاندفاع، وهذا التميّز استطاع البارودي أن يحقق بعض طموحاته اذ قرّبه الخديوي إليه حتّى ارتقى مناصب عليا في الدولة[5].

---

١ - الديوان: ١/ ١١٧

٢ - الديوان:١/٣٢

٣ - ينظر: شعراء مصر، وبيئاتهم في الجيل الماضي:١٢٢

٤ - الديوان: ١/ ١٦٦

٥ - ينظر: في الأدب الحديث::١/١٥٠

ونظرا لاختلاف الغايات المرجوّة من وراء التسابق لدخول الحرب فلم يكن حماس الشاعرين لدخول المعركة والتفاني فيها على وتيرة واحدة في جميع الظروف، على الرغم من أنهما دخلاها بقوّة وعزيمة، وأبديا شجاعة كبيرة في بداية حياة كل منهما فأبو فراس لم يعبأ بكل الصعاب التي يمكن أن تلمّ به في ساحة المعركة، ما دام قد وطّد نفسه لها، فلا أثر لاختلاف التضاريس ووعورة ساحة المعركة ورجحان كفّة العدو في الحدّ من عزيمته القتالية، إذ ((لا يجد نفسه سعيداً أو مغتبطاً بما يعانيه في حروبه من وعورة المنازل والنزول في القفار بين الأفاعي والعقارب، لأنّ ورود العذب الزلال لا تجليه إلاّ ورود الرنق الأجاج))[1]. ولذا نجده يقول[2]:

أوينـا بيـن أطنـاب الأعـادي	إلـى بلـد مـن النـظّار خـال
نمـدّ بيـوتنا فـي كـلّ فـجٍّ	بـه بيـن الأراقـم والصّـلال
نعـاف قطـوفـه ونمـلُّ منـه	ويمنعنـا الإبـاء مـن الـزّيـال
مـخافـة أن يـقـال بـكـلّ أرض	بنـو حمـدان كفّـوا عـن قتـال

أراد الشاعر من خلال هذه الصورة أن يبيّن لنا مدى صلابته وجلده وقابليّته، وابناء قومه على القتال في أشدّ الظروف واقساها، كما ويكشف لنا عمّا يمتلكه من صبر وثبات، فقد ((كان صبوراً، لا يستخفّه الجزع، ولا يوهَن له جلد، ولطالما أوصى بالصبر وافتخر به))[3].

في حين نجد البارودي اقلّ تحمّلا منه لقساوة ظروف الحرب، فقد جزع وشكى وتألّم حينما طال به المقام في حرب (كريد)، إذ أخذ يتشوّق ويحنّ إلى سالف أيّامه، إلى أماكن العيش الرغيد وليالي الأنس في القصر الخديوي، فهو يقول في تلك الحرب[4]:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم	وفـي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ
فان عشت فالطعن الذي يعرفونه	وتلك القنا والبيض والضّمر الشقر
فهـل لغريب طوّحتـه يـد النـوى	رجـوع؟ وهـل للحائمـات ورود؟

---

١ - أعيان الشيعة:١٨/٦٤

٢ - الديوان:١٧٣

٣ - الروميات في شعر المتنبي، وأبي فراس: ٧٩/ رسالة ماجستير/كلية التربية /ابن رشد- جامعة بغداد/١٩٩٧/ مطبوعة على الآلة الكاتبة.

٤ - الديوان: ١٤١- ١٤٥

وهــــل زمــن ولّـى، وعيـــش تقيضت | غضارتــه بعــد الذهـــاب يعــــود
أعلـل نفـسي بـــالقديـــم وإنّمــــــا | يـلذّ اقتباس الـشيء وهــو جديـــــد
فمــن لغريــب((سرنــــسوف))مقامه | رمــت شملــه الأيــام فهـــو لهيــــد
بلاد بهــا مــا بـالجحيم، وإنمــــا | مكان اللظـى ثلـــج بهـــا وجليـــد
فمــن لــي بأيّــام مضت قبـــل هذه | بمصـر؟ وعيــشي لــو يــدوم حميــــد

لقد أبعدته يد الدهر حتّى صار متعطّشا لتلك الأيّام الخوالي، ويتمنى لو تعود حيث الحياة الجميلة والعيش الرغيد.

نلاحظ مما تقدّم أنّ أبا فراس استطاع أن يوطّد نفسه على البقاء في الحرب على الرغم من أنّ ظرفه كان أقسى من ظرف البارودي.ويبدو أنّ مرجع ذلك يكمن في سببين، الأوّل: التنشئة الاجتماعية، فالحياة المترفة، التي تعوّدها البارودي منذ الصغر، فضلا عمّا وفّره له القصر من نعيم وجاه وثراء، كلّ ذلك أتاح له حياة هادئة وجاه كبير، فأخذ يتنقّل بقلبه وجسده حيث يشاء بين الحسان[1].

أقول إنّ هذه الحياة عوّدت الشاعر على عيش الرخاء الذي افتقده في جزيرة((كريد))، إذ أخذ ينظر إلى مَنْ حوله فيستهجنهم، فليس فيهم من يُسَرُّ بطلعته، ولذا نجده يقول بحقّهم[2]:

صباح النواصي والوجوه كأنهم | لغير أبي هذا الأنام جنود

فكأنّ تلك الحياة الهانئة التي تعوّد عليها قد قلّلت من قابليته على المجالدة والصبر حين تغيّرت الظروف. في المقابل نجد أنّ حياة أبي فراس كانت على وتيرة واحدة ، حياة حرب في بيئة قاسية، ولذا لم يعبأ بظروف القتال أيّا كانت .

أمّا السبب الثاني وهو ما أشرت إليه مرارا وهو الغاية من وراء الحرب، إذ أنّ أبا فراس كانت غايته منها عقائدية، عربية ، ذاتية، ولذا كانت تشكّل الجزء الرئيس من حياته.

أمّا البارودي فكانت غايته منها تحقيق النصر، بما يجعله متميّزاً عند الخديوي، ليقرّبه منه درجات مادام النصر قد تحقق له، وما يطمح إليه قد صار قريبا منه، فانّ بقاءه أصبح لا جدوى

---

١ ينظر نفسية البارودي من خلال شعره :٣١٣/ مجلّة آداب الرافدين/ع٨/١٩٧٧/كلية الآداب/جامعة الموصل.

٢ - الديوان:١/١٤٤

منه، وان كانت الحرب لم تنته بعد.

وكان أبو فراس حريصا على نقل صور المعارك المروّعة، التي تستحقّ أن تمجّد، ويفتخر بها، ليدلّل على شجاعته في تحمّل أعبائها مهما كانت ضراوتها، حرصا منه على نقل صورته الحربية التي امتاز بها عن الآخرين. وهذا مما يكشف لنا عن انعكاس الذات المقاتلة على الذات الشاعرة، فهو يقول[1]:

ولمّا اشتدّت الهيجاء كنّا	أشدّ مخالبا، وأحدّ نابا
وأمطرنَ الجباه بمرجحن	ولكن بالطعان المرّ صابا

هكذا كانت الحرب بالنسبة إلى أبي فراس، إذ لم يخشها، حتى وأن كان الموت قريبا منه. فلم تستطع المنايا أن تزحزحه عن المبادئ التي آمن بها، مثال ذلك: أنه خرج على مقربة من منبج في نحو سبعين من رجاله وغلمانه، وذلك سنة ٣٥١هـ يريد الصيد، فاتّفق أن كانت حملة رومية متّجهة إلى نواحي منبج، فأنف أبو فراس من الفرار أمام الروم، على الرغم من عدم التكافؤ بين الجانبين، فضلا عن علمه بأنّ الفرار في المعركة يجوز في مواقف معيّنة، إلاّ أنه أبى إلاّ القتال، وان كان الموت أو الأسر هو المصير في ذلك الموقف، إذ عدّها أهون عليه من العار الذي سيلحقه إن اختار الفرار[2].

لذا فقد ثبت للقتال غير متهيّب من العدو ولا آبه بما ستؤول إليه المعركة من نتائج، إذ يقول[3]:

وقال أصيحابي الفرار أم الردى	فقلت هما أمران أحلاهما مرّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني	وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

لقد كان أسره محتّما عليه، والأسر يدلّ على أنّ الفارس ليس جبانا بل انه عندما تحيق به المخاطر يقتحمها على الرغم من هولها. فالأسر يحمل دلالة الاستبسال واللارجوع، ولذا فأنّ تفضيل الشاعر الأسر على الهرب كان وجها من وجوه البطولة، التي تلازم نفسيته بتأثير

---

١ . الديوان :٣٤

٢ . ينظر: تاريخ الأدب العربي/بروكلمان:٢/٩٢، الجامع في تاريخ الأدب العربي- الأدب القديم:٨٢١، أبو فراس فارس بني حمدان،وشاعرهم:٥١

٣ . الديوان:٨٧

العصر[1].

بينما تأزّمت حال البارودي، حينما نشب القتال بين الثوّار من جهة وبين الحكومة والإنجليز من جهة أخرى، في ثورة عرابي التي اشترك بها.

فقد كان مترددا في انضمامه إليها، وهذا ما أكّده هيكل إذ يقول:((وكان البارودي يرجو أن يتلافى هذه الحركة...لكن الأمور سارت على غير هواه، واندفع الضباط يفكّرون في خلع توفيق، وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد، وتحرّكت فيها أسباب الاعتداد بمكان أجداده المماليك))[2].

وهناك من يؤكّد ذلك أيضاً إذ يقول عمر الدسوقي: ((وطالب الجيش بعزل توفيق، ونازعته نفسه إلى المجد المؤمّل، والى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر..... ولكنّ التيار كان شديدا.... وعلم أن لا قبل له بمواجهته، فنصح لعرابي، وإخوانه، وصارحهم برأيه، وحاول الاعتزال في مزارعه، ولكن هيهات، وقد جرى مع الضبّاط شوطا))[3]ولذا فإنّ موقفه من المعركة لم يكن متناسبا وزعامته في الثورة، وما عُرف عنه من مقدرة عسكرية.((فلم تبدو منه كفاءة من الناحية الحربية على الرغم من نشأته العسكرية، وعلى ما يفيض به شعره من الفخر والحماسة....فلم يشترك في وقائع كفر الدوار، وكان جلّ عمله أن يرتقب تطورات الأحداث، ولمّا تحرّجت الحال في الميدان الشرقي دعاه عرابي إلى قيادة فرقة الصالحيّة، وعهد إليه بالاشتراك في واقعة القصاصين الثانية، التي كان يتوقّف عليها الى حدّ ما تعطيل البريطانيين، ولكنّه تخلّف عن الاشتراك فيها.....أضف إلى ذلك أنه لم يشترك في واقعة التلّ الكبير، بل عاد إلى العاصمة))[4].

ويبدو أنّ موقف البارودي هذا كان نتيجة لعدم إيمانه الكامل بالثورة، فضلا عن عدم توقعه لما حدث. فعندما نشبت الحرب حاول الاعتزال، وعندما لم يفلح في ذلك انسحب إلى الصفوف الثانوية، ليُلقي التبعيّة الأساسية على غيره[5].

---

١ - ينظر : الفنون الأدبية عند العرب: فن الفخر وتطوره في الأدب العربي:٢٤٨

٢ - مقدّمة ديوان البارودي:١/ش

٣ - في الأدب الحديث:١٥٠/١

٤ - الثورة العرابية والاحتلال الإنكليزي: ٥٦٥- ٥٦٦

٥ - ينظر نفسية البارودي من خلال شعره:٣٤١ / مجلّة آداب الرافدين ع٨/ ١٩٧٧/ كليّة الآداب /جامعة الموصل.

وهذا ما أكّده هيكل في تقديمه لديوان البارودي، إذ يقول: ((وهذا الموقف الذي وقفه البارودي هو الذي جعله لا يبرز في الصفّ الأول من صفوف الثورة العرابية، ولا يتولّى زعامتها، ولو أنه كان مؤمنا بها إيمان عرابي وأصحابه لكان من الطبيعي أن يتقدّمهم، وأن يدعو بدعايتهم... وهو قد كان لا ريب أكثرهم ذكاءا وأعلاهم ثقافة بشؤون الحياة الدولية. أما وقد سايرهم إذعانا لحكم الأحوال فقد رجع إلى الصفّ الثاني من صفوف الثورة))[1].

إنّ التذبذب والحيرة والطموح، كلّها أمور تضافرت فيما بينها لتضع البارودي في هكذا موقف، فتولّد عنده حالة من التأزّم النفسي، الذي أفضى بدوره إلى ألم وندم رافقه طيلة حياته، لا سيّما عندما أحسّ بذهاب جميع آماله وطموحاته، إذ ((تقترن الأزمات بحالة من التردد والحيرة والقلق، والتوتّر، هذا إلى ما يترتّب على إحباط الدوافع من مشاعر أليمة بالنقص والخيبة والعجز والشعور بالذنب أو الشعور بالظلم أو الشعور بالوحدة والاغتراب))[2]وهذا ما كان واضحا في حياته بالمنفى.

فالإيمان بالقضية والثبات على المبدأ وعدم وضع المصالح الشخصيّة نصب العين، كلّها تعين في الموقف الصحيح، وهذا ما اختلف فيه أبو فراس عن البارودي في دخولهما المعركة.

ولم تكن شجاعة المقاتلين في الحرب، وشدّة بطشهم كافية لتمثّل معالم الفروسية فيهم، اذ أنّ للمشهد الإنساني الذي يتلو المعركة، لا سيما بعد تحقق النصر أثر كبير في إضفاء سمات الفرسان على المقاتلين، ففي هذا المشهد تتباين الرجال، فقد ((حرص الشعراء ... على اقتران الجانب البطولي بالجانب الأخلاقي، وتوحيد خصائص الشجاعة مع نوازع الالتزام بكل ما يدعو إلى الحفاظ على المثل العربيه، التي كانت لا تنفصل عن هذا الجانب))[3]. لذا عوّد أبو فراس نفسه على تمثل القيم العربية الأصلية، لاسيما ما كان يستحق التفاخر منها. فالعرب والحمدانيون منهم تمثّلوا القيم النبيلة التي سادت حياتهم. والرّوح السمحة التي صبغت وجودهم، إذ أنها تعيش في سلوكهم، وتحيا في علاقاتهم وتتردد في وجودهم، و في هذه الخصال الكريمة كانت تزدهر معاني الوفاء، وتزهو دلالات السمو والرفعة، حتى أصبحت هذه الخصائص رمزا لكل أنموذج من نماذجهم، ودلاله من أدلّة إنسانيتهم الحقّة[4].

---

١ - مقدّمة ديوان البارودي:١/ و

٢ - أصول علم النفس: ٤٤٧

٣ - محاولات في دراسة اجتماع الأدب:٦١/٢

٤ - ينظر : شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعبّاسي الى عهد سيف الدولة: ٣٢٣

لقد تجلّى موقف أبي فراس الإنساني خلال المعركة، وبعد تحقق النصر فيها من ذلك ما حدث له مع بني قشير، فحينما انقضّ هؤلاء على سيف الدولة، وجّه إليهم حملة قويّة بقيادة أبي فراس وصبّحهم هذا، وقتل عددا من رجالهم، واستاق ماشيتهم، فلمّا رأت نساؤهم عجز رجالهنّ عن المقاومة، خرجن إلى أبي فراس وطلبت صفحه، فأمر بالكفّ عن القتال وردّ ما نهب من الأموال، وتعويضهم من ماله الخاص عن ما لا يمكن ردّه إليهم من الأموال[1]. وفي هذا يقول[2]:

يتيمات نحميهنّ، ليس يريننــي	بعيد التجافي أو قليـــل التفضّل
شفيع النزاريّات غير مخيّب	وداعــي النزاريّات غيـــر مخـذّل
رددت برغم الجيش ما حاز كلّــه	وكلّفت مالي غرم كلّ مظـــلل
فأصبحت في الأعداء أيّ ممـــدّح	وإن كنت في الأصحاب أيّ معـــذّل

فشعوره هذا تجاه النساء اللائذات به يعبّر عن أريحيّة الرجولة والفتوّة، لا سيما إذا علمنا أنّ العرب كانوا يأثرون مع قدرتهم على تحقيق ما يريدون، وتمكّنهم من الوصول إلى الغايات المرجوة[3].

لقد اعتاد العرب عدم إشراك النساء في القتال، وأن لا يؤخذن بجريرة الرجال، إلاّ أنهنّ يخشين السبي الذي يكون بعد المعركة. فأبو فراس لم ترضَ نفسه سبي العربيّات، فحينما يظفر بأعدائه من قبائل العرب، تهزّه رؤية مخدراتهم وهي تتوسّل إليه لكي يصفح ويعفو، فيلقاها بالجميل، ويهب لها ما حازه الجيش، ويترك نساء الحيّ مصونات محجّبات، ويقول مفتخراً بذلك[4]:

ويـــارب دار ، لـــم تخفني منيـمة	طلعت عليها بالردى أنا والـــفجر
وحـــي رددت الخيل حتى ملكتـــه	هزيما وردتني البراقـــع والخـــمر
ولا راحــة يطغيني بأثوابه الغنـــى	ولا بات يثنيني عـــن الكـرم الـــفقر

---

١ - ينظر في الأدب العبّاسي: ٤١٢- ٤١٣

٢ - الديوان:١٧٧

٣ - ينظر شعر الحرب عند العرب: ٣٥

٤ ـ الديوان: ٨٦ – ٨٧

وصفح عن بني كلاب فقال مفصحا عن أخلاقه، وحبه للعفو[1]:

أفــرّ مـــن الســـوء لا أفعلـــه ومـــن موقــف الضيـــم لا أقبلـه

وقـــريـــى القـــرابـــة أرعـــى لها وفضـــل أخـــي الفضـل لا أجهلـــه

إلى أن يقول:

وقـد علـم الحـيّ حـيّ الـضباب وأصـــدق قيـــل الفتـــى أفضلـــه

بـــأنّـي كففـت وأنّـي عففـــت وإن كـــره الجيـــش مـــا أفعلـــه

وقـال وقـد أوقـع بـبني كـلاب، وأسـر مـصعبا الطـائي، وسـألته أمّ بـسّام فـصفح عـن الأموال[2] وقال[3]:

جـار نـزعنـاه قسـرا فـي بيوتكـــم والخيـــل تعـــصب فرســـانا بفرســـان

إذ لا تـــردّون عـــن أكنـــاف أهلكـــم شـــوازب الخيـــل مـــن مثنـــى ووحـــدان

بـالمرج إذ أمّ بسّـــام تنـاشـدنـــــي: بنـات عمّــك يـا حـار بـن حمدان

فـبتّ أثـنـي صـدور الخيـل مســاهمة بكـــلّ مضطغــن بـالحقـــد مـلآن

ونحـــن قـــوم إذا عـــدنـــا بســيّئة علـــى العشيرة أعقبنـــا بـإحســـان

ويأبى أبو فراس أن ينازل خصما لا يمتلك قوّة الدفاع ولا يرضى لنفسه أن يغدر به، ويأنف من أن يطعنه من الخلف، ويصرّ على أن يواجهه مواجهة، فتلك شيمة الأبطال[4].

ولم يكن الشاعر بمنأى عن تلبية الاستجابة، لا سيّما للضعيف، إذ أنّ أخلاقه حتّمت عليه أن ينتصر للضعفاء من غير أن يأبه بالقوي، ويردّ الأسلاب، ويعفّ بشهامة[5]، فهو يقول[6]:

---

١ ـ المصدر نفسه : ١٩٥

٢ ـ ينظر أعيان الشيعة: ١٨/ ٥٠

٣ ـ الديوان: ٢٢٢- ٢٢٣

٤ ـ ينظر: دراسات في الأدب العربي: ٢٠٢

٥ ـ أبو فراس الحمداني: دراسة ومختارات:٣٥

٦ ـ الديوان: ١٩٥

وأبذل عدلي للأضعفين وللشامخ الأنف لا أبذله

بأني كففت وأني عففت وأن كره الجيش ما افعله

ويبدو من هذا أنّ الشهامة العربية كانت متأصّلة في بني حمدان، إذ كان من الشائع أن يفتخر الشاعر بشدّة بطشه في الحرب. أمّا تفاخره بالتعفف عن المغنم، يؤكد لنا أنّ الحرب كانت وسيلة لتحقيق الذات، وإثبات العظمة[1].

لقد تمثّلت مزايا الفروسية في شخص أبي فراس تمثّلاً غير خفيّ إذ أنها لم تكن مواقف عابرة، أو طارئة، وإنما هي انعكاس لنفثات الذات الإنسانية التي كان يحملها، فقد كان يقرن الأقوال بالأفعال، وهذا ليس بالغريب عنه، فهو سليل عائلة مالكة تربّى تربية الأمراء في كنف سيف الدولة الحمداني حتّى نضج قبل أوانه، فاستطاع أن يحافظ على نضجه هذا حتّى مماته.

أما البارودي فقد حرص على تمثّل القيم النبيلة التي كانت موضع تفاخر عند الفرسان الشعراء، منها ما اتّخذ شكل الممارسة الفعليّة، ومنها ما بقي أقوالا توشّح قصائده الحماسية، وأبيات فخره فقط، إذ أثّر فيه عاملان: الأوّل تمثّل في وضعه الاجتماعي ورقّة إحساسه فهو من عائلة كانت حاكمة للبلاد، إذ تربّى شأن أقرانه حينئذ من ذوي النعمة واليسار تربية ملكية وتثقّف بالثقافة الإسلامية التي كانت تشغف بها الأسرة[2]. فولّد ذلك في نفسه رقّة ولينا وعطفا على الناس((فقد كان كثيرا ما ينصح بمداراة الناس، ودفع العسر باللين، والغضب بالحلم)) من ذلك قوله[3]:

ملكت يدي عن كلّ سوء ومنطقي فعشت بريء النفس عن دنس العذر

وأحسنت ظنّي بالصديق، وربّما لقيت عدوّي بالطلاقة والبشر

وهو لا يرى أنّ المعالي سكناً له، وإرضاءاً لطموحه إذ يقول[4]:

ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمة تفلّ شباة الخطب وهو عسير

---

١ . ينظر الفنون الأدبية عند العرب: فن الفخر وتطوّره: ١٩

٢ . ينظر البارودي رائد الشعر الحديث: ٤٧

٣ . الديوان:١٢/٢

٤ . الديوان: ٢٢/٢

وعلى الرغم من ثرائه إلاّ أنّ العفّة تجاه المال كانت سجيّة ملازمة له، إذ يقول[1]:

رضيت من الدنيا، وإن كنت مثريا بعفّة نفس لا تميل إلى الوفر

إنّ هذه الصفات الخلقية أكّدها أغلب من كتب عن البارودي، على الرغم من عدم وجود حادثة تثبت ممارسته لهذه الخلال أثناء الحرب، وهذا يعود للفارق الكبير بين طبيعة الحرب في العصر العباسي والعصر الحديث.

أمّا العامل الثاني الذي أثر في إضفاء صفات الفروسية على نفسه هو تقليده لسيرة الشعراء الفرسان العرب، وحرصه على تمثّلها على الرغم من الفارق الزمني بينهما.

يتّضح ممّا تقدّم أنّ الشاعر تولّدت في نفسه أخلاق النبل والمروءة واللين والعفو وغيرها من الصفات التي كانت محلّ تفاخر عند العربي بتأثير التنشئة الاجتماعية، وإحساسه الشعري المرهف، فضلا عن أنّ انضمامه إلى صفوف الفرسان أضفى عليها صفات أخرى كان العرب يعتقدون أنّها من مستلزمات الشخصية الفارسة، لذا سعى الشاعر لأن يتمثّلها في شعره، وأن يمارسها أفعالاً، لا سيّما بعد أن أقبلت عليه الدنيا، وأصبح من وجهاء القصر الملكي، والمتنفّذين فيه.

نخلص من كلّ ما تقدّم أنّ أبا فراس وظّف حياته للدفاع عن العقيدة الإسلامية والعرب، يدفعه إلى ذلك إيمانه بعدالة قضيته، واستسهاله الموت بعد تيقّنه من وجوده، ووجود الحياة الآخرة. فضلا عمّا يمتلكه من مقوّمات الشجاعة، إذ هيّأه ذلك لدخول المعارك بقوّة وعزيمة لا تبارى، حتى تميّز على كلّ أقرانه في عصره.

أمّا البارودي فإنّ طموحاته الشخصيّة وآماله في إعادة مجد المماليك التي ولّدها في نفسه شرف النسب، ونصاعة الماضي، وأنّه أحقّ الناس بوراثة ملك أجداده المماليك، كلّ ذلك دفعه لدخول الحرب بقوّة وشجاعة متميّزة، حتّى أصبح مقاتلا شرسا لا يهاب الموت بعد ما تيقّن من فناء الوجود، ولذا فإنّ عزيمته هذه حققت له الكثير من مطامحه، إذ اعتلى أرفع المناصب في الدولة والجيش.

ونظرا لاختلاف التنشئة الاجتماعيّة بين الشاعرين فضلا عن اختلاف الغايات المرجوّة من وراء الحرب، فقد كان أبو فراس أكثر تحمّلا لظروفها الاستثنائيّة بغضّ النظر عن نتائجها. أمّا البارودي فتحمّله لها وثباته على شدّتها يتوقّف على ما ستحقّقه له من مطامح.

---

١ - الديوان:٢/١٢

وعلى وفق متطلّبات الفروسية العربية فقد تمثّل الشاعران كلّ القيم العربية الأصيلة، إلاّ أنّ أبا فراس حرص على أن يمارسها في حربه مع أعدائه بعد أن يحقق النصر عليهم.

وأمّا البارودي فكانت تلك القيم واضحة في مسار حياته السلميّة أكثر من ممارسته لها في المعركة، وهذا يعود للفارق الزمني بين الشاعرين، فضلا عن اختلاف ظروف الحرب التي خاضها كلّ منهما.

الفصل الثاني

صورة الذات وفقاً لتجليات المنفى

المبحث الأول

صورة الذات بين التحدي والاستسلام والاستعطاف

الاغتراب ألم ومعاناة تتكون نتيجة لظروف مختلفة منها ما يكون بسبب ترك الوطن لآخر وذلك لسوء الأوضاع السياسية والاقتصادية أو بسبب كبت الحريات وتفاقم الفقر، أو بسبب حالات النفي أو الأسر في الحروب وهذا أشدّها قدحا وعناءا؛ إذ أن من يتعرّض لعملية السجن أو الأسر يذوق مرارة حجر الحرية ، ويتعرض لمختلف أنواع العذاب النفسي والجسدي فيتفاعل ذلك في نفسه وينعكس على شعره ، فيقدّم لنا صورة صحيحة لواقع عايشه ولتجربة مارسها[1]. ويعد ((الشعر صدى للعواطف والأحاسيس التي تجيش في أعماق الشاعر ووجدانه وغالبا ما تكون تلك الكوامن الخفيّة أساس الإبداع والإجادة والصدق في التعبير))[2]. ولعلّ فقدان الحرية والإحساس بوطأة الظلم أشدّ ما يحرك كوامن الشعور لدى الشاعر فتتفجّر لديه ينابيع القول، وتفيض لديه المعاني المضمّخة بعطر العواطف وصدق المشاعر.

من هنا كانت روميات أبي فراس التي هي عصارة قلبه في الأسر تشبه إلى حدٍّ كبير المذكرات والرسائل التي تكتب في السجون أو ديار الغربة. فقد كان يبكي في بعضها ماضيه الغابر، ويناجي نفسه ويمسح جراحه، ويحاور في بعضها الآخر عظماء الروم ويرد عليهم مطاعنهم في العرب. وفي بعض الأحيان يراسل سيف الدولة فيذكره بالماضي الجميل وبمآثره في بناء الإمارة وبروابط الدم التي تجمع بينهما، في حين أفرد قسما منها لمراسلة أمه كي يجدد عزمها ويوصيها بلزوم الصبر والمجالدة، من غير أن ينسى أصدقاءه ومحبيه، فبعث لهم غناءاً شجيا يستذكر من خلاله ودّهم القديم[3].

لقد أظهرت الروميات أجمل المزايا التي تحلّى بها أبو فراس، إذ نجد فيها صوراً لشجاعته وعزّة نفسه وإبائه، كما نجد لوعة البعد وشكايةً من قومه وعتباً عليهم، ونجد فيها نفس الشوق والاستعطاف واللوعة والرقّة.

---

١ . ينظر:السجون وأثرها في الآداب العربية من العصرالجاهلي حتى نهاية العصرالأموي: ٢٣

٢ . شعر السجون في القرن الأول الهجري : ١٠٢مجلة آفاق عربية / ع ١٢ بغداد ١٩٧٨

٣ . ينظر : الوطن في الشعر العربي : ٣٦١ - ٣٦٢

ومن الغريب أن نجد شخصية أدبية مرموقة مثل الدكتور المرحوم صفاء خلوصي تنظر إلى روميّات أبي فراس نظرةً قاصرة إذ يقول: ((إن سنوات أسره في بلاد الروم لم تؤثر في شعره ، وكنا نتوقع أن نجد في رومياته أشياء أكثر من مجرد سرد مواقع جغرافية بيزنطية))[1]. ويبدو أن العلامة الخلوصي قد نسي أن أبا فراس في حياته كان أقرب للبداوة منه إلى الحياة المدنية على الرغم من كونه أميراً ينتسب إلى أسرة مالكة، إذ لم يعرف الاستقرار في حياته، ففروسيته وحبه لسوح القتال هما السبب الرئيس في ذلك، فضلا عن كونه قائدا عسكريا ربما سيطرت عليه خطط الحرب فرسخت تلك الأماكن في ذاكرته فوظفها في شعره، وكأنها جاءت من خزانة الذاكرة عفواً دون قصد . مضافاً إلى كل ما تقدم فان هذه المواقع شهدت الانتصارات الرائعة لأبي فراس ضد أعدائه الروم الذين هو اليوم في قبضتهم. ومن خلال تلك الانتصارات تجلّت شجاعته إذ أذاق أعداءه مرّ الهزيمة، فكان الأمير والقائد والفارس ،لهذا اتخذ من تلك الأماكن وما فيها من ذكريات ملاذا تعويضيا يلجأ إليه فارا من غربته ووحشة سجنه وشدة القيد في معصمه.

لقد كان أسر الشاعر سببا رئيسا في خلوده، إذ تميّز بتلك الروميات عن غيره من الشعراء، فرومياته نبعت من شقائه ومرارته وجادت قريحته بهذه القصائد الرائعة فكانت ذوب العاطفة المتألمة وعُصارة النَفَس الكليم ، فقدمت للأدب العربي نوعا فريدا نادرا من الشعر الوجداني[2].

من هنا كانت هي السبيل في الكشف عن صورة ذاته في تلك الغربة الموحشة إذ يعدّ أبو فراس من الشعراء الذين لا يمكن الحديث عن سماتهم الشخصية بمعزل عن نتاجهم الأدبي إذ أن الأخير يتوافق مع ذواتهم ، وما هو إلا صدى لمواقفهم المتباينة من الحياة[3]. لذا كانت رومياته البوابة التي نلج من خلالها إلى مدى استسلامه للقيد وقبوله الذل والهوان، أو مدى رفضه وإبائه وعنفوانه ، فقد رسم لنا في بدايته أسره صورة عن موقف نفسه تجاه الساعة التي اسٌر فيها، فهو لم يكن نادما يوما على ما أصابه، بل لم يراوده الندم مطلقا على الرغم من تعكّر صفو العلاقة مع البلاط الحمداني ، إذ لم ينس ذلك اليوم أبدا فقد اخذ يفخر به في أغلب

---

١ - تأريخ الأدب العباسي – نكلسن : هامش صفحة ٨٠

٢ – ينظر: الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس : ٢٦٢ / رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية التربية – ابن رشد / جامعة بغداد - ١٩٩٧

٣ - ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : ٣٣

قصائده ، ولذا فان موقفه في السجن تميّز ببعض الصلابة إذ يقول [1]:

إن زرت ((خرشـــنة)) أســـيرا   فلكـــم أحطـــت بهـــا مغـــيرا

مـــن كـــان مثلـــي لم يمـــت   إلا قتيـــلا أو أســـيرا

ليـــست تحـــلّ ســـراتنا   إلا الـــصدور أو القبـــورا

نلمح من الأبيات أعلاه أن كبرياءه الحثّ عليه للبحث عن معادل موضوعي يدرأ به ما لحقه من ذلّ وهوان ، فلجأ إلى الماضي من أيامه الجميلة حين كان يفد على تلك الثغور غازيا منتصرا ، وكأنه يريد بذلك تهدئة ثورة نفسه التي دخلت عالما غريبا عليها بكل معطياته إذ ((مما لا شكّ فيه أن قدرات البشر على تحمل العذاب والآلام تختلف من إنسان لآخر ..... إنما المؤكد أن السجن والأسر محنة يعاني منها كل إنسان، العزيز، والحقير ، والقوي ، والضعيف))[2]، فكيف حال من كان أميرا عزيزا رمت به المقادير في دهاليز مظلمة وسط الأعداء. لقد جاءت بعض روايات البيت الشعري على هذه الشاكلة :

إن زرت خرشنـــة فلـــقد   حـــللت بهـــا أميـــرا

انه الأمير الذي نزل ديار الروم تحفّ به الجيوش فدكّ معاقلهم وقتلهم في عقر دارهم.
وأياً كانت رواية البيت فمعناه واحد ، إذ أن الشاعر حاول التصدي لغربته بنفس عالية الهمة شهدت ذلّهم قبل أن يذلّوها فراح يذكرهم به ويتخذ منه سبيلا تعويضيا لمنفاه، لذا ظلّ صوته صادحا يلح بذلك الكبرياء وذلك العنفوان طيلة سني أسره عند الروم. فما هو إلا أسد أحاطت به الضباع تبغي افتراسه بعد أن كان يذود الأسود عن حياض قومه وذويه إذ يقول[3]:

مـــا للعبيـــد مـــن الـــذي   يقـــضي بـــه الله امتـــناع

ذدت الأســـود عـــن الفـــرا   ئـــس ثـــمّ تفرســـني الـــضباع

وتأبى نفسه أن يحيطها ذلّ الاسار، أو أن تكون قيد هوانه فأطلقت لذاتها العنان، إذ ترى ما لا يراه الآخرون فهي ليست بالأسيرة بقدر ما هي انتقلت من مكان لآخر وسط أهلها تتمتع

---

١ - الديوان :١٢٩

٢ - السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي : ٢٠٦

٣ - الديوان : ١٥٢

بالحضوة نفسها التي كانت عليها سابقا، فالناس رهن إشارتها وأوامرها إذ يقول[1]:

والله عنـــــدي في الأســـــار وغـــــيره	مواهـب لم يخـصص بهـا احـد قبلـي
حللـــت عقـــودا أعجـــز النـــاس حلّهـــا	ومـــا زال عقـــدي لا يــذمّ ولا حلـــي
إذا عـــايَنتني الـــروم قـــد ذلّ صـــيدها	كـــأنهم أســرى لـــديّ بـــلا كبـــل
وأوســـع أيامـــا حللـــت كرامـــة	كـــأني مـــن أهلـــي نُقلـــت إلى أهلـــي
وابلـــغ بـــني عمـــي وابلـــغ بـــني أبـــي	بـــأنيَ في نعمـــاء يـــشكرها مثلـــي
ومـــا شـــاء ربـــي غـــير نـــشر محاســـني	وان يعرفـوا مـا قـد عرفـت مـن الفـضل

إن المعاملة الخاصة التي حظي بها الشاعر عند الروم جعلته يزداد ثقة بنفسه تصل في بعض الأحيان حدّ الغرو، إذ شعر أنه أسير مميز عن سواه، وأن حكمة الله- كما يراها هو- اقتضت نشر فضائله بين أعدائه كما نُشرت بين أهله وأحبّائه.

وحقيقة الأمر أن الروم تجلّ أبا فراس، وتنظر إليه بعين الإكبار والتقدير لاسيما من قبل كبار المسؤولين عندهم[2]. فقد أفردوا له قصراً يطلّ على البحر، وعيّنوا له من يقوم بخدمته. وقد بلغ من احترامهم له أنهم إذا رأوه طأطوا رؤوسهم له إعظاما[3].

ومع كلّ ما تقدم فان أبا فراس لم يكن بمنأى عن وحشة السجن وذل الاسار، على الرغم من كل ما يتمتع به عند الروم، إذ يبدو أن روح الكبرياء استنشقت عبير حسن المعاملة فحرك فيها إحساس الشعور بعظيم المكانة فازدادت الثقة بالنفس فـ ((الجمع بين انفعال الحسرة على الماضي، وروح المرح في الحاضر، دليل على إدراك الشاعر بهاويته، فيتّحد الأسى بالمرح في صورة توحد الذات البائسة من وقائع الحياة، جاهدة في إيجاد عالم مثالي يخفف من وطأة هذا الإحساس))[4]وهذه المثالية حاول الشاعر أن يلوّن حياة الأسر بها ليتخذ من ذلك ملاذاً آخر يعوّض به ما أصابه من بؤس، فضلا عن ضنك العيش الذي هو فيه.

---

١ – المصدر نفسه : ١٧٠- ١٧١

٢ - ينظر: الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني : ٢٠٠/رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية التربية /جامعة بغداد/١٩٩٧.

٣ - ينظر الوطن في الشعر العربي :٣٦١، وفي الأدب العباسي:٤١

٤ - الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي- دراسة: ٢٩١.

إلا أن هذا كلّه لم يجد نفعا، فسرعان ما أخذت زفراته وحسراته تصل إلى الحمدانيين من وراء قضبان السجن حاملة صورة ذاته التي لم تكن صحراء العرب لتسعها يوما، فإذا هي حبيسة ظلام مقيت.

أما البارودي فعلى الرغم من تمتعه بسلطة كبيرة في الحكومة، إلا انه اشترك بثورة الشعب ضد النظام الحاكم، وخاضها مع الخائضين، لكن التيار كان شديدا، فقد تدخلت انجلترا وفرنسا في الأمر، وأخفقت الثورة ونفي مع زملائه إلى (سرنديب) فأقام بها سبعة عشر عاما وبعض العام[1].

لقد ظلت روح الشاعر تنازعه وتدفعه إلى اتجاه تولي إمارة البلاد، محاولا أن يستعيد مجد أجداده المماليك، لذا أخذ يلبي دعوة الحركة القومية، إذ بدأ ينظم الشعر السياسي الذي يدعو فيه إلى الإصلاح، والأخذ بنظام الشورى، ويزداد في ذلك حميّة فيطالب بتغيير نظام الحكم لعهد إسماعيل، ويندفع في ثورة قوية ملوّحا أن يصير الأمر له[2]وهذا ما اتضح من شعره، الذي اخذ من خلاله يذم الحكام، ويحضّ الناس على طلب العدل إذ يقول[3]:

حلـبّيت أشـطر هـذا الـدهر تجربـة ... وذقـت ماضـيه مـن صـاب ومـن عـسل

فمـا وجـدت علـى الأيـام باقيـة ... أشـهى إلى الـنفس مـن حريـة العمـل

لكننـا غـرض للـشر في زمـن ... أهـل العقـول بـه في طاعـة الخمـل

قامـت بـه مـن رجـال الـسوء طائفـة ... أدهـى على الـنفس من يؤس على ثكـل

مـن كـل وغـد يكـاد الدسـت يدفعـه ... بغـضا ويلفظـه الـديوان مـن ملـل

ذلّـت بهـم مـصر بعـد العـز واضـطربت ... قواعـد الملـك حتـى ظـلّ فـي خلـل

وأصبحت دولة (الفسطاط)خاضعة بعد الإباء وكانت زهـرة الدول إلى أن يقول:

أخنـى الزمـان علـى فرسـانه فغـدت ... مـن بعـد منعتهـا مطروقـة الـسبل

فبـادروا الأمـر قبـل الفـوت وانتزعـوا ... شـكالة الرَّيـث فالـدنيا مـع العجـل

---

١ - ينظر : في الأدب الحديث :١/١٥٠والبارودي رائد الشعر الحديث :٨١

٢ - ينظر الأدب العربي المعاصر في مصر:٩٠ ، والأدب العربي الحديث ، دراسة في شعره ونثره :٥٣

٣ - ديوان البارودي، شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٤٠٠- ٤٠٣

وقلدوا أمركم شهما أخا ثقة يكون ردءا لكم في الحادث الجلل

يجلو البديهة باللفظ الوجيز إذا عزّ الخطاب وطاشت أسهم الجدل

والبارودي هنا يكشف عن مطامحه السياسية حينما أخذ بتنبيه الشعب إلى شخصه، لاسيما وانه من أسرة عريقة حاكمة، فلم يكن للوزارة التي تولى مقاليدها اثر في التخفيف من مطامحه إذ ((لم يخمد ما في نفسه من آمال، بل ازداد توهجا، واشتعالا))[1]. يضاف إلى ذلك ما كان يراوده من إحساس داخلي بان مقتل جدّيه لامه وأبيه، وموت أبيه كان مسببهم واحدا هو محمد علي كبير الأسرة الخديوية، ولذا بدأ ينمو حقده الدفين على هذه الأسرة متحينا الفرص للإطاحة بها[2] فهو يقول[3]:

فيا قوم هبوا إنما العمر فرصة وفي الدهر طرق جمة ومنافع

اصبرا على مسّ الهوان وانتم عديد الحصى؟ انى إلى الله راجع

وكيف ترون الذلّ دار إقامة وذلك فضل الله في الأرض واسع

أرى أرؤسا قد أينعت لحصادها فأين ولا أين السيوف القواطع

فكونوا صعيدا خامدين أو افزعوا إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع

يتضح من هذه الأبيات تبني الشاعر لطريق الكفاح المسلح وحثّ الشعب عليه متخذًا من ظلم الرعيّة واستبداد الحكام بهم سبيلا إلى القيام بالثورة.

إلا أنه عند وقوع الثورة وإخمادها من قبل الأجانب تبدل موقف الشاعر هذا إذ أصبحنا أمام موقف بائس ضعيف لا يتناسب وزعامته للثوار، فسرعان ما أظهر ندمه على الاشتراك بهذه الحركة، واخذ يتهجم على قادتها إذ يقول[4]:

صبرت على ريب هذا الزمان ولولا المعاذر لم اصبر

---

١ - الأدب العربي المعاصر في مصر: ٩١

٢ - ينظر: نفسية البارودي من خلال شعره: ٢٨٦/ مجلة آداب الرافدين /ع١- ١٩٧٧/ كلية الآداب / جامعة الموصل.

٣ - الديوان : ١٨٥/٢- ١٨٦

٤ – المصدر نفسه : ٨٥/٢

فــــلا تحـــسبنّي جهلـــت الـــصواب	ولكـــن هممــت فلــم أقــــدر
ثنـــت عـــزمتي ثـــورة المفـــسدين	وغلــت يـــدي فـــترة العـــسكر
وكنـــا جميعـــا فلمـــا وقفــــت	صـــبرت وغـــادرني معـــشري

وفي هذا إفصاح عن موقف جديد تجاه الثورة إذ يلقي باللائمة على الثوار ويصفهم بالمفسدين ويأخذ عليهم نقضهم العهود. وهذا الموقف يتناقض وما كان عليه قبل الثورة.

ولم يكن موقفه هذا سرًا بينه وبين الثوار وإنما راح يصرح به أمام المحكمة التي أخذت على عاتقها محاكمة الثوار فلم يكن موقفه متناسبا وشجاعة القائد الحربي أو الزعيم الثوري فقد أخذ يتنصل من كل التبعات ويزعم أنه كان مكرها على ما فعل بتهديد ضباط الجيش وهو خائفا على عياله وأمواله فكان موقفه أثناء المحاكمة خذلاناً للثورة والكرامة[1]وكان بذلك يحاول استعطاف حكام مصر والمحتلين الذين بأيديهم حكمه.

إن هذه المواقف المتذبذبة مبثوثة في الكثير من شعر الشعراء الذين تعرضوا للسجن أو النفي ومثل هذا الأدب تصريح للصراع النفسي لما تبدّت النهاية المخيفة، فمنهم من أطلق صرخات الارتياع من الموت فتساقط مستسلما مخذولا[2]، ولذا فان هاجس الموت الذي خيّم على الشاعر هو الذي دفعه لاتخاذ موقفه هذا إذ يتجلّى الصراع الداخلي للإنسان حينما يحدّق في الموت وهو على مقربة منه فتصبح القراءة واضحة لدواخل ذاته ((فلكلّ خواطره وأحاسيسه وهو يتأهب لاستقبال الموت، وهذا يعود لاختلاف مكوناتهم العاطفية، والفكرية، ومدى قدراتهم على الصمود في مواجهة المصائب))[3]. وقد عبّر أغلبهم عن خوفهم من تلك النهاية بصورة مختلفة إلا البطل، إذ يقدم وهو يعرف أن الموت يترصّده[4]والبطل ليس من يملك شجاعة الدخول إلى المعركة فحسب وإنما من يمتلك شجاعة الثبات على المبدأ، واتخاذ القرار المناسب في أشد المحن إذ أن الإنسان يستطيع- حتى في أصعب الظروف- أن يقرر مازا يريد أن يكون عقليا وروحيا، وهو يقرر أيضا أنه سوف يحتفظ بكرامته الإنسانية حتى بتحمّل المعاناة، فالآلام والمعاناة جزء من الحياة، ويتعذر الخلاص منها شأنها في ذلك بل في مقدمتها القدر والموت، وبدون المعانات والموت

١ - ينظر الثورة العرابية والاحتلال الإنكليزي : ٥٦٦

٢ - ينظر السجون وآثارها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي: ٢٠٨

٣ – المصدر نفسه: ٢٠٨

٤ - ينظر دراسات في الأدب العربي: ٢١٤

لا تكتمل حياة الإنسان[1].

وعلى الرغم من تبدل المواقف، واختلاف وجهات النظر بين الثوّار، إلا أن المحكمة أصدرت حكمها عليهم بالنفي. إذ بدأت مرحلة جديدة في حياة البارودي تباينت بحسب ما هو عليه الحال، ولذا يمكننا أن نستطلع ثلاثة مستويات لحياة الشاعر في المنفى: المستوى الأول يبدأ مع بداية نفيه، وفيه أبدى موقفا يمتاز بشيء من الصلابة وعدم المبالاة لما حدث، ولما آل إليه من مصير إذ يقول[2]:

أنا إن عشت لست اعدم قوتاً	وإذا مت لست اعدم قبرا
همّتي همّة الملوك ونفسي	نفس حُر ترى المذلّة كفرا

وقد مضى البارودي يعيش مع صحبه في ((كولومبو)) بنفسٍ قويةٍ صلبةٍ على الرغم مما أصابه من النفي والشدة، وكأن ما أصابه لم يمس جوهره، فقد حاول الشاعر أن يتظاهر بالقوة حتى لا يدع الضعف يستبد به ليسمو بنفسه فوق النكبة[3]ومن هنا فقد ظلّ يدافع عن نفسه ضدّ القوى التي تآزرت عليه، وأرادت النيل منه وهو في منفاه إذ يقول[4]:

فماذا عسى الأعداء أن يتقوّلوا	عليّ وعرضي ناصح الجيب وافر
فلي في مراد الفضل خير مغبّة	إذا شاق حياً بالخيانة ذاكر
ملكت عقاب الملك وهي كسيرة	وغادرتها في أوكارها وهي طائر
ولو رمت ما رام امرؤ بخيانة	لصبّحني قسط من المال غامر
ولكن أبت نفسي الكريمة سوأةً	تُعاب بها والدهر فيه المعاير

وهنا محاولة لنفي تهمة الخيانة عنه، فنفسه الأبية الكريمة تخشى العار إذ لم ترتكب أي معيبة تُذكر، ولذا فانه أعطى للحكم الذي كان بيده أكثر مما اخذ منه فتركه سليماً معافىً لم تمتد له يده بخيانةٍ قط.

---

١ - ينظر الإنسان يبحث عن المعنى : مقدمة في العلاج بالمعنى : ٩٥- ٩٦

٢ - البيتان لم ينشرا في الديوان ، ينظر: البارودي رائد الشعر الحديث: ٨٣

٣ - ينظر : محمود سامي البارودي:١٥٦

٤ - الديوان: ١/ ٧٠

بهذه الصورة من القوة والصلابة في تحمّل النتائج تعامل البارودي مع منفاه ((إذ أن الحياة تستلزم من الإنسان في بعض الأحيان ان يتقبّل قدره، ويصدع له ويتحمّل متاعبه وأعباءه))[1].

أمّا في باب الاستسلام والخضوع سواء كان ذلك لأولي الأمر أم الأقدار فقد تجلّت صورة أبي فراس في ذلك من خلال المواقف التي سجّلها شعريا، ووُثّقت كحوادث تاريخية، من ذلك المناظرة التي جرت بين الدمستق القائد الرومي وبين أبي فراس، إذ قال له الدمستق: إنما أنتم كتّاب لا تعرفون الحرب، فقال له أبو فراس : نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام[2]، ثمّ أردف يقول[3]:

أتـــزعم يــــا ضـــخم اللغاديـــد أننــــا	ونحـن اسـود الحـرب لا نعـرف الحربـا
فويلـــك مَــــن للحـــرب إن لم نكــــن لهـــا	ومـن ذا الـذي يمـسي ويـضحي لهـا تُربـا
ومَـــن ذا يلـــفّ الجـــيش مــــن جنباتــــه	ومـن ذا يقـود الـشمّ أو يـصدم القلبـا
وويلـــك مــــن أردى أخــــاك بمرعــــش	وجلـل ضـربا وجـه والـدك الغـضبا
وويلـــك مـــن خلـــّى ابـــن أختــك موثقـــا	وخلــّاك باللقـان تبتـدر الـشعبا؟
أتوعـــدنا بــــالحرب حتـــى كأننـــــا	وإيـاك لم يعـصب بهـا قلبنـا عـصبا
لقـــد جمعتنــــا الحـــرب مـــن قبـــل هــــذه	فكنـّا بهـا أسـدا وكنـت بهـا كلبـا

وهنا أفصح الشاعر عما تكنه ذاته تجاه الروم الأعداء إذ لم يهن ولم يتخاذل على الرغم من أن الدمستق عرف كيف يغيض أبا فراس ويطعن عزّته وقوميته ظناً منه أن أبا فراس سوف يسكت على هذا التحدي، ولكن الفارس أجابه جواب الغالب للمغلوب لا جواب الأسير لآسره[4].

إن قصائد أبي فراس في هذا الاتجاه كثيرة لا سيما في بدايات أسره، إذ لم يتبين له موقف سيف الدولة إزاءه بعد، ولذا فان موقفه هذا يشعرنا بأننا إزاء أسد مكبّل بالقيود ((وليت نفس الأسد بأكبر من نفس أبي فراس ولا شمم الليث وابائه بأعظم من شمم الحارث وإبائه، وأبو

---

١ - الإنسان يبحث عن المعنى: مقدم في العلاج بالمعنى: ١٠٩

٢ - ينظر: أبو فراس الحمداني : ٢٦- ٢٧ ، وديوان أبي فراس: ٤٠

٣ - الديوان: ٤٠- ٤١

٤ - ينظر: أبو فراس الحمداني: ٢٦

فراس الحارث هو الليث أفعالا ونفسا واسما وكنية))[1] وكثيرة هي المواقف التي تدلّ على إباء نفسه وكبريائه تجاه آسريه، إذ لم نجد له مدحا ولا إشادة بهم ولا قَبلت نفسه يوما الاقتراب منهم، فطالما تجده يصفهم بالكلمات النابية التي تُظهر مدى كراهيته لهم إذ يقول[2]:

إلى الله أشـــكو أننـــا بمنـــازل   تحكـــم في آســـادهن كـــلاب

فقد عزّ عليه وهو الأسد أن المتحكم به كلب، لكنها الأقدار تفعل ما تشاء.

إن نفس الشاعر بقيت أبيّة لا ترضى أيّ فضل من الأعداء، فهي تأبى حتى منتهم في حسن معاملته إياه، فالروم قالوا:ما أسرنا أحدا ولم نسلبه سلاحه غير أبي فراس، وقولهم هذا مع أن فيه إظهار المزيّة والاحترام له، لكن نفسه لا ترضى بذلك إذ عده منة عليه، و ذاته لا تقبل منةً من أحد[3]، لذا أخذ يهتف من عميق جراحه بالقول[4]:

يمنـــون أن خلـــوّ ثيـــابي وإنمـــا   علـــيَ ثيـــاب مـــن دمـــائهم حمـــر

وقـــائم ســـيفٍ فـــيهم دون نـــصله   وأعقـــاب رمـــح فـــيهم حطـــم الـــصدر

ولم يقتصر كبرياؤه على رفضه منّة أعدائه بل راح يؤكد من خلال شعره أن من يسعى لفكاكه وإعطائه المنزلة التي يستحقها سيلحقه جرّاء ذلك خلودا أبديا، فحتى ذلك الخلود الذي استحقه الروم جرّاء خدمتهم إياه استكثره عليهم، ورأى أن سيف الدولة أحق به منهم فيقول[5]:

فـــلا كـــان كلـــب الـــروم أراف مـــنكم   وأرغـــب في كـــسب الثنـــاء المخلـــد

ولا بلـــغ الأعـــداء أن يتناهـــضوا   وتقعـــد عـــن هـــذا العـــلاء المـــشيّد

وقراءة أولى لهذه الأبيات تنبئ أن الشاعر توجّه بالحثّ وبمختلف الطرق لأبناء قومه لأجل خلاصه، إلا أن القراءة الثانية لها تجعلنا نقف على حقيقة ذاته إذ يعتقد أن فداءه باب من أبواب الثناء وكسب الخلود، لذا توجّه إلى قومه بالنداء كي يكون ذلك الخلود من نصيبهم، وكأنه بذلك أعطى لفدائه درجة من الشرف تبرّ معاناته في الأسر.

---

١ ـ أعيان الشيعة: ١٨/ ٩٥

٢ ـ الديوان : ٢٨

٣ ـ ينظر : أبو فراس الحمداني : ٧١

٤ ـ الديوان : ٨٧

٥ ـ المصدر نفسه : ٦٦

لقد وصل من ملفات الأسرى أن ((الأسير لم يجد غضاضة حين كان يمدح آسريه، إما الآسر فقد كان في أحايين كثيرة يعد المديح ثوابا من مأسوره يقبله منه ويثيبه عليه، وهذا ما كان يدركه الأسرى والسبايا، فاعتمدوا عطف آسريهم بهدف إطلاق سراحهم، فكان خير وسيلة))[1] لكن أبا فراس حاد عن هذا الطريق ولم يركبه، بل لم يقترب منه طيلة سنوات أسره، فالأسر لم يفض من إبائه وعزّة نفسه، إذ أن ((من الرائع العجيب أن يكون في أسر الروم ثمّ لا تشعره نفسه الأبية شيئا من اللين والمداراة تجاه أعدائه الذين يحكمونه كما يريدون))[2] فكأنك تجده في أسر الروم بالقوة نفسها والعزيمة حينما كان يلحق بهم الهزائم في سوح الوغى.

هذا هو أبو فراس مع آسريه يحاجج و يشتم و يذكّر بالمثالب كما لو كان في إمارته، واعتقد أن لثقته العالية بنفسه وإيمانه بالمبادىء الاجتماعية التي نشأ عليها الأثر الفاعل في تحمل شدائد الأسر بعد أن وقّر في نفسه المعنى الشمولي للحياة، ويبدو أن هناك دافعا ما كان يشد من أزره بهذا الاتجاه، فإذا كان الروم متحكمين بأسره فان سيف الدولة هو القادر على فدائه ورفع الغمة عنه مما دفعه هذا إلى أن يعتمده ملاذا وحيدا لرفع معاناته، فصار التوسل إليه أخفّ وطأة على نفسه واقل تجريحا لكرامته، وأيسر طريقا لنيل حريته، لذا فانه لم يلجأ إلى طلب الفدية من غيره، على الرغم من تعكّر صفو العلاقة بينهما في بعض الأحيان إذ يقول[3]:

دعوتك للجفن القريح المسهّد لديّ وللنوم القليل المشرّد

وإذا ما انتقلنا إلى منفى البارودي للبحث عم مدى استسلامه أو خضوعه للحبس وجدنا ما يشير إلى أن الزمان كفيل بتغيير كل الأشياء حتى نفوس البشر، فقد أصاب الشاعر بعض الوهن والضعف لا سيما بعد طول سنين الغربة التي قضاها في ضنك العيش بعيدا عن أهله ومرابع فتوّته، إذ هدّته المحن وأخذت من قوته شيئا كثيراً ، وبخاصة بعد أن امتد الظلام ليشمل عينه. فتصاب قرنيته برشح يأخذ نورها شيئا فشيئا[4]. وهذا هو المستوى الثاني من منفاه، إذ ازداد الشاعر غمّاً بعد أن فشلت الوساطة التي قام بها (سيروليم جريجوري) حاكم سيلان، فقد حاول

---

١ ـ شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام (دراسة وتحليل) : ١٤٠ مجلّة القادسية للعلوم التربوية مجـ٢/ع٣/٢٠٠٢

٢ ـ أعيان الشيعة: ٥٢/١٨

٣ ـ الديوان : ٦٤

٤ - ينظر : محمود سامي البارودي :١٦٨

أن يساعدهم بنفوذه في العودة إلى الوطن، أو نقلهم إلى قبرص، لكنّ الحكومة المصرية رفضت عودة الزعماء[1]. وبذلك يذهب بقية الأمل الذي ظلّ كشعاع الضوء ينير ظلمة المنفى، ويأتي اليأس على ما بقي من عافية الشاعر حتّي لا يكاد يقوى على جر شريه أو خط قلمه فيضعف من معنوياته فيصور ذلك في قوله[2]:

شوق ونأي وتبريح ومعتبة	يا للحمية من غدر وإهمال
أصبحت لا أستطيع الثوب أسحبه	وقد أكون وضافي الدرع سربالي
ولا تكاد يدي تجري شبا قلمي	وكان طوع بناني كل عسال
فان يكن جفّ عودي بعد نظرته	فالدهر مصدر إقبال وإدبار

وهذا هو المستوى الثالث من محنته إذ أطبق الظلام على حياته، وتمكن اليأس منه وبخاصّة بعد فشل مساعي العودة وتقدم العمر اللذان كان لهما الأثر الأكبر في سوء حاله ((فمرحلة ما بعد ٥٠ سنة إلى ما لا نهاية من العمر، أسلوب التصرف فيها هو إما تكامل الشخصية أو اليأس في حلّ الصراع حول معنى الحياة وحتمية الموت))[3].

ويبدو أن هذه المرحلة من حياته هي التي دفعته للتفكير في نفسه ((فالذات تتجه صوب نفسها حينما لا تجد ما يلائمها لكي تعيد الأشياء من جديد))[4].

إن الإنسان يبدأ بمحاسبة نفسه والتفكير فيها عندما يشعر أن قدرته على التوافق قد انعدمت، وان علاقته بالبيئة المحيطة لم تعد بعد علاقة ود وأمن، عندها يشعر بحدة القصور وانعدام التكافؤ بينه وبين العالم المادي والاجتماعي الذي يعيش فيه، عندما يشعر بالعزلة والفرقة بينه وبين الآخرين، عندئذ يرتدّ الإنسان على نفسه وتتجسم في أوهامه نقائضه، ويشعر بحاجة ملحّة إلى أن يختبر ذاته ويحاسبها، ويحاول جاهدا أن يتفهمها[5]، ولذا فان هذه المحاسبة المستمرة والشديدة للذات كانت من حالة الوهن التي أصابت الشاعر، فضلا عن انعدام المعنى الحياتي

---

١ - المصدر نفسه : ١٦٩

٢ - ديوان البارودي، شرح عبد المقصود عبد الرحيم : ٤٢١

٣ - شخصية الإنسان تكوينها وطبيعتها واضطراباتها : ٢٥

٤ - الشاعر العربي في مرايا نرسبيس، التمركز حول الذات في القصيدة العربية/رؤى متفاوتة : ٨ (مقالة)/جريدة الصباح/ع٢٧٧ الاثنين- ٧حزيران/٢٠٠٤

٥ - ينظر: الشخصية وقياسها : ٤

عنده، وبلوغه سن اليأس وهو يرزخ في زنزانات النفي، كلّ ذلك قاده إلى التفكير بشيء من الجنونية متخطيا كل الاعتبارات بما فيها الدينية، ليفكر بجديّة كاملة في الانتحار، ليجنِّب نفسه آلام الانتظار[1]. إن اليأس الشديد يؤدي بالشخص إلى حالة نفسية متأزِّمة إذ ((تقترن الأزمات بحالة من التردد والحيرة والقلق والتوتر، هذا إلى ما يترتب على إحباط الدوافع من مشاعر أليمة بالخيبة والعجز والشعور بالذنب... والشعور بالظلم، والرثاء للذات او الشعور بالوحدة والاغتراب))[2]، ولذا نجد الشاعر يفصح عمّا في داخله قائلا[3]:

كــلّ صــعب ســوى المذلــة ســهل	وحيــاة الكــريم في الــضيم قتــل
إن مـــــرّ الحمـــــام أعـــــذب ورداً	مـــن حيــاة فيهـــا شـــقاء وذلّ

إن البارودي في هذه المرحلة تملّكه اليأس فأفضى به إلى الاستسلام لقيد السجن، ففكر - بعد أن تسلّط عليه الضعف أن يجنب نفسه آلام النفي وامتهان الأعداء- بالانتحار، فقد أراد أن يقطع عرقا من ذراعه ليموت بسهولة، ولكن يبدو انه ذُكّر بواجبه الديني نحو نفسه حتى لا يخسر الآخرة بعد أن خسر الدنيا، فثاب إلى رشده ورجع إلى صوابه[4].

إن فقدان الأمل والشجاعة له أثر مميت يؤدي إلى فراغ وجودي يكون سببا رئيسيا للاتجاه نحو الخلاص من الحياة بعد أن تيقّن الفرد من عبثيّة وجودها، أو انه حاول الرأفة بنفسه كي ينقذها من همومها، ويبدو أن الشاعر فقد الثقة بالنفس مما جعل إرادة الحياة صعب استرجاعها ولذا أصبح شبح الموت يطارده حتى في الصباحات الصافية، فمنظره المستمر يولّد فكرة الانتحار[5]، الذي لم يستطع تنفيذه إذ أن فكرة الخسران الأخروي خيمت بظلالها عليه ليعزف عمّا كان يراوده متجها إلى ملاذ أكثر أملا واطمئنانا لذاته فوجد في الزهد ضالته التي يبحث عنها.

إنّ عجز الفرد يشعره بالفشل والإحباط والحرمان في بيئة قاسية تقمع اتجاهاته وتمنعه عن التوسع والتفتّح، لذا أخذ يرى في الكرامة الصوفية تسلية مؤقتة وتفريجا نفسيا غير أصيل[6].

---

١ - ينظر: محمود سامي البارودي شاعر النهظة: ٢٥٢

٢ - أصول علم النفس: ٤٧

٣ - ديوان البارودي شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٤٤٩

٤ - ينظر : محمود سامي البارودي شاعر النهضة : ٢٥٢

٥ - ينظر الإنسان يبحث عن المعنى: مقدمة في العلاج في المعنى:٣٩

٦ - ينظر: التحليل النفسي للذات العربية،أنماطها السلوكية والأسطورية: ١١٢

لقد أغلق اليأس كلّ منافذ الأمل أمام الشاعر وقطع كل شعاعات الرجاء فأصبح قريبا للاستسلام إن لم يكن مستسلماً حتى للموت الذي يتمنى قدومه إذ يقول[1]:

متى ينقضي عمر الحياة فتنقضي مآرب كانت علّة للمظالم

إنّ انقطاع الأمل واضمحلال رجاء العودة، كل ذلك جعله يتجه صوب ربه، باحثا عن فضاء رحب قد يعوّضه الدنيا، فهو يقول[2]:

إذا المرء لم يركن إلى الله في الذي يحاذره من دهره فهو خاسر

وان هو لم يصبر على ما أصابه فليس له في معرض لحقّ ناصر

إنّ ازدياد المحن والخطوب التي خيّمت على الشاعر وتعمق فكرة الموت في ذاته جعل نظره يتجه تجاه الله، باحثا عن الأمل الروحي بعد أن ((أيقن أن الموت كأس دائرة على كلّ حيٍّ، وان العاقل من كفّ نفسه عن اللهو ودواعيه، وأخلصها لربّه تائبا مما قدّم من ذنوبه))[3]ولذا فان قصائد الزهد قد ازدادت عنده في هذه المرحلة لا سيما في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم. وعلى حث نفسه بضرورة الالتزام بنهجه القويم، إذ يقول[4]:

إلامَ يهفو بحلمك الطرب؟ أبعد خمسين في الصبا أرب

هيهات ولّى الشباب واقتربت ساعة ورد دنا بها القرب

فليس دون الحمام مبتعدٌ وليس نحو الحياة مقترب

كلّ امرئ سائر لمنزلة ليس له عن فنائها هرب

وزهد البارودي هذا طارئ في حياته إذ لم يعرفه قبل مناه، وان كانت له بعض الأبيات في المديح الإلهي أو الحكم. إنّ((تغلّب اليأس على أمره وهو وحيد شديد يعاني غصص الفراق والنفي كان السبب الرئيس في زهده فما قاله في الزهد قبل منفاه كان قليلا يدلّ على انه أثر لنوبات كانت تعتريه فيتشاءم من الدنيا، فيتذكر الموت والموت يذكره بالعمل الصالح، والإقلاع

---

١ . البيت غير منشور في الديوان، ينظر محمود سامي البارودي: ١٧٨

٢ . الديوان:٢/٦٧

٣ . البارودي رائد الشعر الحديث:٩٣

٤ . الديوان: ١/ ٦٨- ٦٩

عن الغواية))[١].

إنّ زهد البارودي لم يكن استجابة دينية طبيعية بقدر ما كان ردّ فعل لتوالي الأزمات النفسية عليه، وإحساسه بأن صراعه من أجل الوصول إلى أمانيه قد ذهب أدراج الرياح، فمات في داخله، فيبدو وكأنه حيّ ميّت، هذا الموت في الحياة بدا لبعض الباحثين زهدا، على أن موت الحياة ليس زهدا. فالزهد هو التبرؤ من كل ما يزيد على إبقاء النفس قيد الحياة، انه الرضا بالحد الأدنى مما يبقي الإنسان على قيدها[٢]. وبهذه السمات الأساسية يكون الفرق بين الزهد وبين حالة اليأس التي عاشها البارودي في منفاه والتي تقرب من حالة الموت الداخلي، الموت من الحياة.

لقد كان الزهد المركب الأخير الذي ركبه الشاعر بعد أن طرق جميع الأبواب، محاولا من خلالها إرضاء نفسه التي أخذت تنظر إليه نظر اللائمة، ولذا فمن خلال زهده هذا حاول إلقاء تبعة منفاه على قوى غيبيّة لا يملك زمام التحكّم فيها إذ يقول[٣]:

والمرء طوع الليالي في تصرفها ... لا يملك الأمر من نجح وإخفاق

على شيم الفوادي كلما برقت ... وما علي إذا ضنّت برقراق

فلا يعبني حسود إن جرى قدر ... فليس لي غير ما يقضيه خلاّقي

أسلمت نفسي لمولى لا يخيب له ... راج على الدهر والمولى هو الواقي

وهون الخطب أنني رجل ... لاق من الدهر ما كل امرئ لاقي

وفي أحيان معينة يلجأ الشاعر إلى ندب الحظ وصروف الليالي، إذ نلمح تحولا جديدا لديه لم نعهده في شعره سابقا فقد كان يقول[٤]:

واني امرؤ لا أستكين لصولة ... وان شُدّ ساقي دون مسعاي قدّه

إنّ الاستسلام الذي أتى بعد مرحلة اليأس جعله يضع مقدرة الله تعالى نصب عينيه محاولا أن يقنع ذاته بأن ما آل إليه هو من صنع قوى خارجة عن إرادته، ولذا اتخذ منها سبيلا لبعث

---

١ - في الأدب الحديث: ١/ ٢٠١

٢ - ينظر: نفسية البارودي من خلال شعره: ٣٥٩ مجلة آداب الرافدين/ع٨/١٩٧٧/كلية الآداب/جامعة الموصل.

٣ - الديوان: ٢/ ٢٨٩- ٢٩٠

٤ - الديوان: ١/ ١١٧

الأمل والطمأنينة إلى نفسه إذ يقول[1]:

لابدّ للضيق بعد اليأس من فرج وكلّ داجية يوما لإشراق

كلّ هذه المتاعب والمآسي التي حلّت بالشاعرين دفعتهما الى الرحمة والشفقة من اولي الأمر فحين يطول الأسر بأبي فراس يتوجّه إلى ابن عمه وأمير دولته سيف الدولة، ليحثه على تفريج همّه ورفع القيد من يده، وليس ذلك جزعا من الأسر أو حبا للحياة كما يقول[2]:

وما ذاك بخلا بالحياة وإنها لأول مبذول لأول مجتدي

وما الأسر مما ضقت ذرعا بحمله وما الخطب مما أقول له قدي

ولكنني أختار موت بني أبي على صهوات الخيل غيرموسّد

وآبى وتأبى أن أموت موسّدا بأيدي النصارى موت اكمد أكبد

يتّضح من هذه الأبيات أن الشاعر يطلب الفداء من سيف الدولة إلاّ أنه لم يطلبه بذلّة وضراعة بل طلبه بكل كبرياء، فهو يرى أن من الحقّ على سيف الدولة أن يفتديه، لأنه يعتقد أن فداءه سيعود بالعزّ والفخر والنصر على كلّ بني حمدان فهو يقول[3]:

فان تفتدوني تفتدوا شرف العلا وأسرع عوّاد إليهم معوّد

وان تفتدوني تفتدوا لعلاكم فتىً غير مردود اللسان ولا اليد

وعلى الرغم من عدم تذلل الشاعر في طلب الفداء إلا أننا نلمح في شعره استعطافا وظّفه لاستمالة أمير الحمدانين لدفع فديته ((غرض الاستعطاف اعتمده شعراء الأسر والسجون وسيلة لاستدرار عطف آسريهم واستمالة قلوب الحكام بلوغا إلى نيل عفوهم وإطلاق سراحهم، وقد تلوّنت أساليب هذا الغرض، فبعضها أخذ صورة المدح بما يحمله هذا الفن من معانٍ تهتزّ لها أريحيّة الرجال، فتنطلق أيديهم بفعل الخير))[4]، لذا فانَّ الشاعر لم يجد غضاضة من مدح واستعطاف أميره الذي كان يحسبه أباً له ولكل الحمدانيين الذين قاتل لأجلهم، إذ اتخذه قدوة

---

١ ـ المصدر نفسه: ٢/٢٩٠

٢ ـ الديوان: ٦٤

٣ ـ المصدر نفسه: ٦٦

٤ – شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام، دراسة وتحليل:١٣٩/مجلة القادسية للعلوم التربوية/مجـ٢/ع٣/٢٠٠٢

له يفتخر به في كلّ مكان وزمان، يتضح ذلك من قوله فيه[1]:

وإنك للمولى الذي بك اقتدي ... وإنك للنجم الذي بك اهتدي

وانت الذي بلّغتني كلّ رتبة ... مشيت إليها فوق أعناق حسّدي

فيا ملبسَ النعمى التي جلّ قدرها ... لقد أخلقت تلك الثياب فجدد

ألم ترَ أني فيك صافحت حدّها ... وفيك شربت الموت غير مصرّد

بقيت بن عبد الله تحمي بنا الردى ... ويفديك منا سيد بعد سيّد

لقد تعددت الطرق التي سلكها أبو فراس لاستعطاف سيف الدولة بشكل خاص، والحمدانيين بشكل عام، إنّه يذكّر ابن عمّه بما مضى من أيام شبابه في خدمته إذ يقول[2]:

وهبت شبابي والشباب مضنّة ... لأبلج من أبناء عميَ أروعا

أبيت معنّىً من مخافة عتبة ... وأصبح محزونا وأمسي مروعا

بعد ذلك ينتقل ليبثّ ما يجده في نفسه من حزن وألم فيقول:

أما ليلة تمضي ولا بعض ليلة ... أسر بها هذا الفؤاد المفجّعا

بعدها يعرض بالشكاية من سيف الدولة بما يشبه التصريح:

أما صاحب فرد يدوم وفاؤه ... فيصفي لمن أصفى ويرعى لمن رعى

وفي كلّ دار لي صديق أودّه ... إذا ما تفارقنا حفظت وضيّعا

اقمت بأرض الروم عامين لا أرى ... من الناس محزونا ولا متصنّعا

بعد ذلك يصرح :

تنكّر سيف الدين لما عتبته ... وعرّض بي تحت الكلام وقرّعا

ثمّ لا يلبث أن يعتذر ويتوسّل فيحسن التوسّل إذ يقول[3]:

---

١ - الديوان:٦٧

٢ - الديوان : ١٤٥- ١٤٧

٣ ـ المصدر نفسه: ١٤٧

فقـــولا لـــه يـــا صـــادق الـــودّ أنّنـــي جعلتـــك ممـــا رابـني الـدهر مفزعـــا

ولـــو أنّـــني أكننتـــه في جوانحـــي لأورق مـــا بـــين الـضلوع وفرّعـــا

والاعتذار صفة أخرى من صور الاستعطاف استمدّ اصوله من منابع حياة القهر يحياها الشاعر في أسره[1]. ويبدو أن اعتذار الشاعر وتوسّله تيقنا منه أن لا منفذ لخلاصه سوى سيف الدولة، أو أنه المنفذ الأكثر حفاظا لماء وجهه.

وأحيانا يتخذ الشاعر من إبراز القيم الأصيلة لسيف الدولة الحمداني ووضعها أمام عينيه سبيلا للاستعطاف وإلزامه بالفداء، إذ أن فداءه – في نظره- مزيّة تضاف إلى ما كان يتمتع به أميره إذ يقول[2]:

أيـــن المعـــالي الـــتي عرفـــت بهـــا تقولهـــا دائمـــا وتفعلهـــا

لم يبـــق في النـــاس امّـــة عرفـــت إلا وفـــضل الأمـــير يـــشملها

أنـــت سمـــاء ونحـــن أنجمهـــا أنـــت بـــلاد ونحـــن أجبلهـــا

أنـــت ســـحاب ونحـــن وابلـــه أنـــت يمـــين ونحـــن أنملهـــا

يـــا منفـــق المـــال لا يريـــد بـــه إلاّ المعـــالي الـــتي يؤثّـــلها

ثمّ ينتقل الشاعر مباشرة لإظهار شكايته من سيف الدولة الذي أهمله، فيخلط ذلك بعتب رقيق هادئ يميل إلى استعمال الاستفهام التعجّبي كوسيلة لاستغرابه مما يراه من مواقف ابن عمّه ازائه.

واختلاط الشكوى بالعتب دليل حرص الشاعر على عدم حصول القطيعة مع ابن عمّه إذ بحلولها يصبح لا ملجأ له، فهو يقول[3]:

تلـــك المـــودّات كيـــف تهملـــها؟ تلـــك المواعيـــد كيـــف تغفلـــها؟

تلـــك العقـــود التي عقـــدت لـــنا كيـــف وقـــد أحكمـــت تحلّـــلها

---

١ ـ ينظر : شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام ((دراسة وتحليل)): ١٤١/مجلة القادسية للعلوم التربوية/مجـ٢/ع٣/٢٠٠٢

٢ ـ الديوان: ١٨٠- ١٨٢

٣ ـ الديوان: ١٨٠- ١٨١

أرحامنـــــا منـــــك لم تقطـــــعُها ولم تـــــزل دائمـــا توصّـــــلها

ياواســـع الـــدار كيـــف توســـعها ونحـــن في صـــخرة نزلزلهـــا

يـــا نـــاعم الثـــوب كيـــف تبدلـــه ثيابنـــا الـــصوف مـــا نبـــدّلها

هذه الأبيات تنبئ عن صرخات مكلوم انتابته ساعات من اليأس والقنوط، إذ ألقت به المقادير في زوايا الظلام، ينتظر المصير المحتوم.

نخلص مما تقدم إلى أن الشاعر ألحّ على سيف الدولة لفدائه بطريقة تصل في بعض الأحيان حدّ التوسُّل، وهذا ما دفع بعض الباحثين إلى أن يصفه بالضعف والاستكانة.

إن المتتبع لشعر أبي فراس في سنوات أسره يخلص إلى أن هناك أسبابا خاصة وعامة كان لها الأثر البالغ في إلحاحه هذا، يقف في أول تلك الأسباب الجانب العقائدي إذ أن للدين الإسلامي أثراً كبيراً في تكوين شخصيته، فقد زاد في نقاء تلك الشخصية وصفائها، وأعانه في الصعاب التي لاقاها وهو لما يزل في عنفوان شبابه[1]. من هنا فان بقاؤه عند الروم – بحسب ما يرى- خسارة فادحة لم تلحق الحمدانيين وحدهم بل العرب والإسلام عامة، فهو يعتقد أن للإسلام مرتبة تفوق الود والقرابة، التي يبدو أن تأثيرها أقل من تأثير العقيدة عند ابن عمّه، فلجأ إليها ليتخذها سبيلا يحرّك من خلاله عواطف أمير البلاد باتجاهه، إذ يقول[2]:

فـــان لم يكـــن ودّ قريـــب نعـــدّه ولا نـــسب بـــين الرجـــال قـــراب

فـــأحوط للإســـلام أن لا يـــضيعني ولـــي عنـــك فيـــه حوطـــة ومنـــاب

وهذا السبب هو نفسه الذي نمّا فيه هاجس الخوف من أن يلق حتفه بين أعداء دينه وأهله، بعيدا عن سوح القتال، ولذا اخذ يطلق صرخات الاستغاثة المدوية طلبا للنجدة إذ يقول[3]:

دعوتـــك للجفـــن القـــريح المـــسهّد لـــديّ وللنـــوم القليـــل المـــشرّد

ومـــا ذاك بخـــلا بالحيـــاة وإنهـــا لأول مبـــــذول لأول مجتـــــدي

فلم يستغث الشاعر حبا للحياة، ولا رهبة من الموت بل لأمر آخر إذ يقول[1]:

---

١ ـ ينظر أعيان الشيعة: ١٨/ ٦٤

٢ ـ الديوان: ٣٠

٣ ـ الديوان : ٦٤

وآبـــا وتـــأبى أن أمـــــوت موسّـــــدا　　　بأيـدي النـصارى مـوت أكمـد أكبـد

فكان التخوّف من موت الاغتراب والذل بعيدا عن سوح الحرب، وديار العزّ سببا آخر يلحّ عليه بطلب الفداء من أبناء قومه الذين وظّف حياته لأجلهم ودفاعا عنهم إذ أن بقاءه في أسر الروم خسارة لهم بحسب ما يقول[2]:

متـــى تخلــف الأيـــام مثلـــي لكـــم فتـــىً　　　طويــل نجــاد الــسيف رحــب المقلــّد

فـــان تفتقـــدوني تفتقـــدوا شـــرف العـــلا　　　وأســـرع عـــوّاد إلـــيهم معـــوّد

إن فروسيته وشجاعته المتميّزة جعلته شخصا لا يُعوض، فإذا جرت مفاداته مع الروم وفكّ أسره، فإنّ الحمدانيين بعملهم هذا يفتقدون المجد والمعالي التي يتمثّلها أبو فراس[3].

ويعتقد الشاعر أن خسارته لم تقتصر على أبناء قومه وإنما امتدّت لتشمل كلّ المتنعمين بنعمه وعطاياه، لذا أخذت قيثارته تعزف شكوى التجمد عن باب من أبواب الارتقاء إلى العلا إذ يقول[4]:

تمـــرّ الليـــالي لـــيس للنفـــع موضـــع　　　لـــديّ ولا للمعـــتفين جنـــاب

ولا شـُدّ لـي سـرج علـى ظهـر سـابح　　　ولا ضُـــربت لـــي بـــالعراء قبـــاب

أنـــا الجـــار لا زادي بطـــئ عليهـــم　　　ولا دون مـــالي للحـــوادث بـــاب

وقوله[5]:

فقـــد الـــضيوف مكانـــه　　　وبكـــاه أبنـــاء الـــسبيل

فالشاعر يشكو القيد والبعد عن النفع داخل الأسر، وعدم نصرة الملهوف، وعدم ركوب الخيل في الفلوات والنزول فيها، والابتعاد عن الغارات التي بها يصون الكرامة والشرف والأرض.

---

١ ـ الديوان: ٦٤

٢ ـ الديوان:٦٦

٣ ـ ينظر: الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني: ٢٤٥ / رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية التربية/ ابن رشد/ جامعة بغداد/١٩٩٧.

٤ ـ الديوان: ٢٨- ٢٩

٥ ـ المصدر نفسه: ١٩٤

إنّ شدة العاطفة التي تربطه بامّه لا سيما أنه وحيدها الذي تولّته بالعناية والتربية والتنقّل في مواطن الحمدانيين[1]، حتى صار رجلا يُعتدّ به، إذ أن لها الدور الرئيس فيما وصل إليه من مكانة مرموقة في البلاط الحمداني، كلّ ذلك زاد في تعلّقه بها وحبّه إياها وحرصه عليها. لذا فإنّ ما يصله من أخبار بؤسها وشقائها بعده، وتذللها لسيف الدولة كي يطلق سراحه، دفعه باتجاه طلب الفدية من أمير البلاد. ولذا اخذ يصرّح بأنه لا يريد الفداء إلا لأجل تلك العجوز التي أضناها فراق وحيدها((إذ أن الإنسان الذي يصبح واعيا بالمسؤولية التي يحملها إزاء إنسان آخر ينتظره بشوق وحنان وإزاء عمل لم يكتمل سوف لا يكون قادرا أبدا بالتفريط بحياته))[2]. لذا فانه لا يرى في سجنه حرجا ولكنه ينتبذه ويأباه لأنه سيكون شديد الوطأة على العجوز الوحيدة الوالهة، وكأنه لا يطلب فداءه إلا تعزية لوالدته[3]فهو يقول[4]:

لـــــولا العجـــــوز بمنــــبج	مــــا خفـــت أســـباب المـــنيه
ولكـــان لــــي عمـــا سألــــت	مـــن الفـــدى نفـــس أبيـــه
لكــــن أردت مرادهــــــــا	ولــــو انجـــذبت إلى الدنيـــه

فإلحاحه بطلب الفداء يشعره بانجذاب نحو الدنية، وهو يتقبله، إشفاقا على حال أمه لقد ترك الأسر أثرا بالغا في نفس الشاعر نستشفّه من الحسرات المبثوثة في ثنايا شعره الرومي، فقد جاش في عاطفة صادقة تمس شغاف القلب وتستقر فيه، فلقد كان ((أبو فراس ضحيّة الكبرياء، كبرياء المجد أبو فراس الوتر الحنان الذي خلّد على الدهر مجد الألم ومجد الأنين، أبو فراس أبكى كلّ عين وأحزن كل قلب، وشغل كل بال، أبو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد الزئير، وعلّمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلام الرجال))[5].

إنّ حالة الأسر ولّدت أزمة نفسية حادّة عصفت بالشاعر، فعانى مرارتها وشكى ذلّها إذ يقول[6]:

---

١ ـ ينظر: يتيمة الدهر: ١/ ٢٢

٢ ـ الإنسان يبحث عن المعنى/ مقدمة بالعلاج بالمعنى:١١١

٣ ـ ينظر: الجامع الكبير في تاريخ الأدب العربي/ الأدب القديم:٨٢٤

٤ ـ الديوان: ٢٣٢

٥ ـ الموازنة بين الشعراء: ٣٢١

٦ - الديوان : ١٨٤

لقيــت نجــوم الأفــق وهـــي صــوارم	وخــضت ســواد الليــل وهــو يهــول
ولم ارع للــــنفس الكريمــــة خلّــــة	عــشيّة لم يعطــف علــيّ خليــل
ولكــن لقيــت المــوت حتــى تركتهــا	وفيهــا وفي حــدّ الحمــام فلــول
ومـــن لم يــوقّ الله فهــو ممــزق	ومـــن لم يعــزّ الله فهــو ذليــل
ومــا لم يــرده الله في الأمــر كلّــه	فلــيس لمخلــوق إليــه سبيــل

وهنا يظهر تلهّج الشاعر وتنازعه الدائم بين الذل والإباء، بين اليأس والأمل، بين الاعتراف والتبرير. فقد شخّص في هذه الأبيات الموت بين الخيول والصوارم والقدر، وهذه الألفاظ ليست سوى عناوين للأزمة التي كانت تعقد في نفسه. ولقد كان الشاعر في كل ذلك ((ناقلا للّحظة النفسية التي يعانيها تحت وطأة تجاربه وتقلبات طبعه))[1] وهو على الرغم من تناقض الأحوال التي عبّر عنها كان صادقا لأنه يعبِّر عن حالات وجدانية حقيقية.

وعلى أية حال فان أبا فراس كتب شعرا كثيرا في أسره، يخلو من أي مأخذ أخلاقي، إذ لم يترك الشاعر لأحزانه أن تأخذ أو تقتلع تقاليد الفروسية ولا دعائم النبل الراسخة في نفسه على الرغم من مرارة الأسر وهوانه وعذابه. وإذا ما لمحنا لحظات الوهن التي انتابته إبان أسره، نشعر أنه أمر طبيعي من رجل اعتاد هواء الحرية واتخاذ الحرب مجالا لتحقيق الذات، إذ وظف حياته لها حينما وجدها سبيلا لإقامة العدل وإنهاء الظلم والاستبداد، فإذا به قابعا في زوايا النسيان بعيدا عن ملاعب الفتيان.

هذه الحياة الجديدة التي أخذ يعيشها في سجنه جعلت بعض الباحثين ينعتوا الشاعر بالضعف والوهن والتضرع للآخرين لفكاك أسره. من ذلك قول العلامة السيد حنا الفاخوري: لقد حاول الشاعر((أن يقنع ذاته بأنه لم يكن يطلب خلاصة لنفسه بل لمنفعة غيره، وهو لا يألو جهدا في الإلحاح على نفسه حتى تحسب ذلك حقيقة فيرتاح إليها، ثمّ يحاول أن يقنعنا نحن أيضا بتجرده ونحن لا نجهل أهدافه، مع ذلك يلذّ لنا أن نشاركه وهمه الكريم ..وأن نتصور أبا فراس أريحيا سمحا))[2].

ويبدو أن السيد الفاخوري لم يستطع التجرد من الظن بأن الإنسان في الأزمات لا يدافع إلاّ عن

---

١ - الفنون الأدبية عند العرب : الفخر وتطوره في الأدب العربي: ١٤٤

٢ ـ الجامع في تأريخ الأدب العربي / الأدب القديم/ ٨٤٤

نفسه، ولذا أخذ يشكك في مصداقية دفاع أبي فراس عن المبادئ التي جُبل عليها وآمن بها، حتى وظف حياته لها، يدلنا على ذلك مواقفه الكثيرة في هذا المجال التي ذكرت في مباحث سابقة.

واعتقد أن مرحلة الأربع سنوات التي قضاها الشاعر تحت وطأة الأسر كافية لإظهار مكنونات ذاته. فالإنسان لا يمكنه كتمان دواخله على نفسه، إذ لا بد من إظهارها عبر المنافذ التي اعتاد التعبير بوساطتها، لا سيما الظروف الاستثنائية إذ أن النفس هي الصاحبة الوحيدة التي بامكانه مناجاتها وبث لواعجه لها. وإذا ما عرفنا أن الشعر كان منفذ الشاعر الوحيد الذي يمكن من خلاله قراءة التجليات النفسية له، أيقنا بعدم تمكن الضعف أو الوهن من ذات أبي فراس، إذ لم نلمح آثار ذلك في رومياته، فضلا عن أن السيد الفاخوري لم يدلنا على مواضع الشعر التي أصدر حكمه بالاعتماد عليها هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فان الشخص في حالات المحن والتأزم النفسي يحاول التشبث بأية وسيلة لخلاصه، وهذا ما لم نلحظه عند الشاعر إذ لم يطلب الفداء إلا من سيف الدولة.

أماّ قوله بأن الشاعر أراد الفداء لنفسه وليس لغيره، فهذا - وان كان مشروعا – فلم يثبته السيد حنا الفاخوري أيضا، إذ لو أن الأمر كما يقول لكان الأجدر به أن يقبل بفداء الأخشيديين أو أهل خراسان ولما لبث في أسره طوال هذه السنين ولكن إيمانه بقضيته حال دون ذلك، إذ ظلّ على حاله لم يرتج الفداء إلاّ من ابن عمه.

وأمّا صدق العاطفة فذلك نلمسه في شعره قبل الأسر وفي أثنائه إذ أن أغلب النقاد أكدوا((أن شعره صريح يعبر عن مكنونات نفسه))[1]، كما أن ما قيل في الروميات هو مصداق لما ذهبنا إليه إذ يقول الدكتور زكي مبارك ((كن كيف ما شئت من قوة القلب، ثمّ اقرأ روميات أبي فراس فستعرف أن القوة الإنسانية في حاجة إلى من يبكيها...... وما قرأت روميات أبي فراس إلاّ تمثلت زوال الجبال، تمثلت عنفوان الفارس الفاتك الذي قضت الأقدار بأن يمسي وهو في ظلمات من ذلة الأسر وهزيمة القلب وانصهار الروح))[2].وهذا كله دليل على مصداقية العاطفة التي ميزت رومياته عن باقي الشعر العربي.

ومن الباحثين الآخرين الذين اقتربوا بآرائهم من رأي السيد الفاخوري الباحث يحيى ولي فتاح إذ يقول((في رومياته الكثير من عبارات التضرع التي يتوسل بها لفك أسره، تكاد تصل حدّ

---

١ ـ الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني: ٢٥٨(رسالة ماجستير) مطبوعة على الآلة الكاتبة/كلية التربية/ابن رشد/جامعة بغداد/١٩٩٧

٢ ـ الموازنة بين الشعراء : ٣٢١- ٣٢٢

التذلل والخشوع، متخليا بذلك عن تعاليه وغروره، وذلك حينما تُرك من قبل الأمير سيف الدولة قابعا لا حول له ولا قوة))[1].

إنّ ما يربط الأميرين من روابط مبنية على ((علاقة متميزة كل التميز... تقوم على عطف سيف الدولة وتشجيعه وإعجابه وعلى احترام أبي فراس، وطاعته ، وإقراره بالفضل))[2] كل ذلك كان دافعا للارتقاء بهذه العلاقة إلى علاقة أبوية متينة، إذ أخذ أبو فراس يتمتع بمنزلة الابن لدى أمير حلب[3] وهذا يعني رفع جميع القيود والحواجز بينهما، فضلا عن ذلك فان الوسائل التي سلكها الشاعر لاستعطاف أميره وحثه على دفع الفدية لم يلاحظ أي تضرع أو خنوع بل على العكس من ذلك فان الشاعر لم يتوان في إظهار شكايته من سيف الدولة، وقد تصل في بعض الأحيان إلى مخاطبته مخاطبة الند للند إذ يجعل مفاخر بين حمدان وطولهم به كما هي بسيف الدولة فهو يقول[4]:

أبو الفيض مار الجيش حولا محرّما ... وكان له جد من القوم مائر

يناديكم يا سيف دولة هاشم ... يطول بنو أعمامنا ويفاخر

وقوله في القصيدة نفسها:

ولو لم يكن فخري وفخرك واحدا ... لما سار عني بالمدائح سائر

ولكنني لم أغفل القول عن فتى ... أساهم في عليائه وأشاطر

وقوله[5]:

فلا وأبي ما ساعدان كساعد ... ولا وأبي ما سيدان كسيد

وهنا تمثل الشاعر نفسه سيدا مثله في ذلك مثل سيف الدولة، فهو لا يقل عنه شأنا.

ولم يقتصر أبو فراس على هذه المخاطبة لابن عمه بل راح يهدده بطلب الفداء من غيره إذ يقول

---

١ . الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني: ٦٩(رسالة ماجستير)) مطبوعة على الآلة الكاتبة/كلية التربية/ابن رشد/جامعة بغداد/١٩٩٧

٢ . أبو فراس الحمداني- رحلة الحياة ومسيرة الموت، مع مختارات شعرية: ١٤

٣ . ينظر: أبو فراس الحمداني: ٤٩

٤ . الديوان : ١١٧- ١٢١

٥ . المصدر نفسه :٦٦

((مفاداتي إن ثقلت عليك ائذن لي أن أكاتب بها لملوك خراسان))[1] وبهذه الطريقة التي تنم عن شعور عال بالكبرياء والعزّة كان خطاب أبي فراس لسيف الدولة على الرغم من العلاقة التي تربطهما.

وما دام الشاعر يتصف بهذه الصفات فلا شك أنّ ذلك شكّل حاجزا نفسيا أمامه حال دون وقوعه في مهاوي الذل والهوان.ولذا أظن لا وجود للذلّ والتضرع في علاقة أبي فراس بأميره أثناء أسره، وهذا ما أفصح عنه شعره الذي كتبه هناك، إذ كان بين العنفوان والشموخ يصارع الذل والهوان، وبين التطلع للحرية يقطع قلبه قيد الأسر،وبين التشوق لساحات الحرب تحبسه ظلمات من الليل الرهيب، فكان الكبرياء الذي لم يهن أما م ريب المنون والصخرة التي تحطمت عندها عاديات الزمان.

وأعتقد أن ذلك يعود إلى طبيعة بنية الذات، إذ أن أكثر بنى الذات أهمية للشخصية السليمة هي الأفكار والمثل وغيرها من التجريدات التي يرى بعض العلماء أنها من خصائص الشخصية ذات الأداء العالي، ويشمل ذلك المعتقدات والمبادئ[2].إذ أنها تعد أهم البواعث في تكوين الصورة الذاتية لأبي فراس الحمداني، ويتضح ذلك من صدق العاطفة الشعرية لديه، إذ كلما كان الباعث مغلفا بالسمو مبطنا بالإخلاص كان الصدق العاطفي في أوج فورانه، فلا كذب ولا رياء حتى آثر عن القدامى هذه الكلمة الخالدة: وما خرج من ينبوع القلب استقر في القلب[3] ولذا نجد الشاعر أعطى لتلك المبادئ التي آمن بها والمعتقدات التي تبناها أولوية قد تفوق حياته وما يعانيه في أسره.((فحينما يتحقق الشخص من استحالة أن يحل أحد مكانه، فإنّ هذا يسمح بظهور المسؤولية بكل ضخامتها وأبعادها، مما يحمله الشخص لأجل وجوده واستمراره))[4] على الرغم من التفكير البشري المشترك بضرورة بقاء الحياة وديمومتها.

أمّا حينما ننتقل إلى البارودي نجد أن الندم والحسرة اللذين تولدا عنده نتيجة شدة القيد لاسيما بعد الاختلافات التي حدثت بينه وبين الثوار جعلاه يحاول إلقاء تبعة أمره على غيره، و التنصّل من المسؤولية وعدم محاسبة نفسه له حينما تذكره بالذنوب التي اقترفها تجاهها. ((فقد ساعدت الوحدة وظلمة السجن ووطأة اليأس، وحرب الأعصاب على نمو الوهم وسوء الظن

---

١ ـ في الأدب العباسي: ٣٩٧

٢ ـ ينظر: الشخصية السليمة- دراسة من وجهة نظر علم النفس الإنساني: ٢٢٤

٣ ـ ينظر: النقد التطبيقي والموازنات: ٢٢

٤ ـ الإنسان يبحث عن المعنى: مقدمة في العلاج بالمعنى: ١١١

بالرفاق في نفس البارودي، فتحول سوء الظن مع الوقيعة إلى نقمة على من ظنهم خانوه، وغدروا به فاصلاهم بشواظ من هجائه....أملتها الأعصاب المريضة والنفس المعذبة بالشكّ والوهم))[1]. فهو يقول[2]:

أضعت زماني بين قوم لو أن لي ... بهم غيرهم ما أرهقتني البوائق

فإن أكُ ملقى الرحل فيهم فإنني ... لهم بالخلال الصالحات مفارق

معاشر سادوا بالنفاق وما لهم ... أُصول أضلتها فروع بواسق

فتبا لهم من معشر ليس فيهم ... رشيد ولا منهم خليل مصادق

ضننت بهم خيرا فأبت بحسرة ... لها شجن بين الجوانح لاصق

فيا ليتني راجعت حلمي ولم أكن ... زعيما وعاقتني لذاك العوائق

ويا ليتني أصبحت في رأس شاهق ... ولم أر ما آلت إليه الوثائق

هم عرضوني للقنا ثم أعرضوا ... سراعا ولم يطرق من الشر طارق

والأبيات واضحة ليست بها حاجة إلى تعليق، إذ أنها تضم في طياتها ندما وتحسرا على ما آل إليه من حال، كما وأنها حوت هجاءاً مقذعا للثوار نستشفّ منه بأنه يعتقد أنهم هم الذين دفعوا به إلى زعامات الثورة فوافقهم على ذلك ظنا منه بإمكانية تحقق طموحاته، ولما أخفقت الثورة في أهدافها وصار حال قادتها المنفى راح البارودي بعد أن فقد كل شيء حتى أهله – بإلقاء اللوم والتبعة عليهم إرضاء لذاته.

إنّ هذا اليأس والاستسلام والتحسر والندم، كل ذلك جعل الشاعر يتجه صوب من يجد فيهم عونا له، ليستعطفهم ويحثهم على تقديم العون والمساعدة له. وأُولى محاولاته بهذا الاتجاه هي قبل وصوله (سرنديب). فقد حاول استمالة الحكومة والانجليز أثناء مثوله في المحكمة، حينما أظهر ندمه على المشاركة بالثورة، إذ انه – بحسب ما يرى- قد غرر به، وهدد بعد أن حذرهم ذلك (الشر المهلك) لكن دون جدوى، إذ يقول وهو يعرض برؤساء الجند الذين خاذلوا في

---

١ . محمود سامي البارودي: ١٤٤

٢ . الديوان : ٢/ ٢٩٦- ٣٠٠

الثورة[1]:

على أنني حذرتهم غب أمرهم ... وأنذرتهم لو كان يفقه مائق

وقلت لهم كفوا عن الشر تعتموا ... فللشر يوم- لا محالة- ماحق

لقد ضاقت نفس الشاعر بالثوار وتمنى لو أنه كان بعيدا عنهم، أو أنه راجع عقله، ولم يشترك معهم، بل يذهب البارودي إلى أبعد من ذلك، فقد تمنى لو أن عائقا أعاقه عنهم حتى لا يكون في موقفه الذي هو فيه اليوم. إذ يقول[2]:

فياليتني راجعت حلمي ولم أكن ... زعيما وعاقتني لذاك العوائق

ويااليتني أصبحت في رأس شاهق ... ولم أرَ ما آلت إليه الوثائق

وهنا يتجلّى الندم بأوضح صوره كما يبدو لنا كيفية تنصّل الشاعر من مسؤوليته تجاه وطنه، إذ بدأ يعرّض بالثوار ويوبخهم ويهجوهم، فهو يقول[3]:

هم عرّضوني للقنا ثمّ أعرضوا ... سراعا ولم يطرق من الشر طارق

وقد اقسموا ألاّ يزولوا فما بدا ... سنا الفجر إلا والنساء طوالق

بهذه الصورة أخذ البارودي ينظر إلى زملائه، حتى أصبحت الهوة كبيرة بينه وبينهم. فقد أراد الشاعر بتبرئه من الثوار استمالة الحكام بغية مساعدتهم إياه وتخفيف قرار الحكم عليه، ولكن ذلك لم يجد نفعا، فقد نفي الثوار جميعا، وعاشوا سنوات من الغربة والحرمان.

وبناءا على الإخفاقات التي مني بها الشاعر بمحاولة استعطاف الحكومة، فسرعان ما اخذ يألب الشعب عليها من منفاه وذلك من خلال شعر التوثيب، ونعني به الإثارة والتحريض، فهو غرض اعتمده الأسرى والسجناء على نطاق واسع يهدف إلى إثارة ذويهم ضد أعدائهم، والحق أن هؤلاء لم يعتمدوا هذا الغرض إلاّ حين تعييهم الحيل في تحريك العواطف لاستنقاذهم من أيدي الأعداء[4]. فطرقه البارودي علّه يجدي بعض النفع عليه.

---

١ ـ الديوان : ٢٩٩/٢

٢ ـ الديوان : ٣٠٠/٢

٣ ـ المصدر نفسه : ٣٠٠/٢

٤ ـ ينظر : شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام (دراسة وتحليل): ١٣٧(بحث)، مجلة القادسية للعلوم التربوية: مج ٢/ع٣ سنة٢٠٠٢

إذ يقول[1]:

يقول أُناس أنني ثرت خالعا	وتلك هنات لم تكن من خلائقي
ولكنني ناديت بالعدل طالبا	رضا الله واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنهيت منكرا	وذلك حكم في رقاب الخلائق
فإن كان عصيانا قيامي فإنني	أردت بعصياني إطاعة خالقي
وهل دعوة الشورى علي غضاضة	وفيها لمن يبغي الهدى كل فارق
بلى إنها فرض من الله واجب	على كل حي من مسوق وسائق
وكيف يكون المرء حرا مهذبا	ويرضى بما يأتي به كل فاسق

لقد حاول الشاعر تحريك الشعب لا سيما رجال الدين منه بما يبثه من مشاعر دينية تأخذ على عاتقها تطبيق الشريعة الإسلامية بما فيها من تداول للحكم والمساواة بين الرعية، آملا منه في انتفاضة شعبية عارمة تتبنى المطالبة بعودة الزعماء إلى وطنهم وربما إلى مناصبهم السابقة، ولما لم تأتِ هذه المحاولة أكلُها راح البارودي يبحث عن سبيل آخر يستعطفه ويأمل منه الخلاص، فاستغل مناسبة عيد الفطر سنة ١٨٩٦ ليحيي فيها الخديوي عباس رأس الحكومة آنذاك، ظنا منه أن يرد إليه حريته[2].فهو يقول[3]:

لعمري لقد طال النوى وتقطّعت	وسائل كانت قبل شتى المواثق
فإن تكن الأيام ساءت صروفها	فإني بفضل الله أول واثق
فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه	ويرجع للأوطان كل مفارق

فالشاعر يأمل بصفو الأيام وعودة الأوضاع إلى شكلها الطبيعي ليعود إلى وطنه وكأنه يستعطف الخديوي من طرف خفي ويرجوه الصفح عنه، ويؤكد أن رجاءه في الله لا يخيب من تحقيق أمنيته. ولكن عباسا أصم أذنه عنه وخابت بذلك آخر رجاآته، وحينها استفضع الأمر

---

١ ـ الديوان: ٢/ ٣١٨- ٣١٩

٢ ـ ينظر: البارودي رائد الشعر الحديث: ٩٤

٣ ـ الديوان: ١/ ٢٢١.

وصاح صيحة مدوية، رأى فبها أن الخديوي هو الحجاج بعينه إذ يقول[1]:

أبعـــد ســـتين لـــي حـــاج فاطلبـــها؟	هيهـات مـا لامـرئ بعـد الـصبا حـاج
لا أحفـــل الطـــير ان غنّـــت وان نعيـــت	ســـيان عنـــدي صـــفار وشـــحاج
يـــستفظعون مـــن الحجـــاج صولتـــه	وكـــل قـــوم بهـــم للظلـــم حـــجاج

ويبدو أن الشاعر في منفاه يعيش حالة من الاغتراب عن الذات إذ يشعر المغترب بأنه غير قادر على التحكم بطاقته.

تقول هورناي بهذا الصدد، إن هناك نتيجة للاغتراب هي الخلل في تحمّل مسؤولية الذات، فالمغترب يعوزه الصدق البسيط، ويظهر غياب الصدق في عدم الرغبة في تقبل نتائج تصرفاته وقراراته، وعدم الرغبة بالاعتراف بأن مواجهة الصعاب الشخصية هي مسؤولية الشخص نفسه، فيصر المغترب عن الذات بأن القدر أو الآخرين أو الزمن هو المسؤول عن هذه المشكلات[2]. وهذا ما لوحظ عند البارودي في غربته، إذ حاول إلقاء تبعة اشتراكه بالثورة على الآخرين.

فضنكُ العيش في الغربة وتقدم العمر، ونحالة الجسم كلها أمور غلّفت حياة الشاعر بغلاف اليأس بعد أن انقطعت كل بوارق الأمل بالعودة إلى وطنه، لذا بدا وكأنه قريب من الاستسلام، إن لم يكن مستسلما تماما.

وخلاصة القول فان أبا فراس لم يبد ندما على إصراره مقاتلة الروم، على الرغم من عدم تكافؤ الجانبين، فلم يكن موقفه هذا وليد ساعته، وإنما ظلّ متمسكا به حتى بعد فكاكه من الأسر بل حتى وفاته.

في حين أبدى البارودي ندما، وتحسرا على اشتراكه بالثورة ساعة فشلها، وصار موقفه هذا أكثر وضوحا أثناء محاكمته، فقد هاجم الثوار محاولة منه لاستمالة الحكومة والإنجليز إلى جانبه حين نظر إلى الموت من مكان قريب وظلّ موقفه هذا طوال مدة نفيه، إذ ألقى باللائمة على قادتها كونهم سبب مأساته.

ويبدو أن تقوقع البارودي في حالة من الاغتراب، أفضت إلى عزلة اجتماعية، لا سيما بعد فشله في تحقيق مطامحه السياسية هي التي صورت له أن من كان معه عدو له، وان الذين غرروا به للدخول في الثورة هم أعداء أيضا ولذا فانه بدأ يعتزل الثوار ويعيش صراعاته النفسية وحده.

---

١ - الديوان: ١/٨٧ - ٨٨.

٢ - ينظر: الشخصية السليمة: دراسة من وجهة نظر علم النفس الإنساني: ٢٣٦- ٢٣٧

أما أبو فراس فان إيمانه بالحرب مجالٌ لتحقيق الحياة، خفّف كثيرا من شدة الموقف الذي صار إليه. فهو وليد ساحات المعارك، وظف حياته لها حفاظا على عقيدته ووطنه، ومن هنا صار على الحمدانيين حقّ مفاداته كما يراه، بل هو شرف لهم. وهذا يعود بطبيعة الحال إلى قناعته بالخدمات الجليلة التي أسداها لهم وأنهم ما زالوا بأمس الحاجة له، على الرغم من شعوره ببعض الغربة الاجتماعية تجاههم.

أمّا الضعف فلا شكّ أنه دب إلى نفسَيْ الشاعرين، على اختلاف المستويات بينهما فقد أفضى الضعف بالبارودي إلى يأس ولّد في نفسه الاستسلام. وهذا طبيعي بالنسبة إلى طول سنوات النفي، وتقدم السن الذي أخذ يذكره باقتراب الموت منه، فضلا عن أن الحكومة المتحكمة في أمره هي نفسها صاحبة القرار في نفيه.

أما أبو فراس فقد انتابته ساعة من الوهن، وبخاصة بعد الشكوك التي أخذت تراوده تجاه سيف الدولة الحمداني، إلا أن ذلك لم يصل به حدّ الاستسلام، ولم يمت بداخله ما كان يصبو إليه.

وبناءا على ما تقدم فان لكل منهما موقفه من الموت في الغربة، فأبو فراس كان ينظر إلى نوع الميتة التي يمكن أن تلحق به وهو بعيد عن ملاعب عزّه وشبابه، فضلا عن أنه لم يحقق مطامحه بعد.

بينما أصبح الموت شبحا يطارد البارودي أراد التخلّص منه وبأية صورة كانت، حتى ولو كلّفه الاعتذار للحكومة وتقديم المديح لها. إذ أن عدم تمكنه من إرضاء ذاته وجهه لترقب لحظة اللقاء بأهله وبلده وبأي ثمن كان.

ووفقا لهذا فان أبا فراس لم يسلك إلاّ سبيلا واحدا لطلب الفداء هو ابن عمّه سيف الدولة الحمداني، بينما تعددت المنافذ التي طرقها البارودي من أجل خلاصه. ويبدو أن ذلك يعود إلى أنّ المتحكّم في أمر الحمداني واحد.

في حين أنّ الحكومة والإنجليز هما المتحكّمان في قضية البارودي، واللذان كانا هما صاحبي القرار في نفيه، ومن هنا فقد تعددت السبل التي اتخذها الشاعر لاستعطافها حتى وصل به الحال إلى مدح رأس السلطة المصرية آنذاك، بعد ما تأزمت به الحال وطال فراقه، وهذا بحد ذاته دليل حالة من حالات اليأس التي أفضى إليها الشاعر.

بينما اقتصر أبو فراس على طلب النجدة من سيف الدولة بطريقة اختلط فيها التوسل والكبرياء، والعتاب والشكوى، على الرغم من الوهن الذي أصابه لا سيما في أيام أسره

الأخيرة، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على حقيقة ما طفح من ذاته في كبريائها وضعفها، وذلك أمر تشترك فيه البشرية جمعاء.

ويبدو أن الإحساس الشمولي لمعنى الحياة دفع أبا فراس للتمسك بها، فكان السبب في إلحاحه لفكاك أسره أكثر من عاطفته تجاه أهله ومحبيه، على الرغم من انه يعد من أبرز شعراء العاطفة عند العرب.

واعتقد أن لتنامي روح الدفاع عن المكانة الاجتماعية التي قد لا تعوّض كان سببا آخر في إلحاحه، فأحسّ أن هناك شوطا لا بدّ له من قطعه، فشخصيته غنية بالحيوية والأمل والطموح واستسهال الصعاب، حتى الموت فكانت تلك فيه، تدفقت حيوية فيّاضة في وجوه حياته العامة[1] وهذا ما اتضح بعد فكاك أسر الشاعر وموت سيف الدولة، إذ أملت عليه نفسه ضرورة المحافظة على مملكة الحمدانيين بعد سيطرة قرغويه التركي عليها.

إنّ شعر أبي فراس - بشكل عام - يكشف لنا عن رجل يسعى فلا توجد لديه منطقة وسطى بين الحياة والموت فإما الحياة التي يطمح إليها أو الموت دون ذلك، وهذا ما أدى به إلى أن يموت بين أهله وذويه غدراً.

أما محمود سامي البارودي فان الطرق التي سلكها لاستعطاف الآخرين تدلّنا_ وبشكل واضح - على اختلاف المبررات التي قدّمها لأجل إنهاء نفيه، فمرة يستنكر للثورة وقادتها حينما يراد منه الاستنكار أمام أعدائها، وأخرى يجد أنها قامت لأجل الحق والدين حينما يفشل مبتغاه الأول، وثالثة يلجأ إلى مدح الحكومة، ومن بأيديهم أمره.

وكلّ هذا يدلّ على عجز الشاعر من تبيين طرق الحرية بعد النفي مما جعل اليأس يخيم بظلاله عليه لا سيما بعد أن طالت سني الاغتراب، فماتت مطامحه في داخله، مما أدّى به إلى التشبّث ببقية حياته، كي يعيشها بهدوء علّها تعيد إليه شيئا من ذكريات القصر، وهو يصرّح بذلك فيقول[2]:

أبعد ستين لي حاج فاطلبها؟	هيهات ما لامرئ بعد الصبا حاج
لا أحفل الطير إن غنّت وان نعيت	سيان عندي صفار وشحّاج

---

١ - ينظر: أبو فراس الحمداني: ٢٥؛ وأعيان الشيعة: ١٨/١٤٠، ودراسات في الأدب العربي: ٢٠١، وشرح شافية أبي فراس في مناقب آل الرسول ومثالب بني العباس: ١٤

٢ - الديوان: ١/٨٧

المبحث الثاني

صورة الذات بين الشكوى والاستعانة وبين العتاب والصبر

شعر الأسر تعبير عن تجربة الم تعانيها النفس الأسيرة المعذّبة إذ ينفث الإنسان الحري ، الزفرات التي تقضّ المضاجع ، تنبع من أتون يصطلي بحّر جحيمها الأسير، فتتلاشى عنده الآمال، وتضيق الأرض بما رحبت في عينيه ،فينقلب ماضيه السعيد والأيام الجميلات الى أشواك تدميه ، وتحيل ألوان الحياة الى سواد قاتم ، فتدور به الارض ، وتقتحم رواءه حجب، من القتامة يضحي مكبّلا ذليلا بعد ما كانت صولاته وجولاته تشهد لها الأعين، وأصبح سيفه لايترك أثرا في حومة الوغى وسوح القتال ،أذ يستبدل العزّ بالذلّ والحرّية بالعبودية ، والحياة بالموت الزؤام .ولذا فلا بدّ له أن يظهر شكواه وألمه مما هو فيه ، وهذا الأمر يشترك فيه الجميع مهما اختلفوا في قابلياتهم على التجلّد والصبر ، لأن النفس الأنسانية واحدة ، لذا فأن جميع الأسرى والسجناء أظهروا شكايتهم من القيد والحبس ،ومايتركه من آلام لا تخفى على أحد .وأبو فراس واحد من هؤلاء الذين لم يتمكنّوا من إخفاء ماحلّ بهم بسبب نار الغربة المستعرة في قلبه أثر أسر مرير في بلاد الروم على الرغم من امتلاكه قدرا كبيرا من المجالدة والصبر فيقول وهو يشكو ألم السجن والقيد[1].

مصابي جليل والعزاء جميل	وظنّي بأنّ الله سوف يزيل
جراح تماماها الأساة مخافة	وسقمان باد منهما ودخيل
وأسر أقاسية وليل نجومه	أرى كلّ شيء غيرهنّ يزول
تطول بي الساعات وهي قصيرة	وفي كلّ دهر لايسرّك طول
تناساني الأصحاب إلا عصيبة	ستلحق بالأخرى غدا وتزول
وإنّ وراء الستر أمّا بكاؤها	عليّ وإن طال الزمان طويل

---

١ ـ الديوان: ١٨٢ ـ ١٨٣.

والشاعر يصوّر سوء حاله في الأسر، واستشراء جروحه ، وتنكّر أخوانه له، وجزع والدته عليه لما أصابه ، وتفجّعها لفراقه.

وهو يتألّم هناك لبغض المبغضين من أهله وابناء عمومته، فيزداد عليه الهم، وتختنق روحه فينفّس عنها بتلك الأنّات الشعرية التي يخرجها من ذلك المحبس ملبسا إيّاها لباس الكبرياء ، بعد أن وطّنها على الصبر وعدم اليأس إذ يقول[1]:

لمن جاهد الحسّاد أجر المجاهد ... وأعجز ماحاولت إرضاء حاسدي

ولم أر مثلي اليوم أكثر الناس حاسدا ... كأن قلوب الناس لي قلب واحد

واصبر ما لم يجلب الصبر ذلّه ... وألبس للمذموم حلّة حامد

قليل اعتذار من يبيت ذنوبه ... طلاب المعالي واكتساب المحامد

غفلت عن الحسّاد من غير غفلة ... وبتّ طويل النوم من غير راقد

صبرت على اللأواء صبر ابن حرّة ... كثير العدى فيها قليل المساعد

الم ير هذا الدهر قبلي فاضلا ... ولم يظفر الحساد قبلي بماجد

ارى الغل من تحت النفاق واجتني ... من العسل الماذي بسم الأساود

وهل غض مني الأسر إذ خفّ ناصر ... وقلّ على تلك الأمور مساعدي

الا لا يسرّ الشامتون فإنها ... موارد آبائي الألى وموارد

وهنا أفصح الشاعر عن تألّمه من حسد الحاسدين وبغضهم .والصبر عليه ومجاهدة النفس، وكبت العصبيّة جهاد كبير، لاسيّما أنه تعوّد الصبر على الشدائد صبر ابن امرأة ذكيّة أبية ذا محتد .

إنّ فخر الشاعر بصبره هذا لم يكن أداة لغلق باب الشكوى ، فقد حاول بثّها لمن وجد فيهم صدرا رحبا لاستيعابها و مشاركته في التخفيف من شدتها.

لقد تعددت اتجاهات الشكوى عند أبي فراس فتارة يتوجّه بها الى سيف الدولة وأخرى لإمّه في منبج وثالثة إلى غلمانه وإخوته ومحبّيه .

---

١ ـ الديوان: ٦٨.

أن الجراح غلّفت قلبه، إلى حد الذي أخرج أناته لمن وجد فيهم عونا له لدمل تلك الجراح فلم يترك منفذا للشكوى الاّ وسلكه حتّى غلامه منصور ، إذ أرسل إليه تلك الشواظ الملتهبه علّه يجد في ذلك تخفيفا للمصاب فهو يقول[1]

قــــل لمـــــن حـــــلّ بالـــــشام طليقـــــا ... بـــــأبي قلبـــــك الطليـــــق الأســـــير

انـــــا اصـــــبحت لا أطيـــــق حراكـــــا ... كيـــف أصـــبحت أنـــت يـــا منـــصور

فالشاعر عبّر عن جميع همومه بلفظة (لا أطيق حراكا) وبثّه لأهله وذويه آملا منه في أن يعرفوا مقدار البلوى التي يعانيها، والآم الأشواق التي تعتلج صدره ٠

وفي الفراق تبرز الأخوّة شاخصة أمام عيني الشاعر لتكون الملاذ الآمن الذي يلجأ اليه ليفرغ ما في ذاته من كرب وهموم الى من صفت معه تلك الأخوة آملا في ان تصبح وسيلة للضغط على سيف الدولة .فكانت صورة دقيقة لحاله وما يعانيه من مرارة ولواعج ملتهبه إذ أنّ ((في شعر أبي فراس الحمداني صورة نادرة في الشعر العربي قلّ أن نجدها في شعر الشعراء العرب ،فنشّم صدق المشاعر وصفاء العواطف[2])) فهو يقول وقد كتب لأخيه أبي الهيجاء سعيد بن حمدان من أسره[3]:

تفـــــرّ دمـــــوعي بـــــشوقي إليـــــك ... ويـــشهد قلـــبي بطـــول الكـــرب

وإنّـــــي لمجتهـــــد في الجحـــــود ... ولكـــنّ نفـــسي تـــأبى الكـــذب

وانّـــــي عليـــــك لجـــــاري الـــــدموع ... وانّـــي عليـــك لـــصّب وصـــب

لقد عبّر الشاعر بحرارة عن شدّة شوقه لأخيه اذ بلغ بهذه الأبيات الذروة في المعاناة والحزن والألم فهي صورة صميمية لعذابه ولوعته إذ أنه ومهما حاول التمويه على مشاعره لكنها ظاهرة فدموعه دائمة الجريان وهو كلف هائم دائم على هذه الحال .

ونلحظ ممّا تقدّم أنّ الشكوى من الغربة الاجتماعية عند أبي فراس التي بثّها لكل الحمدانيين استحوذت على الحيّز الأكبر قياسيا بشكواه المكانية ٠

---

١ ـ الديوان: ١٣٠.

٢ ـ الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني: ١٧٧ ـ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ـ كلية التربية/ جامعة بغداد ـ ١٩٩٧.

٣ ـ الديوان: ١٤٣.

أما البارودي فعلى الرغم من نظرته البائسة للحبس التي تنمّ عن قلب متفجّع حرم الحرية وبهجة الحياة ألاّ أنّ الشكوى من مكان نفيه كانت أكثر من تألّمه بسبب الاغتراب الاجتماعي الذي تفاقم بعد صدور حكم النفي عليه ، وهذا مايفسّر لنا عدم توجّه الشاعر بالشكوى لشخص بعينه من ابناء قومه ٠ فلقد كانت الشكوى عنده عبارة عن هموم ولواعج بثّها تفريجا لنفسه وترويحا لها ٠

لقد عانى الشعراء المساجين من مكان حبسهم معاناة كبيرة نستشفها من محاولتهم الابتعاد عن ذكره حتّى في مخيلتهم إذ أنّ (أغلبهم ممّن وظّفوا المكان بصورته الحسّية لم يتمكّنوا من إعطاء صورة واضحة عن طبيعته بل كان توظيفهم له لايتعدّى كونه وضعا عابرا غير ذي قيمة موضوعية كبرى وربما يكمن السبب في محاولة الشعراء الهروب من أجوائه والاستعاضة عنه بمكانهم القديم الذي كان مثالا لكل أنواع الحنين والرغبة العارمة لذكره في كل مناسبة كونه الراسخ في ذاكرة الشاعر والذي حفّزت غربة المكان الجديد على استذكاره)[1] ولكنّ البارودي على العكس من ذلك فقد حاول إعطاء صورة لمكان حبسه تحوي دقّة وتفصيلا ، إذ وضع في طيّاتها الغربة والوحشة والألم الذي كان يعانيه ، واهتمامه هذا بمكانه الجديد يأتي نتيجة استشعاره الفرقَ الكبير بينه وبين المكان القديم الذي عاش فيه.إذ أنّ لحياة الترف والغنى المادي وعيش الرخاء أثراً في ذلك فهو لم يتعوّد بعد حياة البؤس والمعاناة ، ومن هنا جاء حرصه الشديد على نقل صورة أكثر تجسيما لمكان الحبس إذ يقول[2]

بين حيطان وباب موصد	كلّما حرّكه السجّان صَرّْ
يتمشّى دونه حتّى إذا	لحقته نبأة منّي استقر
كلّما درت لأقضي حاجة	قالت الظلمة مهلا لاتدر
أتقرّى الشيء أبغيه فلا	أجد الشيء ولا نفسي تقر
ظلمة ما أن بها من كوكب	غير أنفاس ترامى بالشرر

فعلى الرغم من التقرير ية الطاغية على هذه الأبيات إلا أنّ الشاعر استطاع أن يضع أمام أعيننا

---

١ ـ شعر الأسرى العراقيين الحديث/ دراسة موضوعية فنية: ٣٢/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ـ كلية الآداب / جامعة القادسية ـ ٢٠٠١.

٢ ـ الديوان ٢/ ٨٦ ـ ٨٧.

لوحة حسيّة تحكي مرارة نفسه وهو يقبع في ذلك المكان البائس ، إذ استشف منه المعاناة الأنسانية والوجد الذي يقطّع القلب حتّى أنّ تلك الأبيات اتخذت مثالا للاضطهاد الإنساني .

ويبدو أنّ هذه الالآم كانت نتيجة للغربة المكانية .التي قطعت عليه كلّ أسباب الوصول مع أهله ومحبّيه إذ يقول[1]

لا انــــيس يــــسمع الــــشكوى ولا　　　خــبر يــــاتي ولا طيــــف يمــــر

إن بعد الدار ووحشتها ، وما ولدّته تلك الوحشة من غربة نفسية كل ذلك حفّز الشاعر على أن يكشف عن آلامه وضعفه وأن يبتدأ قصيدته بقوله[2]:

شــــفّني وجــــدي وأبلانــــي الــــسهر　　　وتغــــشتني سمــــادير الكــــدر

لقد لذع الحزن قلبه ، وهدّه الألم ، إذ لم يترك مفصلا فيه إلا ادخله حتّى أصبح هزيلا نحيلا لا يقوى على شيء ، وكأنّ الظلام أطبق عليه من كلّ جانب ، فتبددت كل شعاعات الأمل عنده بالعودة ۰

لقد باح شعراء السجون بهمومهم والآمهم في الأيام القاسية لاسيما في ظلام الليل ، فالسكينة تسمح للذات الداخلية بأن تستيقظ، ولكوامن المشاعر أن تبرز ، فيبيت السجين تحت هجمتين من عذاب الجسد وأحزان القلب معا ،ويقضي ليله في هذا اللبوس النفسي ولذا فقد كان ((الليل أشدّ معاناة وعذابا على السجين من النهار ، فالسجن والعذاب والليل كلها الآم))[3] من هنا انبعثت شكوى أبي فراس وتألمه من ذلك الليل الطويل إذ يقول[4]

وأســـــر أقاســـــيه وليـــــل نجومـــــه　　　أرى كـــلّ شـــيء غيرهـــن يـــزول

تطـــول بـــي الـــساعات وهـــي قـــصيرة　　　وفي كـــل دهـــر لايـــسرّك طـــول

إن هذا الليل الذي يزول كل شيء إلا نجومه هو ليل متطاول لا يريد أن ينتهي ،فعلى الرغم من أنّ عبارة ((نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول)). عبارة مقصود بها معناها المباشر، ولكنّ الشاعر استدرجنا من هذا المستوى الأول للدلالة إلى مستوى آخر أكثر خفاء وهو طول هذا الليل، الذي لا يريد ولا تريد نجومه أن تزول ويقودنا هذا المستوى الثاني بدوره إلى مستوى ثالث، وهو

---

١ ـ الديوان ٢ / ٨٦ .

٢ ـ المصدر نفسه: ٢ / ٨٦.

٣ ـ السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي :٢٠٩

٤ ـ الديوان :١٨٢

حزن الشاعر، وأرقه وضجره .فالنجوم حينما تستقر في كبد السماء لا يرى لها تحوّلا فيظلّ يرعاها ،إذ لايجد النوم الى عينيه سبيلا ، لأنّ الأسر وذلّه والقيد الذي في قدميه، وذكريات الأحبّة تأبى عليه أن ينام فيتذكّر أمه حين يهزّه الشوق إليها فيقول على لسانها[1].

يـــا مـــن رأى لـــي بحـــصن خرشـــنة   أســـد شـــرى في القيـــود أرجلـــها

يـــا مـــن رأى لـــي الـــدروب شـــامخة   دون لقـــاء الحبيـــب أطولهـــا

يـــا مـــن رأى لـــي القيـــود موثقـــة   علـــى حبيـــب الفـــؤاد أثقلـــها

إن الشعراء الذين عايشوا تجربة السجن والأسر كانوا يعايشون أحزانهم، وأفراحهم ، وما كان ينتابهم من عذاب نفسي لاسيما في الليل ، فيجلس الشاعر إلى ذاته، وقد استيقظت في داخله جميع أحاسيسه ومشاعره، وما يقاسيه من عذاب وألم، وكأنّه كان في غفلة من ذلك وكأنّ تلك الهموم والآلام دخلت عليه فجأة فيبدأ صراعه مع نفسه وصراعه مع جسده،ويطول الليل، ويتعذّر عليه النوم ويترقّب طلوع الفجر فهو يريد الخلاص من تلك الهواجس ومن تلك الهموم التي احتشدت عليه والظلام يزيد من غمّه ، والنوم يفرّج عن همه[2] ولذا فإن أبا فراس ظلّ في أسره –يرعى النجوم السائرات حتّى أفولهن علّه يجد له تنفيسا بانبلاج ذلك الصباح إذ يقول[3].

هـــل تعطفـــان علـــى العليـــل   لا بالأســـيرو لا القتيـــل

باتـــت تقلّبـــه الأكـــــــ   ـــفّ ســـحابة الليـــل الطويـــل

يرعـــى النجـــوم الســـائرا   ت مـــن الطلـــوع الى الأفـــول

ويريد الشاعر أن يثبت لنا- دوما – أنه لا يريد الفداء لأجل الحياة ،وإنّما لأنّه بات يعيش الاما أخرى مضافة إلى الآم القيد (إذ أنّ التعبير عن الذات وتوكيدها هو الذي يدفعه للتعبير عنها والإفصاح عن شخصيته بأنّه مازال يمتلك الإمكانات وأنه يبدي ما لديه منة أراء)[4] ولذا يطالعنا مباشرة بالأبيات التي تفصح عن سبب رعايته النجوم وانتظاره تلك الصباحات فيقول[5]:

---

١ ـ المصدر نفسه: ١٧٨ ـ ١٧٩.

٢ ـ ينظر:السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي:٢١١.

٣ ـ الديوان: ٢ ـ ١٩٣.

٤ ـ أصول علم النفس: ٩٦.

٥ ـ الديوان: ٢٨ ـ ٢٩.

فقـــد الـــضيوف مكانـــه وبكـــاه ابنـــاء الـــسبيل

واستوحـــشت لفراقـــه يـــوم الـــوغى سـرب الخيـــول

وتعطلـــت سمـــر الرمـــا ح واغمـــدت بـــيض النـــصول

وهنا نلمح آثار الغربة النفسية عليه فهي تظهر حينما يجدّد الإنسان من ممارسته الصفات التي يتّسم بها[1] فكرمه مفقود ، وعطاياه معّطلة ، ومعاركه متوقّفة . كل ذلك ولّد عنده معاناة فاقت معاناه أسره نفسه .إذ شكلّت عنده هاجسا ظلّ يردده طوال أسره وهذا –كما يبدو– يعود لغلبة سمة الفروسية والحرب عند الشاعر على باقي سماته فهو يقول[2] :

ستـــذكر أيـــامي نمـــير وعامـــل وكعـــب علـــى علاتهـــا وكـــلاب

أنـــا الجـــار لازادي بطـــيء علـــيهم ولا دون مـــالي للحـــوادث بـــاب

مما سبق نخلص إلى أنّ ليل الشاعر طويل بسبب الحزن الذي غلّف حياته ، فقد أهاجت الذكريات كلّ مواجعه حتّى صار يرقب الصباحات علّها تخلّصه من تلك الهواجس أو تأتيه بخبر سار هذا فضلا عن أنّ الأسر كان السبب الرئيس في منعه عن ممارسة ما هو من صفات ذاته .

ولم يكن البارودي بمنأى عن الليل ، إذ يقبع السجين في زاوية من الحبس يقلّب الأغلال التي تثقل كاهله فيقضي ليله أرقا مسهدا لا وليف له ولا أنيس فتتدافع فيه الانفعالات النفسيّة والعاطفية، ويخترق خياله جدران السجن السميكة ، وأبوابه الموصدة إلى مراتع صباه،إلى الأهل والأحبة، إلى ذلك العالم الغني بالذكريات القادر على أثارة العواطف [3] .

إن وحشة الليل أضافت وحشة أخرى لأسره ، فالليل يجعل الشاعر يعيش صراعاته مع نفسه من دون رقيب ، وهناك تكون المحاسبة بينهما حينما تشخص الذكريات الجميلة والأيام الماضية أمام عينيه ، فيأخذ الندم منه مأخذا كبيرا ((فالشعراء الذين عايشوا تجربة السجن والأسر ،كانوا يعايشون أحزانهم ، وما كان ينتابهم من عذاب نفسي ، وبخاصة في أثناء الليل حيث لا جليس و لا سمير ، ولا ضوضاء ولا حركة فيجلس الشاعر الى ذاته،وتستيقظ في داخله

---

١ - ينظر الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام: ٧٧/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة. كلية الآداب / الجامعة المستنصرية / ١٩٨٨.

٢ - الديوان : ٢٩

٣ - انظر: السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي:٢٠٩.

جميع أحاسيسه ومشاعره ،وما يقاسيه من عذاب وألم ،فيبدأ صراعه مع نفسه و يطول الأرق ويتعذر عليه النوم ،فيترقّب طلوع الفجر للخلاص من تلك الهواجس))[1]والبارودي واحد من هؤلاء الذين أرّقهم ليل الاغتراب ،وأقضّ مضاجع نومهم .ولذا نراه يقول[2]:

فسواد الليل ما أن ينقضي   وبياض الصبح ما أن ينتظر

ظلمة ما أن بها من كوكب   غير أنفاس ترامى بالشرر

فهو يفصح عن معاناته الليلية ، حتّى كأنه سأم طول ذلك الليل،فأخذ يترقّب صباحه آملا في إنهاء تلك المعاناة وذلك الحزن الطويل ولكن صباحه لم يأت بما يبشّ الوجه ،فيأخذ بالعودة الى ذاته ليهّدأ من روعها حاثّا أيّاها بلزوم الصبر ،كونه مفتاحاً لشدته إذ يقول[3]:

فاصبري يا نفس حتى تظفري   إن حسن الصبر مفتاح الظفر

ولّما وجد نفسه قد سأمت طول الصبر ،حاول الشاعر أن يظهر أمامها بمظهر الحكيم الذي خبر الحياة ،فوجد أن الناس- وان اختلفت أماكنهم- فهم أسرى للقدر فهو يقول[4]

هي أنفاس تقّضي والفتى   حيثما كان أسير للقدر

ويظلّ البارودي يكثر من الحديث عن لياليه في سرنديب، وبروقها، ونجومها، الحائرة، معبّرا عن وحشته هناك .وكأنّما أيّامه نفسها تحولت الى ليال داجية ،ودياجير غربة مظلمة[5] وكل ذلك كان طافحا من ذاته ،وأنّات قلبه إذ يقول[6]:

أبيت أرعى النجم في سدفة   ظلّ بها الصبح فلم يطلع

لا اهتدي فيها إلى حيلة   تقي حياتي من يدي مصرعي

طورا أداري لوعتي بالمنى   وتارة يغلبني مدمعي

---

١ ـ المصدر نفسه: ٢١١.

٢ ـ الديوان: ٢ / ٨٦.

٣ ـ المصدر نفسه: ٢/ ٨٧.

٤ ـ المصدر نفسه: ٢/ ٨٧.

٥ ـ ينظر: البارودي رائد الشعر الحديث: ١٩٤.

٦ ـ الديوان: ٢ / ١٩٤.

فهل الى الأشواق من غاية أم هل إلى الأوطان من مرجع

لا تأس يا قلب على ما مضى لابدّ للمحنة من مقطع

وتترّاى لنا – من خلال هذه الأبيات – الحيرة الشديدة التي يعانيها الشاعر في منفاه، فبين يأس خيّم بظلاله عليه إلى حذر من موت محدق به ، وبين وجد يقطّع قلبه، إلى بكاء ، يمنعه الكبرياء كل ذلك ولّد في قلبه اللوعة والعذاب لاسيما أنه ((كان بطبعه محبّا للحرية، متمرّدا على الظلم... ولعل للوراثة والنشأة التي نشأها أثرا في هذا))[1] .

لقد اتخذ الشاعر ظلمة الليل مرآة ،حاول توظيفها لرؤية أهله وذويه فلا شيء يعكّر صفو خياله ،ليعيد في ذاكرته تلك الليالي التي قضاها ينعم بالعزّ والطمأنينة ، لكنّ سرعان ما يعود ليصطدم بواقعه، إذ لا أحد يؤنسه ،و لا خلاً يشكو إليه آلامه ،فقد القت الوحدة بضلالها عليه وفرضت طوقا من الاغتراب على نفسه لذا نجدها أخذت حيّزا كبيرا من شعر الشكوى الذي نظمه في سرنديب إذ يقول[2] :

أبيت عليلا في سرنديب ساهرا أعالج ما ألقاه من لوعتي وحدي

أدور بعيني لا أرى وجه صاحب يريع لصوتي أو يرقّ لما أبدي

وممّا شجاني بارق طار موهنا كما طار منبّث الشرار من الزند

يمّزق أستار الدجنّة ضوءه فينسلها ما بين غور إلى نجد

أرقت له والشهب حيرى كليلة من السير والآفاق حالكة البرد

فبت كأنّي بين أنياب حيّة من الرقط أو في برثني أسد ورد

أقلّب طرفي والنجوم كأنّها قتير من الياقوت ينمع في سرد

إنّه وحيد أهاج شجونه لمعان برق من جهة وطنه فحّرك لوعته ، وأيقظ وجده وجعله أرقا، فكأنّما يبيت على أشواك أو في أظفار أسد ،أو بين أنياب حيّة .

فعلى الرغم من أنّ ذكرى الأهل والأحبة ،تكون شاخصة ليلا ،الا أنّ تكرارها من دون أن

---

١ . في الأدب الحديث: ١٨٠.

٢ . الديوان: ١/١٧٣ . ١٧٤.

يأتي صباح بعدها يحمل البشرى ، جعل الشاعر يسأم ذلك الليل فتحوّل إلى حاجز نفسي كأنّما يحول بينه وبين وطنه ومحبيه ، لذا بدأت صيحاته تتعالى للتخلّص منه إذ يقول[1] :

ما أطول الليل على الساهر أما لهذا الليل من آخر

ويبدو أن ليل سرنديب هنا قد تساوى بنهارها ، ولذا لجأ الشاعر إلى هذه الصرخة المدّوية ، ليبثّ من خلالها آلامه وحسراته فقد((كثرت صرخات الضجر و الانهيار، عند الشعراء المساجين نظرا للواقع المرير الذي كانوا يعيشون فيه ، فلم تكن تلك الصرخات إلاّ انعكاسا للأوضاع التعيسة التي كانوا يعانونها)) [2] ولذا فانّه لا يشكو الليل بل الحبس برّمته ، طوله ، وعذابه ، وغربته وذلّه.

مما تقدّم يتبيّن انّ ليل البارودي – في المنفى – كان طويلا كليل أبي فراس في أسره ، بسبب ما أهاجت لهما الذكريات من أحزان وهموم .

إلاّ أنّ الذكريات التي كانت تشخص لأبي فراس غيرها التي تشخص للبارودي فذكريات الأول وأشواقه كانت تحوم حول حياته الماضية من حرب وفروسيّة ورغبة في ممارسة صفات ذاته كالكرم والجود وغيرها .إذ ينتابه الهم والغم لانقطاعه عن ذلك المجال .

في حين أنّ ذكريات البارودي وعلى الرغم من كونها اتت من حياته إلا انّها أغفلت الجزء المهم من تلك الحياة المتمثّلة بالحرب والفروسية ، والتفاني في طلب العلى واقتصرت على حياة الشاعر في القصر الملكي ، التي تمثّل حياة الراحة والاطمئنان بعيدا عن كل ما يعكر صفوها وهذا يعني الرغبة العارمة التي تنتاب الشاعر بالعودة لتلك الحياة ، بعد أن نبذ كل شيء سواها ومرجع ذلك أنّ طموحاته ماتت بداخله فأماتت كلّ الروافد اللازمة لها ، إلاّ ما يخصّ محاولة النأي بها عن مكان أسره البائس.

أن الذل المتولد نتيجة الحبس قد أثقل كاهل الشاعرين ، فحاولا النأي بنفسيهما عنه ، والتصدي له بكل الوسائل المتاحة.

لقد بدأ أبو فراس في أسره يعاني شكوى مركّبة ، أي أنه يشكو مصيبة أو همّا كان سببه الأسر.

فلشاعر عانى صراعا داخليا بسبب إلحاحه بطلب الفداء ، إذ أنّ هناك قوتان تتجاذبانه فالأثر الألم في نفسه حينما ترأى له أنّ كل شيء قد تنّكر له ، و كان في خلقه شيء من الضعف

---

١ ـ الديوان: ٢ / ١٩٠.

٢ ـ السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي / ٢٠٤.

بسبب قوة عاطفته ، فجعله ذلك قليل الجلد ، وكان هذا الشعور في صراع مع شعور آخر بعثه في نفسه كرم المحتد إذ يقول[1] :

و مـــا أنـــا إلا بــين أمــر وضّــده ... يجــدد لــي في كــل يــوم مجــدد

فمــن حــسن صــبر بالــسلامة واعــد ... ومــن ريــب دهــر بــالردى متوعّــد

وهنا يطفح القلق من داخل أعماقه ، فبين لزوم للصبر وتحّمل للشدائد ، و بين مصير مجهول، عنانه بيد دهر مكشّر عن أنيابه أحاط زنزانته بشبح الموت المفترس . وقد تمثّل ذلك في محاولته التوفيق في قصائده بين البؤس الذي يعانيه؛ والإلحاح بطلب الفدية (غير متخيل في الآن ذاته عن عصبه الملحمي الذي يذكّرنا أحيانا بالمتنبي)[2] إذ يقول في إحدى قصائده[3]:

دعوتــك للجفــن القــريح المــسهّد ... لــدي وللنــوم القليــل المــشدّد

ومــا ذاك بخــلا بالحيــاة وإنهــا ... لأول مبــذول لأول مجتــدي

ولكــنّني أختــار مــوت بــني أبــي ... علــى ســروات الخيــل غــير موسّــد

لقد استهل الشاعر قصيدته بالاستعطاف والشكوى وانثنى من ذلك الى الفخر بأجداده، ثم تعصف به حميّة الإباء والفروسيّة والاجداد فيتحوّل عن الاستعطاف ،ويتظاهر بقيمته أمام ابن عمّه فيقول[4] :

فــإن تفتقــدوني تفتقــدوا شــرف العــلا ... وأســرع عــوّاد إلــيهم معــوّد

وإن تفتقــدوني تفتقــدوا لعلاكــم ... فتــى غــير مــردود اللّسان و لا اليــد

يطــاعن عــن أحــسابكم بلــسانه ... ويــضرب عــنكم بالحــسام المهنّــد

فالشاعر ما برح يفتخر بنفسه لكننا نشعر ونستشف وراء فخره حشرجة القنوط لكثرة الجراح، وحومان اليأس حوله وهو يتألم لأدنى معاملة جافية، وينطلق أثر الذكريات فيضيق صدره ، وتغرورق عيناه بالدموع،كلّما تمثّل عيشه الماضي فيرسل زفراته قصائد يتمثّل فيها

---

١ ـ الديوان ٦٥.

٢ ـ الفنون الأدبية عند العرب: فن الفخر وتطوره في الأدب العربي: ١٤٢.

٣ ـ الديوان ٦٤.

٤ ـ المصدر نفسه: ٦٦.

الصراع الناشب بين عاطفتي القوة واللين إذ يقول[1]:

أناديك لا أني أخاف من الردى ولا ارتجي تأخير يوم الى غد

وآنف موت الذل في دار غربة بأيدي النصارى الجلف ميتت اكمد

ولتحسّره على أيّام العز و الشرف الماضية، فإنّ قلبه يلين و يدبّ فيه الضعف، لكنّه سرعان ما يستفيق ليجعل من التجلّد أمرا مفروضا على نفسه إذ يقول[2]:

نضوت على الأيام ثوب جلادتي و لكنّني لم انض ثوب التجلّد

لقد ظل أبو فراس مقيما على آبائه وسط الآمه ، وهمومه ، إذ أكره نفسه على الصبر والتحمّل حين أحسّ أنّ الضعف قد أخذ يقترب منه شيئا فشيئا وحينما ((لم يجد إلى كتم الألم سبيلا يتّخذ التغنّي بالألم ذريعة لتفريج الكربة)) [3] علّه بذلك يروّض ثورته النفسيّة التي كانت السبب الرئيس في معاناته إذا ما قيست بالأسر نفسه فعلى سبيل المثال أنّ أسره تسبب في أن تصير أموره بيد الروم ، وهذا ما سبّب له ألما ربّما أنساه – في أحايين كثيرة –ألم القيد والمحبس فهو يقول[4]:

إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكّم في آسادهن كلاب

فلم يتصوّر أبدا أن الأقدار ستضعه يوما بين أيدي أعدائه الذين اذلهم وأذاقهم مرّ الهزائم في عقر دارهم ، فضلا عن اختلافهم معه العقيدة التي وظّف شطرا كبيرا من حياته للحفاظ عليها إذ أنّ ((الإنسان قادر على أن يحيا و يموت من أجل مثله و قيمه وطموحاته)) [5]وهذا ما حرص عليه الشاعر في أسره فتسبّب في معاناته .

إنّ طلب الفدية والإلحاح بها ، وتأسّفه من تحكّم الروم به كلّها أمور جعلت الشاعر يتحسّس الذلّ في غربته ويشكوه .محاولا في الوقت ذاته أن يظهر كبريائه ويتفاخر بنفسه علّه يزيح عن ذاته بعض ذلك الإحساس .

---

١ ـ الديوان: ٦٥.

٢ ـ المصدر نفسه: ٦٥.

٣ ـ الجامع في تاريخ الأدب العربي ـ الأدب القديم: ٨٢٣.

٤ ـ الديوان: ٢٨.

٥ ـ الإنسان يبحث عن المعنى/ مقدمة في العلاج بالمعنى: ١٣٠.

و لم يكن البارودي أقلّ تصميما في التصدّي للذلّ والهوان في منفاه أذ حاول أن يصمد بوجهه ولو إلى حين، وأن يظهر بمظهر اللا مبالي فهو يقول[1]:

كلّ صعب سوى المذلّة سهل ... وحياة الكريم في الضيم قتل

ليس يقوى المرء على الذلّ ما لم ... يك في صيغة اللوم دخل

أنا راض بترك مالي وأهلي ... فالعفاف الثراء والناس أهل

لقد حاول الشاعر أن ينأى بنفسه عن الذلّ و بأي ثمن كان لا سيما في بداية نفييه حينما أيقن أنّ النفي أصبح حالة واقعيّة مفروضة عليه فقد ((عادت الى البارودي نفسه بعد الضعف البشري الذي ألمّ بها حينا ، وتبرّأت من الشعور الطاريء الذي راودها تحت ضغوط المحنه واليأس))[2] ولذا حاول أن يبدي فخره بفقدانه كل شيء إلا كرامته .

إلا أنّ للدهر صولته التي أقضت مضاجع الشاعر، وهدّت كلّ قواه حتّى وصل به الحال لمدح عدوّه الخديوي عباس سنة ١٨٩٦ آملا بالإعفاء عنه ولكنّ عباسا صمّ أذيته فبلغ اليأس من نفس البارودي مبلغا كبيرا[3] .

وهنا يتجلّى لنا الفارق بين أبي فراس والبارودي، فعلى الرغم من أنّهما شكيا الذلّ، وحاولا أن يصمدا بوجهه إلا أنّ أبا فراس وإن تمكّن منه الضعف في أوقات معينه إلا أنّه لم يستسلم له مطلقا .أما البارودي فقد أستسلم له بقصد تخليص نفسه التي أصبحت لا تطيق الحبس ، و لأن رجاءاته في الحياة أصبحت ليست بذات قيمة، حتّى أن استسلامه
هذا أفضى به إلى تمنّي الموت كي يخلص من هذه الحياة إذ يقول[4]:

متى ينقضي عمر الحياة فتنقضي ... مآرب كانت علّة للمظالم

ومن هذا نستشف أن الشاعر أصبح في أقصى درجات اليأس .

وتظل الشكوى طافحة في روميات أبي فراس ، لتطلعنا على حاله ، وتنبئنا عن صورة ذاته في ذلك الأسر البغيض لتراكم بعضها على بعض ،فيأتي سوء حال والدته متوّجا تلك الشكوى . أذ

---

١ ـ الديوان شرح علي عبد المقصود: ٤٤٩.

٢ ـ محمود سامي البارودي/ علي الحديدي: ١٥١.

٣ ـ ينظر نفسية البارودي من خلال شعره: ٣٦٣/ مجلة آداب الرافدين/ ع٨/ ١٩٧٧/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

٤ ـ الديوان: ١/ ٢٠٦.

لا عجب أن يعمل موت الأم التي أحبّها وودّ الخلاص لأجلها الى جانب الأسر على شدّ أوتار عاطفته، فتتصاعد من فؤاده الكليم أنغام قلّ نظيرها عند شعراء العاطفة إذ يقول بعد أن ورد عليه نبأ وفاتها[1].

أيا أمّ الأسير سقاك غيث ... بكره منك ما لقي الأسير

أيا أمّ الأسير سقاك غيث ... تحيّر لايقيم ولا يسير

أيا أمّ الأسير سقاك غيث ... الى مَنْ بالفدا يأتي البشير

إذا ابنك سار في برّ وبحر ... فمن يدعو له أو يستجير

وقد ذقت الرزايا والمنايا ... ولا ولد لديك و لاعشير

وغاب حبيب قلبك عن مكان ... ملائكة السماء به حضور

أيا أمّا كم همّ طويل ... مضى منك لم يكن منه نصير

أيا أمّاه كم سرّ مصون ... بقلبك مات ليس له ظهور

أيا امّاه كم بشرى بقربي ... أتتك ودونها الأجل القصير

إلى من أشتكي ولمن أناجي ... أذا ضاقت بما فيها الصدور

إن هذه الهموم غلبت على نفسيته فظلّت تورق نومه وتطول به ساعات ليل مدلهم ،وهو معنّى عله يجد ما يفرّج به البلوى .

والشاعر بهذه الشكوى والألم يفصح عمّا بداخله من قوة العاطفة التي تربطه بأهله ووطنه ولا سيّما أمه .إذ أن بكائه لفقدها و ما تولّد في قلبه من ألم وحسرة ينبئنا بأنّ مصيبة امّه طغت على مصيبته حتّى أنسته ما به من سوء حال .فقد وظّف القصيدة كلّها لإظهار اللوعة التي ألمت به نتيجة فقدان امّه فلم يخلط بين حزنه على نفسه و حزنه عليها .على العكس من البارودي الذي حاول أن يستثمر كل مناسبة ليبثّ من خلالها آلامه وهمومه وتفاقم جروحه .

فحينما يأتي خبر وفاة زوجته الشابة يحزن عليها حزنا كبيرا حتّى يهده الألم ومع كل ذلك هو لا ينسى أن يبعث بشرره على رفاق الثورة ،وعلى الذين خذلوه فكانوا سببا في محنته إذ

---

١ ـ الديوان: ٨٨.

يقول[1] :

سر يا نسيم فبلّغ القبر الذي	بحمى الإمام تحيّتي ووادي
أخبره أنّي بعده في معشر	يستجلبون صلاحهم بفسادي
طبعوا على حسد فأنت تراهم	مرضى القلوب أصحة الأجساد

لقد خيّم الأسى على قلبه إذ كانت فاجعة كبيرة ، قصمت ظهره لا سيّما بعد بقاء صغاره في مصر لا معيل لهم من هنا أخذ ينظر إلى منفاه على أنّه سبب المصائب التي لحقت به ، ولذا حاول أن يلقي بتبعة أامرو على الآخرين لكي لا يعود لنفسه فيؤنّبها فتقضي حسرة.

وحينما يصله نبأ وفاة أستاذه الشيخ المرصفي يأخذ برثائه متّخذا من واقعه البائس وعمره الذي بدأ يتلاشى وهو يرزخ تحت وطأة الظلام منطلقا لرثاء ذاته.

لقد اشتعل رأسه شيبا بعد أن فقد كل طموحاته ، ولذا أخذ ينظر إلى ذلك الشيب على أنّه رمز للنهاية. فبدأت تظهر عنده شكوى الشيب والكبر ، وهي شكوى بدأت مع بداية المنفى ، واستحلّت حيّزا كبيرا في شعره إذ يقول[2]:

أين أيّام لذّتي وشبابي ؟	أتراها تعود بعد الذهاب
ذاك عهد مضى وأبعد شيء	أن يردّ الزمان عهد التصابي
كيف لا أندب الشباب وقد أصـ	ـبحت كهلا في محنة واغتراب
أخلق الشباب جدّتي وكساني	خلقة منه رثّة الجلباب
ولوى شعر حاجبي على عيـ	ـني حتّى أطل كالهدّاب
لا أرى الشيء حين يسنح إلا	كخيال كأنني في ضباب
لم تدع صولة الحوادث منّي	غير أشلاء همّة في ثياب
أين منّي حسين بل أين عبد اللـ	ـه ربّ الكمال والآداب

---

١ ـ الديوان: ١٦٣/١ ـ ١٦٤.

٢ ـ المصدر نفسه: ١ /٤٠ ـ ٤٢.

لم أجـــد منهمـــا بـــديلا لنفـــسي غـــير حزنـــي عليهمـــا واكتئـــابي

إن القصيدة وعلى الرغم من كونها كتبت في رثاء أستاذه المرصفي إلا أنها كانت – في حقيقة الأمر – رثاء لذاته .

لقد شكّل الشيب وما يأتي بعده هاجسا مؤرقا لدى الشاعر ، ولذا افتتح قصيدته بالاستفهام عن أيّام شبابه ولذّته لا سيما بعد أن أبلى ذلك الشيب منه كل جديد ، وكساه ثوبا رثّا .حتّى أن أهدابه غطت عينيه فضعف بصره، ووهى جسمه.

إنّ الشاعر بهذا البكاء وهذا الحزن إنّما ((يبكي عمر ه الضائع ، فيرثي نفسه ،وهويرثي صاحبه، ويرسم هذا الطور من عمره بريشة فنان مبدع خلق من الألفاظ الوانا لريشته ، وأحال أحزانه إلى ظلال لصورته))[1] وهذا كله بكاء للنفس التي اخفقت في تحقيق آمالها وصارت أقرب الى الموت منه الى الحياة .

إن الألم والحسرة وما يترتب عليهما دفعا الشاعرين للبحث عن بدائل يمكنهما أن يلقيا بتبعة أمرهما عليهما علّ ذلك يهدّأ من روع نفسيهما ٠

إن القصيدة وعلى الرغم من كونها كتبت في رثاء أستاذه المرصفي إلا أنها كانت – في حقيقة الأمر – رثاء لذاته .

فلقد تمكنّ الحزن والضعف ـ في بعض الأحيان ـ من قلب أبي فراس ، إلا أنّ تذكرّه لعزّه ومجده فرض عليه نوعا من الصبر والتجلّد. والحقيقة أنّ أبا فراس كتب شعرا كثيرا في الأسر يخلو من أي مأخذ أخلاقي ((فلم يترك لأحزانه أن تأخذ أو تقتلع تقاليد الفروسية، ولا دعائم النبل الراسخة، في نفسه رغم مرارة الأسر وهوانه وعذابه))[2] ولذا تجد أنّه سلك طرقا مختلفة للتخفيف عن معاناته فتارة يلجأ إلى رحمة الله التي تسارع في إسعاف البائسين إذ يقول[3]:

يـــا فـــارج الكـــرب العظيـــــم وكاشـــف الخطـــب الجليـــل

كـــن يـــا قـــوي لـــذا الـــضعيـــف ويـــا عزيـــز لـــذا الـــذليل

إن إيمانه الحقيقي ، وثباته على مبادئ معينة جعلاه لا يتردد في إظهار ضعفه ، وذلّه لله عزّ

---

١ ـ محمود سامي البارودي / علي الحديدي ١٦٧.

٢ . الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس: ١٨٢/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية التربية/ ابن رشد/ جامعة بغداد /١٩٩٧.

٣ ـ الديوان: ١٩٤.

وجل.إذ لا وسيلة للنجاة إلاّ به.

ولم يكن لجوء الشاعر لبارئه طارئا أفضت إليه الشدّة التي هو فيها .وإنّما كان يلجأ إلى الله في كل أمر، وهذا واضح من خلال شعره السابق لأسره.

وتارة يلجأ إلى تبرير حاله، وإرضاء ذاته بأن يفزع إلى حسابات عامّة في نكبات الدهر، ومصائبه وفي سنّة العذاب التي ترهق كاهل كلّ إنسان ،وفي زوال الدنيا وحقيقة الحياة والموت[1] وهنا يقول[2]:

وهـل يـدفع الإنـسان مـا هـو واقـع	وهـل يعلم الإنسان مـا هـو كاسب ؟
وهـل لقـضاء الله في النـاس غالـب	وهـل مـن قضاء الله في النـاس هـارب

فعلى الرغم من ايمانه القوي بحتميّة الفناء، وأن قضاء الله في الخلق لا مردّ له نستشف أن وراء هذه الأبيات محاولة لإلقاء تبعة أمره على غيره .وغاية ذلك تهدئة النفس الثائرة التي ما برحت تطالب بالخلاص.

ولم يختلف البارودي عن نظيره أبي فراس في محاولته التخلّص من همومه وآلامه بالتوجّه إلى الله عز وجل لا سيما بعد أن فقد الأمل بالناس في السعي لإنهاء معاناته .إلا أنّ توجهه هذا كان تحوّلا جديدا في حياته لا يتناسب وما كان من اعتداد بنفسه قبل منفاه .وهذا يفصح عن الضيق الشديد الذي آلمّ به بعدما ألقى اليأس بظلاله على نفسه فلم يجد تفريجا لتلك النفس الاّ باللجوء لله وطلب عفوه ورحمته فهو يقول[3]:

عـسى إلهـي يفـكّ أسـري	فهـو فعـول لمـا يـودّ

ويقول[4] :

إذا المـرء لم يـركن الى الله في الـذي	يحـاذره مـن دهـره فهـو خاسـر
وإن هـو لم يـصبر علـى مـا أصـابه	فلـيس لـه في معـرض الحـقّ ناصـر

إن تزايد الشكوى لدى الشاعرين ،وتفاقم معاناتهم لا سيّما بعد طول سني الحبس بهما،

---

١. ينظر: الجامع في تأريخ الأدب العربي ـ الأدب القديم ـ ٨٢٣.

٢ ـ الديوان: ٣٨.

٣ ـ الديوان: ١ / ١٨١

٤ ـ المصدر نفسه٢: /٦٧.

دفعهما لطلب الاستغاثة ممن كان بيده أمرهما ، أو ممن يجدان فيه العون لإنهاء تلك الآلام التي يعيشانها.

والاستغاثة ضرب من المديح ينطوي على شيء من الاستعطاف يحاول الشاعر من خلاله التركيز على شيء من المثل العليا التي يراها أبناء كل عصر كالفروسية والرجولة، والكرم، وإغاثة الملهوف، وإجارة المستجير وغيرها[1] .

فأبو فراس استغاث بـ قومه من وجد فيهم الكفاءة لتقديم المساعدة والعون له ولذا فهو لم يستغيث إلا بأبن عمه إذ أنّ اختيار ابن العم كان نتيجة الإحساس بقيمته وتأثيره، ومكانته، وما يتمتع به من مسؤولية في السلم والحرب[2].

على أنّه لم يستغثه إلا بكلّ أنفة وكبرياء .إذ يعتقد أنّ فداءه يعود على سيف الدولة والحمدانيين قاطبة بالعزّ والفخر[3] ولذا نجده يقول[4] :

دعوتك للجفن القريح المسهّد ... لديّ وللنوم القليل المشرّد

فأن تفتدوني تفتدوا لعلاكم ... فتى غير مردود اللسان ولا اليد

فالشاعر وبعد أن الحت عليه نفسه الكسيرة بطلب الفداء شخص له ما بذاته من زهو وكبرياء بأيّامه الماضية فأخذ بتأكد حقيقته أنّ فداءه لا يعود بالخير لنفسه وحسب ، وأنّما أيمانا منه بما يستحقّه لقومه من مآثر تبقى على مدى الدهر وقد يكون الذي دفعه للمطالبة بالفداء هو خشيته أن يلقي أجله وهو في أسره . فإنّ الكثير من الشعراء تعرّضوا في سجنهم أو أسرهم إلى مواقف صعبة إلى حدّ أنهم يحاذرون الموت ، ويعيشون في هاجسه فيأخذون بالصراخ والاستغاثة حبّا للحياة ، وكراهيّة للموت ، وهذه طبيعة من الطبائع البشرية[5] ولعلّ هذا الهاجس خيمّ بظلاله على نفس الشاعر فدفعه إلى الالحاح، والاستغاثة لفكّ أسره وهو مع ذلك يؤكّد لنا وكما ذكرت سابقا أنّه ((إذا ما طلب النجدة فما ذاك بخلا بالحياة أو ضيق ذرع بتحمّل وطأة الأسر، بل لأنّه لايريد أن يموت حتف أنفه ، وإنما يختار موت أبيه على صهوات الخيل غير

---

١ ـ ينظر: السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي ٢٣٤.

٢ ـ ينظر: الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام: ١١٥/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية/١٩٨٨.

٣ ـ ينظر أبو فراس الحمداني: ٦٩.

٤ ـ الديوان: ٦٤ ـ ٦٦.

٥ ـ ينظر:السّجون وأثرهما في الاداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي:٢٣١.

موسد))[1].فالشاعر وعلى الرغم من استغاثته وطلبه النجدة إلا أنّه أبى أن يظهر أمامنا بمظهر الضعيف الخانع الذي يلح بتخليص نفسه وإنهاء معاناته .إذ حتى بطلبه بالإسراع في دفع فدية فإنّه برر ذلك بحاجة قومه له ، فضلا عن كراهيته الموت بين أعدائه بعيدا عن سوح الوغى.

أما البارودي فلم يعبأ بذلك كلّه إذ حاول أن يسلك كل السبل لأجل أن ينأى بنفسه عن الأزمة التي عصفت به .فلم يتردد في استغاثته أي شخص له القابلية على خلاصه حتّى وإن كان من الحكومة التي كانت سببا في نفيه أو من المقرّبين لها. وحتى أن كلّفه ذلك التخّرص من الثورة والثوار وأبداء الندم على ما مضى ،وكل ذلك كان بدافع المحافظة على ما بقي من حياته آملا في أن ينعم بحياة هادئة بالقرب من أهله ومحبّيه ، وتجنّبا للموت الذي يمكن أن يعصف به وهو في منفاه بعيدا عن كل ما يحبه ،أن الرغبة في استغاثة سراة القوم أملت عليه أن يُظهر ندمه على اشتراكه بالثورة وموافقة الثوار على القيام بها إذ يقول[2]:

لو كان للمرء عقل يستضيء به	في ظلمة الشك لم تعصف به النوب
ولو تبّين ما في الغيب من حدث	لكان يعلم ما يأتي ويجتنب

فهو لو يعلم عاقبة الامور لما اقدم على الدخول بالثورة .

إن لندمه هذا وتحسّره أثر كبير في إثارة شجونه ليبدي شوقا عارما الى الماضي،إذ تقطّعت أحشاؤه لفقده،ولذا أخذ يسترسل بقصيدته فيقول:

وكيف أكتم أشواقي وبي كلف	تكاد من مسّه الأشواق تتشعب
منازل كلّما لاحت مخايلها	في صفحة الفكر منّي هاجني طرب

إن كل ما يقدّمه الشاعر من أسف ،وما تبعه من حنين وشوق لأيامه السالفة ،ما هو إلا أرضية حاول أن ينطلق منها لطلب الاستغاثة و النجدة من علّية القوم بعدما أثار حميّتهم إذ يقول:

يا سراة القوم ما بال نصرتكم	ضاقت عليّ وأنتم سادة نجب
أضعتموني و كانت لي بكم ثقة	متى خفرتم ذمام العهد يا عرب
أليس في الحق أن يلقى النزيل بكم	أمنا إذا خاف أن ينتابه العطب

---

١ ـ أبو فراس الحمداني / دراسة في الشعر والتاريخ: ٢٥.

٢ ـ الديوان: ١ /٤٧ ـ ٤٨.

ولم يقتصر الشاعر في استغاثته على مدح القوم ، والإفصاح عمّا به من حال ،بل راح يعلن براءته من زملائه المنفيين ليوحي الى نفوس السراة- على الأقل أنه نادم على ما اقترفت يداه إذ يقول[1]:

أبيت في غربة لا النفس راضية	بها ولا الملتقى من شيعتي كثب
فلا رفيق يسرّ النفس طلعته	و لا صديق يرى ما بي فيكتئب

وهنا يعلن عن براءته التامة من الثوار ،فهم ليسوا شيعته ،فشيعته في مصر.

إن حبّه وتعلّقه بالحياة وخوفه من الموت ،كل ذلك جعله أمامنا وكأنه يستيقظ من نوم عميق مرتاعا يصرخ لطلب النجدة من عباد الله، و ليس هناك من يجيبه .

إن إحساس النفس المحطمة التي تعيش التجربة والمحنة القاسية رغبته في تجميد الزمن حتّى لا يصل الى الساعة المرتقبة .إنّه يعيش الأزمة النفسانية الحادة ولذا فإنه و بعدما يئس من كلّ الذين استغاثهم عاد إلى خالقه ليستغيثه إذ يقول[2]:

يا من اليه الوجوه خاشعة	ومن عليه في الكون معتمدي
مددت كفّي اليك مبتهلا	وأنت حسبي فلا تردّ يدي

إن لجوءه إلى الله عز وجل يعني أنه قطع كلّ رجاء إلاّ به .

إنّ إخفاق الشاعرين في إنهاء معاناتهما عن طريق الاستغاثة دفعهما للبحث عن طريق آخر ربما أكثر جدوى ونفعا. فإن لطول الاسر، وتأخر الفداء، اثر كبير في تضعضع ثقة أبي فراس بقومه، خاصة بعد أن أخذ الوشاة طريقهم لسيف الدولة الحمداني فضلا عن أنّ الاستغاثة لم تعد تجدي نفعا بعد لذا فإنها اختفت والى حدّ كبير في شعره ،أو انّها تحوّلت إلى عتاب في أغلب الأحيان .

إن المساحة الزمنية كانت تبدو للشاعر السجين، وكأنها دهر ممتد سكنته الهموم، فما كان عليه إلا أن يشحذ موهبته ليجهز بها على روح الهزيمة، ونوازع اليأس التي يمكن أن تتسلل إلى نفسه عبر تلك المساحة ،فلم يجد أمامه إلا أن يطيل التفكير، ويحيل النظر في أدوات صنعته ليخترق بها جدران الزمن الممتد، فيأتينا بتلك القصائد التي جمعت بين المديح والعتاب، والشكوى

---

١ ـ الديوان: ١/ ٥٠.

٢ ـ المصدر نفسه: ١/ ٥٠.

والحكمة[1]. لذا نجد أبي فراس يقول[2]

يــــا فــــارج الكــــرب العظيـــــ	ـــم وكاشــف الخطــب الجليــل
كـــن يـــا قـــوي لـــذا الـــضعيـ	ـــف ويـــا عزيـــز لـــذا الـــذليل
قرّبـــــه مـــــن سيـــــف الهـــدى	في ظـــلّ دولتـــــه الظليـــــل
الله يعلــــــــم أنـــــــــه	أملــي مـــن الـــدنيا وســـولي
يـــــا عدّتــــي في النائبـــــا	ت وظلـــــتي عنــــد المقيـــل
أيـــــن المحبّـــــة والـــــذما	م و مـــا وعـــدت مـــن الجميـــل؟
إحمـــل علـــى الـــنفس الكريـــ	ـــمة في والقلـــب الحمـــول
أمـــا المحـــب فلـــيس يــصد	ـــفي في هـــواه الى عـــذول
يمـــــضي بحــــال وفائـــــه	ويـــصدّ عـــن قـــال و قيـــل

إنّه يتضرّع الى الله عز وجل أولا أن يفرّج كربه، وهّمه،فهو القوي العزيز وهو أمل الضعفاء والمحرومين ، ويأمل أن يشمل بلطفه لأن نفسه كريمة تحّملت ما لا تطيق ثم يعرض للعلاقة المتينة التي تربطه بسيف الدولة، وأنه لم يرو بعد من خدمته، وهذا كلّه مفتاح للعتاب الرقيق الذي يوّد الشاعر توجيهه لأبن عمه بسبب تأخره عن دفع فديته، وبقاءه على ذلك الحال المهين.

ولم يكن عتابه موجها لأمير البلاد فقط، وانّما توّجه به لكل الحمدانيين .عتاب تميز بالحدّة، وأختلط بالدعاء عليهم . إذ يبدو أن الشاعر لثقل حزنه رّبما رثى ذاته ولما يطرق الموت بعد و سبب ذلك هو جحود الفضل من الأهل والخّلان، فالمرء جلّ أرتياحه الذاتي يأتي من نظرة ذويه، فحين فقدها تستحيل دونها النظرة المقبلة على الحياة عنده ، فتبرز صورة الموت لديه ملّحة ، لأنّ الثقة العالية تأتيه من ناسه إذا تكلّموا عن محاسنه ، وأثنوا عليه ، وأما إذا فقد هذا الأمر فيتحامل عليهم متخّيلا انهم سيسرّون بموته فيذكّرهم بمنزلته ويتوعدهم بالذلّة والحسرة والشر

---

١ ـ ينظر: شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام (دراسة وتحليل) مجلة القادسية للعلوم التربوية مج ٢، ع ٣ ـ ٢٠٠٢.

٢ ـ الديوان: ١٩٤.

المستطير في دنياهم لأنّه كان سبب عزّهم ،فإذا ذهب ، ذهبت معه أسباب العزّة والمنعة،فلعلّه يرضي بهذا التخّيل كبرياءه الذي أنتقص منه[1] ولذا نجد الشاعر يقول[2]:

أمـا أنـا أعلـى مـن تعـدّون هّمـة	وإن كنـت أدنـى مـن تعـدّون مولـدا
وإن حـاربوا كنـت المجّـن أمـامهم	وإن ضـربوا كنـت المهّنـد واليـدا
وإن نـاب خطـب أو ألـمـت ملّمـة	جعلـت لهـا كفّـي و مـا ملكـت فـدا
يـودّون أن لا يبـصروني سـفاهة	ولـو غبـت في أمـر تـركتهم سـدى

لقد كان أبو فراس سريع التحّول من العرفان بالجميل الى العتاب القاسي أحيانا حتّى كأن يخيل اليه ان الحياة خلت من الأصدقاء ، وأن الوفاء غريت شمسه[3]فهو يصبّ عتبا مّرا على أبناء عمومته ، إذ إنّهم كانوا يتمنون فقدانه فيشكوهم الى الله سبحانه وتعالى. إذ أنّه يرى في الأمر غرابة فمن السفاهة والحمق نقمتهم عليه ،وهو ابنهم ،وعونهم على الشدائد ،إذ يتمنّى لهم أن يكونوا سادة أنفسهم دوما . بهذه الشاكلة نجد أن في شعر أبي فراس عتابا رقيقا وتحيات مشوق يبعثها من الأسر إلى إخوانه وأصدقائه وهذه(الاخوانيات قطعة من نفسه وصوره من حسّه لا يتعّمل فيها ولا يتكلّف)[4]. ولذا فإنها أخذت صدى واسعا في شعرهوظلّت تردد إلى يومنا هذا ، على الرغم من أنها حملت في طيّاتها عتابا مّرا وتأنيبا بعثه إلى بعض من يظنّهم مبغضين وحاسدين في حين لم نعثر على أي عتاب في شعر البارودي .

إذ يبدو أنّ انقطاع أمله بالدور الذي يمكن أن يلعبه أبناء قومه لأجل خلاصه ؛ فضلا عن تفاقم العقدة الاجتماعية التي يعانيها الشاعر تجاه شعبه منذ صباه كل ذلك كان سببا في عدم توجّهه لهم بالعتاب إذ فّضل الصبر والتحّمل على ذلك بعد ما بدا أنّ كل الأذان قد صّمت عن سماعه.

أنّ انغلاق أبواب الرجاء والأمل بوجه الشاعرين لإنهاء معاناتهما ،جعلهما ذلك يتجهان إلى

---

١ ـ ينظر: رثاء الذات في الشعر العربي إلى نهاية العصر الأموي / دراسة موضوعية فنية ـ ١٨١ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة كلية الآداب / الجامعة المستنصرية / ١٩٨٩.

٢ ـ الديوان: ٧٧.

٣ ـ ينظر: خواطر ذاتية لأبي فراس وشعره (بحث) ٦٦٢ / دورة أبي فراس الحمداني (د. إحسان عباس).

٤ ـ الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني ٢٨٢/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ـ كلية التربيةً/ ابن رشد ـ جامعة بغداد / ١٩٧٧.

الأتكفاء على ذاتيهما ليتوسّدا الصبر ،عل الله يحدث لهم بعد ذلك أمرا.

إن ((حديث السجناء عن الصبر كثير في ثنايا نتاجهم الأدبي،وهو حديث الإنسان المهذّب وردود فعله في وجه الملّمات الفادحة وما لديه من الاحتمال والقدرة على المقاومة وهذا يتفاوت عند الإنسان فمنهم من جبل على القوة والتمّرد، ومنهم من جبل على الضعف والهوان))[1]

فلّما لم تجد وسائل أبي فراس نفعا في حثّ بني حمدان على فدائه وانتشاله من شدته. أتجّه إلى الصبر وكتم المصائب في الصدور إذ أن في ذلك حفظاً للكرامة والعزة .

أن محنة الأسر التي عاشها الشاعر جعلت صبره يتوزّع على مراحل بحسب القوة والضعف. ففي بداية أسره ((كان صبورا لا يستخفّه الجزع، ولا يوهن له جلد،ولطالما أوصى بالصبر و افتخر به))[2] وهذا يعود الى ثقته بقومه وشديد عنايتهم به.

ولم يكتف الشاعر بلزوم الصبر في هذه المرحلة من حياته وإنما أخذ يوقّره في نفس أهله ومحبيه ويحث الناس عليه إذ يقول[3]:

المـــــرء لـــيس بغـــــانم في أرضـــــه	كالـصقر لـيس بـصائد في وكـــره
إنفـــق مــــن الـــصبر الجميـــل فأنـــه	لم يخــش فقـــرا منفـــق مـــن صـبره

فالصبر ليس مالاً نقدياً ينقص إذ صرف منه بل هو تهذيب روحي عالٍ ،والأماني لا تتحقق دائما في محيط المرء ،كالصقر لا يجد طعامه وهو في وكره بل يرتحل باحثا منقّبا عن رزقه على أن الشاعر وضع شرطا للصبر، إذ أراده بعيدا عن الذلّ والهوان وفي ذلك يقول[4] :

واصـــبر مــــالم يجلـــب الـــصبر ذلـــه	والـــيبس للمـــذموم حلّـــة حامـــد

إن مصيبة الأسر لم تصب الشاعر وحده وإنما أقضّت مضاجع أمه التي وظّفت حياتها له وحرصت على عنايته حتّى أصبح رجلا يعتد به، ولذا فإنها فقدت صوابها حين وردها خبر أسره ،إذ جزعت لذلك جزعا شديدا .وأخذت تبثّ شكواها لكلّ من تجده عونا لها على إنهاء معاناة ولدها .لاسيما سيف الدولة الحمداني .إن القلق الذي أعترى والدته ، وتذلّلها للناس لأجل خلاصه، كل ذلك تسبب في ازدياد معاناته ، فأخذ يحمل همها الى همه .من هنا بدأ يحاول تهدئتها وحثّها

---

١ ـ السجون وأثرها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي: ٢١١.

٢ ـ أدب العرب في الأعصر العباسية: ٣٦٨.

٣ ـ الديوان: ٩٦.

٤ ـ المصدر نفسه: ٦٨.

على لزوم الصبر، فأخذ يرسل لها تلك الجرعات عبر هذه المسافات الشاسعة بقصد تهدئة روعها وتسلية نفسها، وزرع الأمل في نفسها بعودته إليها فهو يقول[1] :

لكـــــنّ قـــــضاء الله و الـــــ	أحكـــام تنفـــذ في البريّـــه
والـــصبر يـــأتي كـــلّ ذي	رزء علـــى قـــدر الرزّيـــه
يـــا أمتـــا لاتحزنـــي	وثقـــي بفـــضل الله فيّـــه
يـــا أمتـــا لا تيأســـي	لله ألطـــاف خفيّـــه
كـــم حـــادث عنّـــا جـــلا	ه، وكـــم كفانـــا مـــن بليّـــه
أو صـــيك بالـــصبر الجميـــ	ـــل، فانـــه خـــير الوصّـــيه

فالشاعر يوصيها بألا تحزن ، وأن تترك الأمر لله وحده فهو خير معين على الشدائد، كما ويتمنى أن لا تيأس من رحمته فاليأس من رحمة الله لا يتمكّن من الإنسان المؤمن، إذ أنّ الله لطيف بعباده، وألطافه لا تعد، وتكرار الشاعر لكلمة ((يا أمتا)) دليل على محاولته توقير الصبر في نفسها،وتوطيدها على تحّمل الشدائد.

و من الغريب حقّا أن نجد السيد تحسين كاظم طه الآلوسي في رسالته الموسومة((الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني) حينما يتحّدث عن قصائده التي بعثها لأمه يوصيها بلزوم الصبر يقول((و لأمه العزيزة – يكتب شعرا يبكي فيه أمّه بكاء الأطفال ، فهو يتوسّل إلى أمه حزينا كسيرا ضعيفا ، يرجوها ألا تحزن ، وتترك الأمر لله)) [2] ويبدو أن الباحث لم يكن متأنيا في قراءة تلك القصائد أولا وأنه لم يستطع التفريق بين خطاب الشاعر لأمه وخطابه للآخرين فقد وجه خطابه لأمه كونها أما أولاً ، وأنّها أمرأة ثانيا بطريقة تنّم عن عاطفة شديدة ، تحدث أشجانا عند السامعين وذلك ليزرع الأمل في نفسها ،ويجتث اليأس الذي خيّم عليها، لاسيما بعد أن ذكّرها برحمة الله ولطفه ، فضلا عن سعيه الحثيث لتعظيم الصبر فيها، وأنه السبيل الأفضل للنجاة من الشدائد.

وقد امتاز حديثه لامه بالرّقة والتوّسل واللطف، إذ أنّ ذلك من مستلزمات مخاطبة النساء،

---

١ - الديوان: ٢٣٣.

٢ - الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني ١٧٤/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة - كلية التربيةً/ جامعة بغداد /١٩٩٧.

خاصّة وانّها امرأة صغيرة السن كسر جناحها بعده، على الرغم من النار المستعرة بداخله، ولكنّه حرص على عدم إشعارها بتلك النار خوفا من أن تحرقها.

ولا اعتقد أنّ من يتوسّل لأمه ويبكيها بكاء الأطفال ، له القابليه على تهدئة نفسها ، وحثّها على الصبر وأن تتّخذ من النساء الصالحات المسلمات قدوة لها في ذلك كما يقول[1]:

فيا أمتا لا تعدمي الصبر انّه ... الى الخير والنجح القريب رسول

فيا أمتا لا تخطيء الأجر أنه ... على قدر الصبر الجميل جزيل

أما لك في ذات النطاقين أسوة ... بمكة والحرب العواني تجول

أراد أبنها أخذ الأمان فلم تجب ... وتعلم علما أنّه لقتيل

تأسّي كفاك الله ما تحذرينه ... فقد غال هذا الناس بعدك غول

وكوني كما كانت بأحد صفية ... ولم يشف منها بالبكاء غليل

ولو رد يوما حمزة الخير حزنها ... اذاً ماعلتها رنّة وعويل

إن هذا الأسلوب في الإقناع و ضرورة أن تقتدي أمه بالنماذج الصالحة من النساء المسلمات لهو دليل على قوّة عزيمته وصلابة موقفه ، إذ أنّه لو لم يتمكّن من نفسه لما تمكّن من إقناع الآخرين وإذا كان ثمّة بكاء من الشاعر ،كما يدّعي الباحث فهو بكاء أمه و ما صارت إليه من حال بعده ،و ليس بكاء نفسه ومصيبته.

.على الرغم من أننا لانعدم من أنّ الضعف قد تمكّن منه في بعض الأحيان ، حتّى زعزع الصبر في نفسه،لاسيما بعد طول أسره، لكنه ((يستدرك نفسه في معظم قصائده التي كان يضطّر فيها للتعبير عن كربه وهمومه، وتذلّله ،فينتفض فجأة، وكأنه يتذكّر من هو أبو فراس))[2]مثال ذلك قصيدته (أراك عصي الدمع) والتي يقول فيها[3]

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك و لا أمر

---

١ ـ الديوان: ١٨٣ ـ ١٨٤.

٢ ـ تصالح الأغراض والمفاهيم في شعر أبي فراس (بحث): ١٣٣ ـ دورة أبي فراس الحمداني. (الشيخ محمد علي تسخيري).

٣ ـ الديوان: ٨٤.

نعـــم أنـــــا مــــشتاق وعنـــدي لوعـــة ولكـــن مثلـــي لا يـــذاع لـــه ســـر

إذا الليـــل أضـــواني بـــسطت يـــد الهـــوى وأذللـــت دمعـــا مـــن خلائقـــه الكـــبر

فهو لا يبكي إلا عندما يخلو بنفسه، ولا يكشف عن لوعته للآخرين، وهنا تتمثل المرحلة الثانية من حياته فهو يقول[1]:

نـــضوت علـــى الأيـــام ثـــوب جلادتـــي ولكـــنني لم أنـــض ثـــوب التجلّـــد

فمن خلال تجلّده هذا نعلم أنّ صبره ضعيف ،وعزاءه دائم إذ يقول[2]:

صـــبور ولـــو لم تبـــق منّـــي بقيـــة قـــؤول ولـــو أنّ الـــسيوف جـــواب

وقـــور وأحـــداث الزمـــان تنوشـــني وللمـــوت حـــولي جيئـــة وذهـــاب

بمـــن يثـــق الإنـــسان فيمـــا ينوبـــه مـــن أيـــن للحـــرّ الكـــريم صـــحاب

ونستشف من هذا قلّة صبره ،إذ يوطّد نفسه على التصبّر فكلامه لا ينفع له إذ أنّ القول للسيوف ،ولذا يستغرب حينما لا يجد صاحبا في محبسه يعينه على بلواه ، وهو صاحب اليد البيضاء مع الجميع ،فيلجأ الى ذاته ليبكيها سرّا دون أن يطلع عليه أحد وحتّى بكاءه هذا فإنّه مشبع بالكبرياء ، والفخر ،فهما حاضران عنده، وإن شعر بالذلّ والهوان ،فيبكي ويتوسل بترفع،ويتذلل بأنفه.[3]

و لذا فإن قصائده الحزينة من رومياته تفيض بوجع شديد، وخيبة أمل فادحة، ومحاولة شديدة للتماسك والاحتفاظ بثقته بنفسه[4].

وكأني بالشاعر يأبى الصبر الطويل ، ويشفق أن يذهب بتجلّد تام وأن يتحوّل إلى جمود في الشعور،وجفاف في القلب .إن ما يطلبه هو أن يحول صبره دون يأسه ،وأن يكون له من الدمع معوان على الصبر من غير أن يؤدّي به الدمع إلى الضعف وهذا حاله من أيامه الأخيرة من أسره أما البارودي فلم يختلف عن أبي فراس في بداية نفيه ، إذ أظهر تجلّدا ومكابرة على الرغم من

---

١ ـ المصدر نفسه: ٦٥.

٢ ـ المصدر نفسه: ٢٨.

٣ ـ ينظر: تصالح الأغراض والمفاهيم في شعر أبي فراس (بحث): ١٣٣ ـ دورة أبي فراس الحمداني.

٤ ـ ينظر:محنة أبي فراس مقال:٧٥/بقلم محمد إبراهيم ابو سنة/مجلة الثقافة العربية/المؤسسة العامة للصحافة بالجمهورية العربية الليبية /ع١١ سنة ١٩٧٦

المصائب التي نزلت به .إلا أنّ تفاقم تلك المصائب وازديادها فضلا عن الضعف البدني والنفسي الذي ألمّ به ، كل ذلك جعله قليل التجلّد على الرغم من محاولته التشبث بالصبر، إذ أننا نجد دموع الشاعر أصبحت سبيله الوحيد لدمل جراحه ، والتخفيف من معاناته .وهذا ما لم يصل إليه أبو فراس.

فحينما تفشل كل المساعي التي أنتدبها لفكاكه ،وبعد أن نظر الى حاله البائسة ،يرجع الى ذاته فيحاول أن يزرع الصبر فيها إذ يقول[1]:

ولكن اذا قل التصبر وأعوزت ... دواعي المنى فالصبر في المعاذر

فلا يشمت الأعداء بي فلربما ... وصلت لما أرجوه ممّا أحاذر

فقد يستقيم الأمر بعد اعوجاجه ... وتنهض بالمرء الجدود العواثر

ولي أمل في الله تحيا به المنى ... ويشرق وجه الظن والخطب كاشر

إذا المرء لم يركن إلى الله في الذي ... يحاذره من دهره فهو خاسر

وإن هو لم يصبر على ما أصابه ... فليس له في معرض الحقّ ناصر

ويبدو أن الشاعر في منتهى اليأس والخور، ولذا حاول أن يستند إلى شيء من الأمل ((أمل ليس يعود إلى عزيمته بل إلى قوة خارجة عن عزيمته أتكل عليها في جميع قصائد التي نظمها في المنفى))[2].

إذ أنّ الشاعر حينما خارت قواه ، وأصبح لا حول ولا قوة له، وعندما أستيأس من كل الحلول لجأ الى الله عزّ وجل ليكون له عونا في ذلك، فأصبح ديدنه هذا في أغلب قصائده في سني منفاه الأخيرة إذ يقول[3]:

يا قلب لا تجزع فإنّ المنى ... في الصبر و الله مع الصابر

والشاعر ينبأ عن جزعه ،نتيجة الضعف الذي أستشرى فيه ،مولّدا حالة من اليأس، أغلقت بوجهه كل أبواب الأمل،ولذا فلا ملاذ يخفّف آلامه إلا البكاء.

---

١ ـ الديوان: ٢/ ٦٧.

٢ ـ نفسية البارودي من خلال شعره: ٣٥١ / مجلة آداب الرافدين /ع٨/ ١٩٧٧ كلية الآداب/ الموصل.

٣ ـ الديوان: ٢/٩١.

إذ يقول[1] :

هــل لــسلام العليــل رد	أم لــصباح اللقــاء وعــد
أبيــت أرعــى الــدجى بعــين	غــذاؤها مــدمع وســهد
لا صــاحب أن شــكوت حــالي	يرثــي و لا ســامع يــردّ
بــين قنــان علــى ثراهــا	مــن ســترات الغمــام يــرد
أظــل فيهــا أنــوح فــردا	وكــل نــائي الــديار فــرد

فليس في غربته شيء يسليه سوى النوح ،فكان هذا حاله حتّى عاد إلى وطنه.

وخلاصة ما تقدم نجد أنّ الشكوى قد طفحت في شعر الشاعرين فأبو فراس توّجه بشكواه لكل الحمدانيين لاسيما ابن عمّه أمير البلاد ليبث فيها معاناته من انحباسه عن سوح القتال، وانقطاع أياديه عن الكرم،وعدم أغاثته الملهوفين.

في حين تركّزت شكوى البارودي على معاناته من مكان أسره . وهذا يعود لطبيعة الحياة المترفة التي كان يحياها قبل نفيه وكان للّيل شأن عند المغتربين إذ أنّه يساعد على تفاقم الشكوى، بسبب من أن الذكريات التي تبرز لهم تهيج فيهم المواجع والآلام فليل أبي فراس يذكّره بأيّام فروسيته و ملاعب عّزه في حين أن ليل البارودي انحسر بذكرياته في القصر الملكي . وهذا يعني حرص الشاعر على العودة لتلك الحياة بعيدا عن كل ما يعكّر صفوها .

إن مما أهاج مواجع الشاعرين شعورهما بالّذل فأبو فراس أحسّه نتيجة تحكمّ الروم الأعداء به، فضلا عن أنّ إلحاحه بطلب الفدية ولّد في نفسه الإحساس ذاته، على الرغم من أنّه لم يستسلم للضعف.

بينما بدا الاستسلام واضحا على البارودي على الرغم من محاولته النأي بنفسه عن الذل .

إن المصائب التي قصمت ظهر الشاعرين لم تقف حائلا دون النظر في ماً خلفه حبسهما من الآم لأهلهم ومحبيهم فأبو فراس بكى أمه بشكل ينبأ عن أنّ ما حّل بوالدته قد طغى على معاناته وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على أنّ قوى الشاعر لم تتهدم بعد .

في حين أستثمر البارودي وفاة زوجته ،وابنته وأستاذه المرصفي، ليبثّ من خلال هذه الحوادث همومه وآلامه وهذا يدلّنا على أن الشاعر أصبح اهتمامه بحاله البائسة أكثر من اهتمامه بأهله

---

١ ـ المصدر نفسه: ١٧٩/١.

وذويه.

إنّ تراكم الحوادث على نفسي الشاعرين جعلهما يتوجّهان بالشكاية إلى الله عز وجل واللجوء إليه فأبو فراس كان يلجأ إلى الله في الشدة والرخاء طيلة حياته.إلا أنّ لجوء البارودي هذا يعد تحّولا طارئا في حياته فهو قبل نفيه كان يحثّ على ركوب الأهوال ، والمغامرة والاعتداد بالنفس.

ولم يتردد الشاعران من طرق أبواب من وجدوا فيهم الكفاية لإنهاء معاناتهما فأبو فراس لم يستغث إلا بابن عمّه سيف الدولة استغاثه ممزوجة بشيء من الكبرياء والتفاخر بنفسه، وذلك كي لا يدع الهوان يتمكّن منه في حين أن استغاثة البارودي دفعته للتنّصل من الثورة والثوار، وإبداء ندمه على اشتراكه بها بقصد إرضاء الحكومة ومن بيدهم أمره.

ولّما لم تجد الاستغاثة نفعا توجّه أبو فراس بالعتاب إلى قومه لاسيما ابن عمه عتابا مّرا، وذلك لتباطئهم عن دفع فديته، في حين لم نجد أي نوع من أنواع العتاب في شعر البارودي الجفوة الحاصلة بينه وبين قومه والتي كان يعيشها منذ صباه.

ولما لم تفلح كل الوسائل في فك أزمة الشاعرين أخذا يوطدان نفسيهما على الصبر بعدما بكيا الغربة والألم.

فأبو فراس وعلى الرغم من بكاءه الخفي إلا أنّه حاول أن يوقّر الصبر في نفسه حتّى لا يستسلم للضعف والهوان. أما البارودي فقد تمسّك بالصبر في بداية نفسه إلا أنّ قواه خارت وضعف بدنه، ولذا بدا وكأنه مستسلم حتى للموت أن لم يكن يتمناه .

المبحث الثالث

صورة الذات بين الغربة والحنين

الغربة ألم وحرقة ومعاناة ، يكون من نتائجها الحنين.فهي سابقة عليه، إذ أن من يغترب ينتابه الهم والغم ،ويتحسس الذلّة بعدما كان عزيزا في مهاده، ومرا بعه، ودياره مع الأهل والأحباب، والخلّان. ففي قومه يمتاز بالقوة والمنعة ،يتلذّذ بالأنس والسمر وهناك من يعينه على نائبات الدهر، ومدلهمات الأمور، أمّا حينما اغترب ،فقد أمسى في ذلّة ضربت عليه أستارها، ولذا فقد قالوا ((بأ س الاختيار أن يعيش الإنسان في الغربة، ولم يبن ولو كوخا في وطنه))[1] إن علاقة الإنسان بالمكان وثيقة تبدأ من أول يوم ولد فيه،وهو يواجه هذه الدنيا.فكلّما تقدّم في هذه الحياة تتوثق علاقته بالمكان حتّى تصبح هذه العلاقة هاجسا يلحّ على النائي فيغدو به إلى مكانه. وهذا الهاجس ما هو إلا تراكم إيماءات تعود بالإنسان إلى عهد عاشه في ذلك المكان . وهذا ما نلمحه في وقوف الشاعر على أطلال قبيلته حبيبته . فالطلل وما يحيط به وما يتناثر حوله من الدمن يصوّر مجموعة من الذكريات ، عاشت في ذهن الشاعر، فحفظ لها أسعد الأوقات ، وأجملها[2].

وقد يتحرر الشاعر من ذاتيته ، فيكون وقوفه على الأطلال تعبيرا عن موقف إنساني عام[3] .ويبرز السجن أشد الأماكن أذى لقاطنيه ، إذ هو يسلب الإنسان أغلى ما في الوجود ألا وهو الحرية .فهذا الأمير أبو فراس يشكو الحبس ، الذي سلبه كلّ شيء .أن أهمّ ما يولّده السجن في نفس صاحبه ، غربة الدار ووحشتها ، وذلّها ،ولذا فأبو فراس يشكو ذلك بحسرة ومرارة فيقول[4] :

وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع   وفي كل يوم لفتة وخطاب

---

١ ـ وطن وغربة: عرض وتحليل لمفهوم الوطن في الإسلام: ١٢٨

٢ ـ ينظر الطبيعة في الشعر الجاهلي: ٢٤٥، وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ١٠.

٣ ـ ينظر الصورة الفنية في شعر أبي تمام: ١٣٠.

٤ ـ الديوان: ٣٠.

فكيف وفيما بيننا ملك قصير   وللبحر حولي زخرة وعباب

فشعوره بالبعد عمن يحب ولد في نفسه قلقا عارما، نستشفه من توظيفه الأيحاء المكاني للدلالة على بعده عن وطنه ، وعدم استقراره ، فضلا عن الخوف الذي يعيشه ، إذ يقرأ هذا كلّه من خلال لفظة البحر ،وما به من أمواج متلاطمة ،وصخب ، واضطراب ،كل ذلك كان يدلّ على ما في ذات الشاعر ،إذ أنّ البحر غالبا ، ما يدل على عدم الاستقرار، والخوف من المجهول وهذا كلّه وليد الغربة.

ويبقى معجم الشاعر زاخرا بالألفاظ التي تدل على غربته مثل (اسر،أقاسي، ليل، تطول...) فهو يقول[1]:

وأسر أقاسيه،وليل نجومه   أرى كل شيء غيرهن يزول

تطول بي الساعات وهي قصيرة   وفي كل دهر لا يسرّك طول

لقد أصبح ليله سرمديا مملّا ،بعد أن كان أنسا وعزا إذ أفصح عن ذلك الليل السابق بقوله[2]:

لبسنا رداء الليل والليل راضع   الى أن تردّى رأسه بمشيب

وبتنا كفصني بانة عابثهما   الى الصبح ريحا شمأل وجنوب

إن للمكان أثراً في تشكل رؤية الشاعر للطبيعة ((فقد يؤثر المكان في طبيعة الزمن كلّه، فيبّدل من طبائعه تبعا لنفسيّة الشاعر، التي تلوّن الزمان بتأثير ذلك المكان وإيحائه بألوان الذات))[3] .

فقد أثر الأسر في نظرة أبي فراس للزمن ،فجعل ليله لا ينقضي، إذ أفرز الأسر مرارة، وحزنا ثقيلا، حتّى بدّل نظرته للأشياء.

أن خلوّه من كل ما يخفف همه ،وألمه ،دفعه للبحث عن أنيس يشاطره أحزانه، ويضمد جراحاته ،فتناهى إلى سمعه هديل حمامة على شجرة مرتفعه، إذ أوحت له بطعم الحرية، حتى أن

---

١ ـ المصدر نفسه: ١٨٢

٢ ـ المصدر نفسه: ٤٥.

٣ ـ شعر أبي فراس الحمداني/ دراسة دلالية: ١٥٨/ أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية التربية للبنات/ جامعة بغداد/٢٠٠٣.

بكاءها أثار إعجابه ،فكيف تنوح وهي الطليقة على حين يكظم غيظه، ويحبس أحزانه وهو الأسير لقد تمنى الشاعر أن تدرك تلك الحمامة ما يعانيه من ألم البعد،وقسوة الفراق علها تقاسمه تلك المعاناة .فالمكان المرتفع المكشوف أوحى له بالحرية ،وهذا ما زاد من ألمه فأحسّ بثقل القيود التي تكبّله في سجنه ويضنك العيش بذلك المكان إذ قال[1]:

أقـــول وقــد ناحـــت بقربـــي حمامـــة	أيـــا جارتـــا هـــل تـــشعرين بحـــالي
معـــاذ الهـــوى مـــا ذقـــت طارقـــة النـــوى	ولاخطـــرت منـــك الهمـــوم ببـــالي
أيـــا جارتـــا مـــا أنـــصف الـــدهر بيننـــا	تعـــالي أقاسمـــك الهمـــوم تعـــالي
أيـــضحك مأســـور وتبكـــي طليقـــة	ويـــسكت محـــزون ،وينطـــق ســـالِ
لقـــد كنـــت أولى منـــك بالـــدمع مقلـــة	ولكـــن دمعـــي في الحـــوادث غـــالِ

فربما أوحى نوح الحمامة للشاعر بالمرأة التي تشكو همّها لجارها الذي أخذ يقاسمها ذلك الهم يدلّ على ذلك دعوته لها مرارا ((تعالي)) فكأنها تدرك ما يحمله من هموم لا تقل بأي حال عن همومها بل ربّما تزيد عليها ، ولذا فهو يستغرب بكاءها ،إذ يرى نفسه أولى بهذا البكاء، إلا أنه يمتلك من الصبر ما لا تملكه هي،فاستطاع أن يحبس دمعه ،فلا يهدره في تلك الأحداث والنوازل ، وإنما يتجمّل بالصبر لأن ((دمعه ليس رخيصا،بل هو غالٍ غلاء كرامته،ونفسه))[2] وهذا ديدنه إزاء تلك الغربة القاسية،بعيدا عن مرابع عزه وملتقى الأحبة .

وأما غربة النفي فهي شديدة القسوة على الشاعر،نلمحها في هذا القلق الذي يعتريه، فيمنع عنه النوم ((إذ ينهدم الإنسان من الداخل ،إذا لم يقبله المجتمع))[3] .

إنّ النفي تطور لمعنى الخلع،الذي كانت تمارسه قبائل العرب في الجاهلية ،فقد كان الخليع يرتّب حياته على أساس أنّ القبيلة تنكرت له،و لا سبيل الى عودته مرة أخرى –فاليأس استقرار بأية حال .ولكن النفي له شأن آخر ، فالشاعر المنفي يراوده الأمل في العودة الى وطنه حين تتبدل الظروف السياسية،لكنّه لا يدري متى تتبدل هذه الظروف، وهل يمتد به العمر حتّى يشهد هذا

---

١ - الديوان: ١٧١.

٢ - شعر أبي فراس الحمداني / دراسة دلالية: ١٦٠/ أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية التربية للبنات/ جامعة بغداد/ ٢٠٠٣.

٣ - مقالات في الشعر الجاهلي: ١٨.

التبدل، أم يخترمه الموت قبل أن يرى وطنه مرة أخرى ، ومن هنا كان هذا الإحساس العنيف بالقلق[1] .

لقد عرف البارودي الاغتراب قبل منفاه بسرنديب ، عرف الاغتراب حين رحل مع الجيوش العثمانية الى روسيا ، وعرفه حينما أقام سبع سنوات في الإستانة[2] .ولكن حياة السجن تجربة جديدة له ،ذلك الفارس الذي لم يعرف الحبس ولا القيد ، ورئيس الوزراء الذي كانت بيده مقاليد الأمور، والزعيم الوطني في ثورة عرابي ضد الحكومة والمستعمرين ،إنه اليوم وحده مع ظلمة الجدران، تلك الظلمة التي أدخلت في قلبه الرعب من مستقبل مجهول ،ومن إحساس مرير بحنين، وشوق عارم الى مرابع بلاده. إنه وحده في محبسه ،بعيدا عن أماكن عزّه ومجده .فالمكان الجديد ،وعلى الرغم من ضيقه مثّل للسجين أبعادا واسعة ، أستوعبت همومه التي فاضت بها قريحته ((فليس ثمة سجن لا يستطيع المرء أن يهرب منه بالفكرة ،لأن البعد الداخلي للإنسان ،ليس بعدا مكانيا، وإنما هو بعد روحي يعبّر عن عمق الحياة الباطنية للإنسان))[3]. ومن هنا فقد تعددت الأماكن عند الشاعر، مابين مكان خيالي يلجأ اليه ، ومكان واقعي تدركه الحواس،يهرب منه ذلك هو مكان الحبس الذي يسأمه لتكرار منظره ويؤس حاله فيه.ولنقرأ تصويره لحاله ، وما آل اليه أمره في منفاه[4] :

أبيت منفردا في رأس شاهقة	مثل القطامى فوق المربأ العالي
اذا تلفّت لم أبصر سوى صور	في الذهن يرسمها نقّاش آمالي
فلو تراني وبردي بالندى لثق	لخلتني فرخ طير بين أدغال
نال الردى ابويه فهو منقطع	في جوف غيناء لا راع ولا والي

لقد جسّد البارودي في هذه الأبيات كلّ المتاعب التي ألمت به في منفاه من شعورهبالحزن الشديد ،والألم المضني، والضعف الذي دّب في مفاصله .

تلك المفاصل التي حملت جميعها وجدا إلى أهله، ومحبيه ،بعد تغرّبه عنهم.لقد وقعت غربته في نفسه أشد الوقع، إذ غلب اليأس في عودته ،وتعمّقه حزن شديد، ولوعة محرقة، فحمل

---

١ - ينظر: الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ١٨.

٢ - ينظر: في الأدب الحديث ١ /١٤٧ - ١٤٨.

٣ - مشكلة الإنسن: ٣٥.

٤ - ديوان البارودي، شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٤١٩ - ٤٢٠.

قيثارته، وأخذ يتغنّى بعواطفه الكامنة في أعماقه، ويذرف الدموع مدرارا، مصوّرا جزعه لفراق الوطن، وفراق زوجه، وبناته، وأصدقائه، وتحطّم آماله السياسية، وغير السياسية. لقد أبعد عن فردوسه، وهو يبكي، ويصيح، و قلبه يتأجج نارا، فيقول[1]:

هل من طبيب لداء الحب أو راقٍ ؟ يشفي عليلا أخا حزن وإيراق

حزن بلاني، وأشواق رعت كبدي يا ويح نفسي، من حزن وأشواقي

أكلّف النفس صبرا، وهي جازعة والصبر في الحبّ أعيا كل مشتاق

لا في ((سرنديب)) لي خل ألوذ به ولا أنيس سوى همّي وإطراقي

ابيت أرعى نجوم الليل مرتفعا في قنّة عزّ مرقاها على الراقي

بهذه الصورة المؤلمة، يتحدّث الشاعر عن وحدته، ونفاد صبره، وطول ليله، الذي ينمّ عن نفس مكلومة براها الشوق.

فأشد ما يؤلمه أن لا أنيس معه ((إذ يتلفت حوله، فلا يجد من يؤنسه، إلا خادمه كافور، فيلمّ به طائف من الحسرة على نفسه))[2]. فيصورها في قوله[3]:

ما كنت أخشى أن أعيش بغربة يعليني فيها خويدم أسود

وقوله[4]:

فلا رفيق تسرّ النفس طلعته ولاصديق يرى ما بي فيكتئب

وقوله[5]:

أبيت عليلا في ((سرنديب))ساهرا أعالج ما القاه من لوعتي وحدي

ففي وسط هذه الوحشة، والغربة، وحين لا يجد أحدا يبثه آلامه، يلجأ الى نفسه المكلومة فيحدثها عن معاناته، وناره المستعره، ((فلم تكن نفسه مجرد نديم، ومؤانس، بل كانت السبب

---

١ ـ الديوان: ٢٨٣/٢ ـ ٢٨٥.

٢ ـ محمود سامي البارودي: ١٦٢.

٣ ـ الديوان: ١٨٥/١.

٤ ـ المصدر نفسه: ٥١/١.

٥ ـ المصدر نفسه: ١٧٢/١.

الذي يدمل جراحه، عندما يتصاعد حزنه، ويصل حد القضاء عليه))[1]. بعد أن جرّب الحياة ، ومر الأيام ، وعرك الدهر، وقاسى آلام النفي ، والوحشة والانفراد.

إن تفاقم غربة المكان يولّد أو يحرك الإحساس بالغربة الروحية.لذا فإن الاغتراب المكاني أعاد في نفس أبي فراس هاجس الاغتراب النفسي الذي كان يعانيه وهو وسط الحمدانيين، بل إن مكان الاسر ، وطول مكوث الشاعر فيه أكدّ- في نفسه- الغربة الاجتماعية.إذ يبدو أنه لم يكن على وفاق تام مع قومه[2]. فعلى الرغم من المحبّة المعقودة - ظاهرا - بينه وبين أفراد أسرته ، فإن كوامن الخلف والبغض، والتنافر والحسد، وحبّ السلطة كانت تعمل عملها في بواطن هذه الأسرة الحاكمة من الأمراء.ففي مقتل سعيد بن حمدان –والد الشاعر- على يد أخيه ناصر الدولة، ما يغني عن الاستطراد لتأكيد حقيقة ما تقدّم ذكره وتتجلى لنا حقيقة هذه العلاقة من خلال شعره الذي قاله قبل أسره، إذ قال في وصف غربته ، وهو وسط أهله وقومه[3]:

أراني وقومي فرقّتنا مذاهب	وإن جمعتنا في الأصول المناسب
فأقصاهم أقصاهم عن مساءتي	وأقربهم بما كرهت الأقارب
غريب وأهلي حيث ما كنت حاضر	وحيد وأهلي من رجال عصائب

فالشاعر يصف أحاسيس ذاته تجاه الآخرين من أبناء عمومته ، فتتجلى لنا أزمته النفسية من خلال إحساسه بالغربة والوحدة، على الرغم من عيشه بين أهله ورجال عشيرته على كثرتهم.

إنّ إحساسه بالغربة وهو وسطهم ينبيء عن مدى معاناته ، وقد أبعدته الليالي عنهم، وانقطعت مكارمه فيهم ، وهنا يظهر الألم بأقسى صورة إذ يقول[4]:

مصابي جليل والعزاء جميل	وظنّي بأن الله سوف يزيل
تناساني الأصحاب الا عصيبة	ستلحق بالأخرى غدا وتزول

---

١ ـ شعر الأسرى العراقيين الحديث/ دراسة موضوعية وفنية: ٤٠ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية الآداب جامعة القادسية/ ٢٠٠١.

٢ ـ ينظر: الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني: ٤٢ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية الآداب جامعة بغداد/١٩٩٧.

٣ ـ الديوان: ٤٨.

٤ ـ المصدر نفسه: ١٨٢.

لقد صوّر الشاعر في هذه الأبيات حاله في الأسر، واستشراء جروحه ،وتنكّر إخوانه له بالمصيبة الكبيرة التي يأمل زوالها من الله.

لقد وفّق الشاعر الى حد كبير –في توظيف لفظة ((تناساني)) التي لها القابلية في إعطاء صورة واضحة لمعاناته من الغربة النفسية ، فالنسيان يعني طي كل الصفحات ،وإلغاء الماضي برمّته ،فكأنه يوحي بموت المنسي ،وهنا تتجلىأامامه صورة التنكر وعدم الوفاء له ،لا سيما بعد تباطؤ سيف الدولة في فديته، إذ يبدو أن غربته هذ هي أمتداد لغربته الاجتماعية قبل أسره، بدليل أنه قال ((تناساني)) ولم يقل ((نساني))، إذ أنّ التاء هنا تعطي معنى القصدية ،أي أنّ عملية النسيان كانت ،متعمّدة وليست حالة طبيعية جاءت نتيجة أفرازرت الزمن وهذا ما يفسّرقوله[1]:

غريب وأهلي حيث ما كنت حاضر   وحيد وأهلي من رجال عصائب

وهكذا فقد كان على أبي فراس أن يصارع أسباب وجوده بمفرده وأن يعيش غربته منذ نعومة أظفاره وهذا ما يفسّر تأكيده على المجاورة النفسية ،ورابطة المحبّة أكثر من أي رابطة أخرى قد تبدو هي الأساس في ديمومة العلاقة الإنسانية، بعامة، وعلاقة الشاعر بالآخرين بخاصة تعويضا لغربته إذ يقول[2]:

نسيبك من ناسبت بالودّ قلبه   وجارك من صافيت ليس المقارب

أشدّ عدويك الذي لا تحارب   وخير خليليك الذي لا تناسب

وهذا يعني أنّ الشاعر أدرك متانة الرابطة الإنسانية حينما عدّها أقوى وأشمل من الرابطة القبلية، التي لا يمكنه التنّصل عنها ، بأي حال من الأحوال ،وإدراك الشاعر هذا يبدو أنه نابع من صلب عقيدته الإسلامية، وتمسّكه بها.

ولم يكن المكان الموحش الخالي من الأنس، و لا الإحساس بالاغتراب الاجتماعي، وحدهما اللذان سببا هذه الغربة النفسية لديه، وإنما تظافرت عوامل أخرى في ذلك منها خبر وفاة والدته ، الذي نزل على فؤاده المكلوم، كالصاعقة، تلك الأم التي أحبها حبا جما ،فقد عمل موتها إلى جانب الأسر ،على شدّ أوتار عاطفته ،فتصاعدت من قلبه أنغام قلّ أن نجدها عند شعراء العاطفة إذ يقول[3]:

---

١ ـ الديوان: ٤٨.

٢ ـ المصدر نفسه: ٤٨.

٣ ـ الديوان: ٨٩.

أيـــا أمّـــاه كـــم هـــم طويـــل — مـضى بـك لم يكـن منـه نـصير

أيـــا أمّـــاه كـــم ســـرّ مـــصون — بقلبـــك مـات لـيس لــه ظهــور

أيـــا أمّـــاه كـــم بـــشرى بقريـــبي — أتتـــك ودونهـــا الأجـــل القـــصير

والشاعر كرر النداء بـ((أيا)) التي خرجت لمعنى الندبة لمن هي بعيدة عنه المسافات ، لكي يشير إلى ما سببّه فراقها من ألم نفسي[1]ويزيد شعورنا بثقل هم الشاعر، من خلال تكراره ((لهاء السكت)) إذ أن ((التكرار البليغ شيء من التلوين اللفظي ، والمعنوي الصوتي فيه جدّة وطرفة))[2] فهذه الهاء توحي بعمق تحسرّه على أمه ،إذ أنّ خبر وفاتها زاد في غربته فبه فقد أقرب الناس اليه حبّا وحنانا.

إن سموّ المكانة التي يشعرها الشاعر وسط أهله، وأبناء قومه ولّد في نفسه نوعا آخر من الاغتراب، وهو بعيد عنهم في ديار الذلّ والهوان، فقد خيّم عليه الاغتراب الروحي نتيجة تحكّم آسريه به((فالأسير يعاني الى جانب مرارة الغربة عن الوطن، غربة المحبس، وهو محبس رهيب، لأنّه في أيدي، الأعداء، لذلك نرى غربة الأسر هنا تتناول جانبين، الوثاق وذكريات الأيام الجميلة التي قضاها في وطنه قبل أن يأتي دار الأعداء[3] من هنا تثور بأبي فراس ثائرة الأسف من تحكّم الروم فيه فيقول[4] :

إلى الله أشـــــكو أننـــــا بمنـــــازل — تحكـــم في آســـادهن كـــلاب

فقد أشتد عليه الألم بسبب الأسر، وضاقت به نفسه، وحزن لذلك حزنا شديدا ،فبينما هو أمير، إذا هـو أسير، وبينما هـو حـاكم ،إذا بـه محكـوم عليـه ((وزاد صـدره حراجـة أن الروم، قيدّوه، وهو بخرنشة ، إذ يسار به الى القسطنطينية أسيرا))[5] فكيف يطيق ذلك وهو الذي لم تسعه صحراء العرب.

أن ضيق المحبس وذلّه ولّد لديه غربة روحية أخرى جاءت نتيجة انقطاعه عمّا وظّف حياته

---

١ ـ ينظر: شعر أبي فراس الحمداني/ دراسة دلالية: ١٦٩/ أطروحة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد ـ ٢٠٠٣.

٢ ـ البلاغة الفنية: ٢٣٦.

٣ ـ الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث: ٢٧.

٤ ـ الديوان: ٢٨.

٥ ـ أبو فراس الحمداني: ٦٨.

لأجله وهو الحرب.يقول ديكارت إن الاغتراب النفسي يقوم على ((ثنائية عزلة الإنسان عن الجسم،وعزلة الأنا عن العالم))[1] فقد كان أبو فراس قلقا في أسره، إذ ماذا ينتظر من إنسان آمن بالحرب مجالا لتأكيد الوجود،وإذا به جريح مهمل في زوايا النسيان عند عدو يفخر عليه، بعد أن كان هو يذيقه مّر الهزائم في حروب لاهوادة فيها ولا لين،فكان إقدامه الشديد في تلك الحروب سببا في أسره[2] وفي ذلك يقول[3]:

أنـــي أغـــار علـــى مكـــاني أن أرى	فيـــه رجـــالا لاتـــسدّ مكـــاني
أو تكـــــون وقيعـــــة أو غـــــارة	مـــالي بهـــا أثـــر مـــع الفتيـــان

لقد أنتابه القلق حين وجد في مكانه أناسا ليسوا كفؤا له ويتحسّر حين تأتيه أنباء الحرب ، وهو بعيد عن ميادينها ،فيطفح إحساسه الرهيب بالغربة النفسية ، نتيجة انقطاعه عن صفات آمن بها مجالا واسعا للحياة.

ولم تكن الحرب الميدان الوحيد الذي فقدته ذاته لتحقيق وجودها ،فقد كان للكرم والمروءة، وإغاثة الملهوف، وغيرها من الخصال التي كان يراها جزءا من وجوده الأثر البالغ في تفاقم أزمته، وإحساسه الضياع من دونهما ،فقد تملّكه الأسف العارم بسبب أنّ الأسر منعه ممارستها ،ولذا نجده يقول[4]:

تمـــرّ الليـــالي لـــيس للنفـــع موضـــع	لـــدي و لا للمعـــتفين جنـــاب
ولا شـــدّ لـــي ســـرج علـــى ظهـــر ســـابح	و لا ضـــربت لـــي بـــالعراء قبـــاب
أنـــا الجـــار لا زادي بطـــيء علـــيهم	ولا دون مـــال للحـــوادث بـــاب

ولهذا أخذ الشاعر يعاني محبسين ، محبس أفضى به الى تقييد جسمه ، وآلا خر قيّد ذاته،ومنعها ممارسة أفعالها في مسرح الحياة.ولذا فإن غربته ثقلت،وآلامه تفاقمت.

أما مكان النفي فوفقا لتجلياته من انفراد،وشعور بالوحشة،وتزايد المعاناة،وخوف من القادم ((ومن حالة كهذه يطلق الإنسان الحسّاس المفكّر العنان لأفكاره، وأحاسيسه

---

١ ـ مشكلة الاغتراب: ١٢٦ مجلة عالم الفكر مج ١٠ الكويت ١٩٧٩.

٢ ـ ينظر دراسات في الأدب العربي: ٢١٢

٣ ـ الديوان: ٢٢٥.

٤ ـ الديوان: ٢٨.

يغربل ماضيه، وحاضره ويعيد النظر في مفاهيم الصداقة، وغير ذلك من الأمور التي تمسّ محنته من قريب أو بعيد))[1] .فنسمع منه أنات حرىّ، ونفثات وجدانية ملتهبة، نستشف منها أنّ الشاعر يعاني غربة نفسية اجتماعية فضلا عن غربته المكانية الموحشة، ((وتحصل غربة النفس عند الذين يشعرون بضياع حياتهم الفردية، وما فيها من علاقات، وروابط بشكل لاي سمح بإعدتها من جديد، وهو نوع من أنواع النفي، والطرد من عالم الإحساس بالانتماء، والدفء، العاطفي، والمغزى الاجتماعي))[2] ولم تكن تجربته هذه وليدة منفاه، إذ أنّ كارثته في أبيه لم تلد في قلبه الحزن وحده بل ،ولدّت –في نفسه - تجربة مبكّرة بالناس، وما تزخر به حياتهم، من غدر، وكيد، ومكر وظلم، وهي تجربة ظلّت أصداؤها تتردد في شعره[3] وزادتها الأحداث المختلفة في حياته حدّة إلى حدة .

لقد كثرت القصائد التي توجّه بها الشاعر لذّم أبناء قومه، إذ شكى حسدهم، وبغضهم له، وما يعانيه من غربة وهو بينهم إذ يقول[4]:

آه من فرقة وفقد حبيب	أورثا مهجتي عذابا مكيثا
لا تسلني عمّا أقاسي فإنني	بين قوم لا يفقهون حديثا

فعدم مشاكلتهم له، اشعره ،بعدم الانتماء لمجتمعهم، ممّا خلّف في نفسه غربة اجتماعية، كانت جذورها ممتّدة لأيام الصبا.

لقد عانى البارودي غربتين في منفاه ،الأولى مكانية، والثانية نفسية، إلا أن الأولى كانت أشد وطأة عليه، إذا ما قورنت بنظيره أبي فراس ويبدو أن هناك أسبابا تكمن وراء هذه الظاهرة تتمثّل في أن الغربة الاجتماعية التي يعيشها البارودي لم تكن جديدة عليه، بل هي وليدة طفولته، فانقطاعه عن مجتمعه، لم يترك أثرا في نفسه بقدر ما كان للمكان الجديد من أثر فاعل في تفاقم معاناته.

لقد نشأ البارودي في وسط اجتماعي مترف كان له الدور الرئيس في أن يحيا حياة هادئة

---

١ ـ تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث من (١٨٨١ ـ ١٩٣٨): ٥٦.

٢ ـ الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً: ٣١/ مجلة عالم الفكر/ الكويت ع ١/ مج ١٩٧٩/١/ عدد خاص.

٣ ـ ينظر: البارودي رائد الشعر العربي الحديث: ٤٧

٤ ـ الديوان: ٨٢/١.

منعمة ترفل بكل مظاهر العزّ والخير، حتى غدت تلك الحياة من مظاهر شخصيته[1].فتعودّه الرخاء، والراحة هما اللذان ولّدا في نفسه اشمئزازا من مكان نفيه، الذي يفتقر لأبسط مقوّمات الحياة، وهذا ما حدا به لمحاولة الخلاص، وبشتى الطرق من ذلك المكان، حتّى ولو لغير وطنه.يضاف إلى هذا فأن فشل الشاعر في تحقيق طموحاته السياسية، خلق فجوة واسعة بينه وبين أبناء شعبه الذين كانوا –في نظره –السبب الرئيس في ذلك الفشل فضلا عن إخفاقه في تحقيق تلك الطموحات تسبب عن انقطاعه في كل الروافد التي وظّفها لأجل تلك الأهداف، كالحرب، والتفّني بالكرم والجود، إذ لم تعد بذات جدوى بعد تقدّمه بالعمر، إذ وقر في نفسه أن لا أمل للمصريين به بعد.

في حين أن أبا فراس – وعلى الرغم من غربة المكان التي طفحت في شعره إلا أنها لم تشكّل عبأ عليه قياسا بتألّمه من الغربة النفسيةوهذا يعود الى تعود الشاعر النزول في الأماكن الموحشة، وبالبعد عن أهله وذويه طبقا لما تمليه عليه متطلّبات الحرب التي أصبحت شاغله الرئيس.فضلا عن أن مكان أسره عند الروم كان أفضل بكثير من مكان نفي البارودي، وهذا ما أثبتته جميع المصادر التي تناقلت أخباره في الأسر[2].

إن الخدمات الجليلة التي قدّمها الشاعر لقومه جعلت من جفائهم له، وعدم الإسراع في فديته هاجسا يقضّ مضاجعه ليلا ونهارا ،ولذا صار انشغاله بهذا الأمر، ورجائه في إنهاء أزمته وعودته الى ساحات عزّه هو الشيء الأكثر تحكما في تفكيره من معاناة المكان الذي يقبع فيه ،ولذا فلم تتولّد في نفسه حالات من اليأس والقنوط ولم يحاول هجاء أحد من بني حمدان أو التنكيل بهم أملا منه في انفراج معاناته ،وحرصا على رأب الشدخ الذي حصل بينهم وبينه .على خلاف البارودي الذي يأس من كل الطموحات التي كان يأمل بتحققها حتّى آلت به الأمور الى التفكير في نفسه فقط دون مداراة لأحد ،وكأنّنا نستشف من شعره أنه توجّه بالهجاء لكل أبناء شعبه . إذ لم يعبأ بالابتعاد عنهم بعد أن عّدهم سببا في المأساة التي حلت به لذا نجده يقول[3]:

ظنّوا ابتعادي إغفالا لمنقبتي   وذاك عزّ لها لو أنهم فطنوا

فإن كنت سرت عن أهلي وعن وطني   فالناس أهلي وكل الأرض لي وطن

---

١ ـ ينظر البارودي رائد الشعر العربي الحديث: ٤٦ ـ ٤٧.

٢ ـ ينظر أعيان الشيعة: ٢١٨ /٣٠٢.

٣ ـ ديوان البارودي شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

بلــــوتهم فـــسئمت العــــيش وانــــصرفت نفسي عن الناس حتّى ليس لي شجن

فــإن يكــن فــاتني مــا كنــت أملكـــه فالبعــد عــنهم لمــا أتلفتـــه ثمـــن

فلم ييأس الشاعر على كل ما فقده ، إذ أنّ فراق هؤلاء أغناه عن كل شيء ، فكأنّ المنفى صار ثمنا للتخلّص منهم ، ولذا ظلّ يعاني غربة المكان الذي هو فيه ، يتجلّى ذلك من توسّله لكي يتخلّص منها ، حتّى ينقل إلى ((كندى)) إذ ((نلحظ تطورا آخر في حياته النفسية بعد قدومه إلى ((كندى)) التي تبعد حوالي ٧٠ميلا عن منفاه ، فعاطفته أخذت تقوى وتنمو ، فخطب في المساجد ، ووعظ الناس ، وقرأ لهم الكتب الدينية))[1] وهذا يعني أن الشاعر وجد في كندى ما يعوّضه عن مجتمعه ، ولذا بدأت نفسه تتطامن ، وينتابها شيء من الأمل وهذا كلّه يؤكد ما ذهب إليه الباحث.

إن ثقل الاغتراب ، وشدّة وطأته دفعا الشاعرين للبحث عمّا يعادلهما ، آملا منهما للانفلات من الواقع المرير الذي يعيشانه فلقد وجد أبو فراس في الماضي ملاذه الأول .إذ أنّ ((تذكّر تجارب الماضي السارّة قد ينسي الحاضر المؤلم ، وتعيش ماضيك وتنغمس فيه انغماسا تشعر فيه بالغبطة والسرور))[2]. من هنا بدا الشاعر التغني بماضيه ، وبما يجده من صفات ذاته التي هي من دعائم المجتمع العربي آنذاك فقد تحرّكت عاطفة الكرم ، والشجاعة عنده ليقول[3] :

فقـــــد الـــــضيوف مكانـــــه وبكـــــاه أبنـــــاء الـــــسبيل

واستوحـــــــــشت لفراقـــــــــه يـــوم الـــوغى ســـرب الخيـــول

وتعطّلـــــــت سمـــــــر الرمـــــا ح وأغمـــدت بـــيض النـــصول

إننا ومن خلال هذه الأبيات نستشف أنّ الشاعر قد أنتابه شعور بالتفرّد بين أبناء قومه ، وأنه لا يعوض وشعوره هذا إشارة واضحة لذاته بأنها لا يسد مكانها اجتماعيا الأمر الذي حدا بها لتتغنى بما يجعلها مسرحا لإثبات وجودها ، وتميزها عن الآخرين ، بقصد إضفاء حالة من الزهو عليها ، آملا في أن تعيش حالة من الاطمئنان بالعودة لذلك المسرح. أن كل ما يفعله الشاعر عملية هروب ، إذ يهرب الشعراء من واقع قاسٍ أثقل عليهم بغربة عزلتهم عن مجتمعهم حينا ، وعن ذواتهم

---

١ ـ محمود سامي البارودي/ علي الحديدي: ١٧٠.

٢ ـ دراسات في علم النفس الأدبي: ٥٧.

٣ ـ الديوان: ١٩٤.

حينا آخر، إلى ماض قد يجدون فيه ما يّخفف آلام الغربة، ويلطّف من قسوتها مهما كان ذلك الماضي[1] وتأكيدا لحيوية تلك الذات، ومواصلة للزهو الذي تعيشه بانفلاتها من الواقع، حاول الشاعر أن يعرض علينا المكانة المرموقة التي حظي بها عند الروم وعرضهم عليه الفداء منفردا[2] وذلك ليحث سيف الدولة على الإسراع بفدائه أولا، ولاشعار ذاته بالقيمة التي كان يتمتع بها قبل أسره وأثنائه ثانيا فهو يقول[3]:

تشبث بها أكرومة قبل فوتها ... وقم في خلاصي صادق العزم وأقعد

فلا كان كلب الروم أرأف منكم ... وأرغب في كسب الثناء المخلد

ولا بلغ الأعداء أن يتناهضوا ... وتقعد عن هذا العلاء المشيّد

إن تغنّي الشاعر بما لقيه عند أعدائه هو إعزاز لثقته بنفسه، وإظهار لمكانتها بين قومه، إذ ما زالوا بأمس الحاجة له. ولذا أخذته حالة من الاعتداد بالنفس والشعور بالكبرياء فوظّف ذلك كلّه، وصوّبه تجاه بني حمدان، إذ لا استغناء عنه، فلا أحد يمكنه أن يحلّ محله، ولذا عليهم فداءه، لأنّه يعود عليهم بالشرف والمنزلة العالية فهو يقول[4]:

فإن تفتدوني تفتدوا شرف العلا ... وأسرع عواد إليهم معود

وإن تفتدوني تفتدوا لعلاكم ... فتى غير مردود اللسان ولا اليد

ولم يكن التغنّي بالماضي المشرّف، ولا التفاخر بالمكانة المتميّزة بين الأعداء، ملاذ الشاعر الوحيد هربا من غربته بل راح يتخّذ من الإسلام رمزا يداعب من خلاله مشاعر العرب، والمسلمين اشعارا لهم بأن وقوعه في الأسر كان لأجل الإسلام مما سيدفعهم باتجاه المطالبة بفكاك اسره وانهاء معاناته وكأنه كان يقود حملة إعلامية لتبرير وقوعه في الاسر الذي لامه الكثيرون عليه . وغاية ذلك إرضاء نفسه الثائرة، ليخفف شيئا من همومها، وليزيح من غربتها ما يعيد الامل فيها إذ أن ((العامل الإلهي هو وحده الذي يستطيع أن ينتصر على

---

١ - ينظر الاغتراب في الشعر العراقي - مرحلة الرواد: ٥٦.

٢ - ينظر: أبو فراس الحمداني: ٥٧.

٣ - الديوان ٦٥ - ٦٦.

٤ - المصدر نفسه: ٦٦.

العزلة))[1] ولذا نجده يقول[2]:

وأحـــــوط للإســــــلام أن لا يـــــضيعني ولـــي عنـــك فيـــه حوطـــه ومنـــاب

أما البارودي فعلى الرغم من كل محاولات الشاعر السابقة ، التي سعى فيها للتخفيف من أزمته النفسية ،فقد كانت تمرّ عليه لحظات عصيبة في منفاه لا يقوى على مقاومتها ، والصمد بوجهها .ولذا أجهد نفسه في الانفلات من واقعه الى واقع يشعر أزاءه، ببعض الزهو والاطمئنان، وشيء من الحيوية لتلك الذات المعطّلة ،فقد حذا حذو أبي فراس في اتخاذه الماضي الجميل تعادلية لليأس الذي دبّ فيه نتيجة لفقدانه طعم الحياة والتحّسر عليها إذ أن ((للماضي نكهة خاصة عند الإنسان، لاسيما ذلك الذي أثقلت أحزان الحاضر كاهله، وأخذ الاغتراب بخناقه، فالماضي على وفق هذا التصوّر مرفأ يرتاده الشاعر فرارا من الألم، والتماسا للراحة، وأن كانت في الحلم والخيال))[3] وهذا ما صار اليه الشاعر إذ يقول[4]:

أنـــسيم ســـرى بنفحـــة رنـــد ؟ أم رســـول أدى تحيـــة هنـــد

أطـــريتني أنفاســـه فكـــأني ملـت سـكرا مـن جرعـة مـن (برنـدى)

وأخـــو الوجـــد لا يـــزال طروبـــا يتبـــع الـــشوق بـــين ســـهل وفنـــد

طـــال شـــوقي الى الـــديار ولكـــن أيـن مـن (مـصر) مـن أقـام (بكنـدى)؟

حبّـــذا النيـــل حـــين يجـــري فيبـــدي رونـــق الـــسيف واهتـــزاز الفرنـــد

تتثنـــــى الغـــــصون في حافتيـــــه كالعـــذارى يـــسحبن وشـــى الفرنـــد

كلّمـــا صـــورته نفـــسي لعـــيني قـــدح الـــشوق في الفـــؤاد بزنـــد

لـــست أقـــوى علـــى الزمـــان وأن كنـــــت أفـــل العـــدا بقـــوة زنـــدي

هذه الذكرى التي يسعى اليها الشاعر هي بديل واقعه الذي يصفه بقوله[5]:

---

١ ـ العزلة والمجتمع: ١٢٠.

٢ ـ الديوان: ٣٠.

٣ ـ الاغتراب في مرحلة الشعر العراقي/ مجلة الرواد:٥٢.

٤ ـ الديوان:١ /١٨١ ـ ١٨٢.

٥ ـ الديوان: ٢/٢٣٢.

ولكـــــنني أصـــــبحت في دار غربـــــة مقيمـــا لـــدى قـــوم علـــى البـــد عكـــف

زعـــــــانف هـــــــداجون في عرصـــــــاتهم كخـــيط نعـــام بـــين جـــرداء صفـــصف

حفـــــاة عـــــراة غـــــير أخـــــلاق صـــــدرة تطـــير كنـــسج العنكبـــوت المـــسدّف

لقد طال به العهد بعيدا عن ملاعبه، حتّى تقطّعت خيوط الوصل بينه و بين من يحب، إذ حلّ محلهم من لا يحبّهم ولا يستطيع أن يتعايش معهم ، لذا حاول الهرب من هذا الواقع، خوفا من إلغاء انتمائه لأهله ومجتمعه، بعد أن فرض عليه مجتمع جديد عليه بكل معطياته.

ولم يكن انفلات الشاعر من واقعه انفلاتا مكانيا ، أو مجتمعيا فقط بل راح ينشد الانفلات الروحي ، بعيدا عن كل شيء في منفاه، قريبا من كل ما يذكّره بمواطنه ، و مرابع عزّه. حتّى أخذ يعيش غرامياته التي عاشها من قبل، وكأنه يدور بعينيه بين نواحي مصر المختلفة، وكل ذلك مداواة لذاته المنكسرة، وبعثا للأمل فيها اذ يقول[1]:

هـــل مـــن فتـــى ينـــشد قلـــبي معـــي بـــين خـــدور العـــين بـــالأجرع

كـــان معـــي ثـــم دعـــاه الهـــوى فمّـــر بـــالحيّ ، ولم يرجـــع

فهـــــل إذا ناديتــــــه باسمــــــه يفيـــق مـــن ســـكرته أو يعـــي

هيهـــات يلقـــى رشـــدا بعـــدما أغـــواه لحـــظ الرشـــا الأتلـــع

فيـــا دمـــوع القطـــر ســـيلي دمـــا ويـــا بنـــات الأيـــك نـــوحي معـــي

إلى أن يقول:

فهـــل إلى الأشـــواق مـــن غايـــة؟ أم هـــل إلى الأوطـــان مـــن مرجـــع؟

لقد وظّف غزله هربا من واقع مرير ، والعودة إلى ماضٍ ينشد الراحة والدعة((وهذا من شأنه تقوية الحياة الداخلية، إذ يجد ملاذا يلجأ إليه هربا من الفراغ، والفقر الروحي))[2].

وهنا يمكن لنا أن نتلّمس الفارق بين ماهّية الماضي الذي لجأ إليه أبو فراس ، والماضي الذي تغّنى به البارودي. إذ أخذ كل منهما بما وجده متلائما ومتطلّبات ذاته. فكانت الحرب، وكان

١ - المصدر نفسه: ٢/١٩٢ - ١٩٤.

٢ - الإنسان يبحث عن المعنى: مقدمة بالعلاج بالمعنى: ٦٤.

الكرم، وإغاثة الملهوف، وعظيم المكانة من مستلزمات الذات الطموح التي يتمتع بها أبو فراس،فصارت الموطن الذي يدمل جراحه، ويداوي آهاته وهو يعاني ألم الفراق والغربة في حين نرى أنّ البارودي ترك الحرب ،وترك كل ما من شأنه أن يتّصل بها على الرغم من أنّها كانت تشكّل جزءا كبيرا من حياته الماضية ،وأتجّه للتغنّي بأيامه الجميلة في القصر الملكي حينما كان يتمتّع بشيء من السلطة والجاه ويتنّقل بفؤاده حيث يشاء داخل وخارج القصر وهذا يكشفّ عما تطمح إليه نفسه وما تتمنّاه،فضلا عن أنّ هذا يثبت لنا ندم الشاعر على مسيرته السياسية التي اودت به إلى النفي،وذلك ما لم نجده عند أبي فراس.

على أنّ هروب الشاعر من حاضره لم يدم طويلا ،إذ سرعان ما يضيق على حياة البؤس والشقاء التي تعوّدها في منفاه،ولذا فقد سعى جاهدا لأيجاد التعادلية الدائمة لغربته التي من خلالها يمكنه أن يعيش شيئا من الراحة والهدوء ،فلم يحفل بمطلبه شيء إلا الزهد. ولعلّ قوله في الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التي غلبه فيها اليأس على أمره ،وهو وحيد شريد يعاني غصص الفراق والنفي، وإلا فهذه النفس الطموح التي خاطرت وغامرت ،وتطلّعت الى الملك ،وتلذّذت ،ونعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد في الحياة ولعلها لم تزهد إلا مرغمة[1].

إن توالي الأزمات النفسية عليه ،وإحساسه بأن صراعه من أجل الوصول إلى أمانيه قد ذهب ادراج الرياح، دفعه الى التوجه لله وحده ،والزهد في هذه الدنيا الفانية، إذ يقول[2]:

ألام يهفـــــو بحلمــــــك الطــــــرب	أبعـــد خمـــسين في الـــصبا أرب
هيهــــات ولى الـــشباب وأقتربـــــت	ســــاعة ورد ونابهـــا القـــرب

فلو لم يذهب الشباب، ويقترب من الموت ،لما عزف عن الحياة،ودعا الى الآخرة فهو يقول:

فلـــيس دون الحمــــام مبتعـــــد	ولـــيس نحـــو الحيـــاة مقـــترب
كــــل أمــــرء ســــائر لمنزلــــة	لــيس لـــه مـــن فنائهـــا هـــرب

وهنا يتجلّى اليأس بأقسى صورة، لاسيما بعد فشل كل المساعي، لإنهاء معاناته، فالموت يقترب نحوه،وهو مستسلم له، بعد أن أبتعد عن كل ما يذكرّه بحياته الماضية الجميلة بما فيها من عز،وطموح ،وكأنني بالشاعر ،وقد طبعت الحياة بسوادها القاتم عليه، فأماتت كلّ طموحاته، وآماله، وحوّلته إلى حكيم يحثّ الناس على الزهد في حياة لا طائل من ورائها، مادام

١ - ينظر في الأدب الحديث: ١ /٢٣١.

٢ - الديوان: ١/٦٨ - ٧٢.

شبح الموت يطاردهم ،إذ ليس منه نجاء. لقد ترك السجن - بعد إن طال - على نفسه ظلّا من الضيق والكآبة، واليأس، فاستسلم إلى مصيره، وتوّجه إلى الله يلتمس العزاء، والمغفرة ،بل يخلص له الدعاء،كي ينتشله من محنته هذه ،إذ يقول[1]:

سل مالك الملك فهو الآمر الناهي	ولا تخسف عاديا فالحكم لله
هو الذي ينعش المظلوم إن علقت	به الرزايا ،ويجزي كلّ تيّاه
فاسجد له واقترب تبلغ بطاعته	ما شئت في الدهر من عزّ ومن جاه
يا رب قد طال بي شوقي إلى وطني	فاحلل وثاقي ،وألحقني بأشباهي
وامنن عليّ بفضل منك يعصمني	من كلّ سوء فإني عاجز واهي
هذا دعائي ،وحسبي أنت من حكم	يعنو له كلّ شاه أو شهنشاه

فهو يهرع إلى الله يستغيثه كي يقيله من عثرته ،ويسأله أن يحلّ وثاقه ويفكّ أسره ليعود إلى وطنه الذي يشتاق إليه كثيرا .ويبدو أن الشاعر اتخذ الدين ملاذا آمنا،تعويضا لغربته، وطريقا للتوبة والمغفرة،عسى أن يمنّ الله عليه برؤية وطنه من جديد.

ومع كل المنافذ التي حاول الشاعران أن يسلكاها لفكّ طوق الاغتراب الذي ألقى بضلاله عليهما نجدهما بقيا يستشعران الغربة بكل أنواعها واتجاهاتها .ولذا فقد طفح شعرهما بالحنين المتوهج ليعبّرا عمّا يختلج ذاتيهما من أحاسيس.فقد عرف أبو فراس الحمداني من بين الشعراء بقوّة العاطفة.ولذا نجد أن الحنين من السجايا الملازمة له في غربته .وهذا يعود – بطبيعة الحال – إلى الخصال الكريمة التي يتمتع بها الشاعر كعراقة نسبه،وحسن خلقه.إذ يقول أبو عمرو بن العلاء ((مما يدل على حرية الرجل، وكرم غريزته حنينه الى أوطانه، وتشوقه الى متقدم أخوانه،وبكاءه على ما مضى من زمانه))[2]

وقال الجاحظ: ((الحنين من رقّة القلب،ورقّة القلب من الرعاية،والرعاية من الرحمة، والرحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من كرم المحتد))[3]. فعاطفة أبي فراس المبنية على رقّة قلبه، واتصافه بالرحمة،فضلا عن تعّوده أجواء الحرّية ولدّت في نفسه حنينا عارما تجاه أهله ووطنه،

---

١ - ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٩٢.

٢ - زهر الآداب: ٢/٦٨١.

٣ - رسائل الجاحظ: مج١/ج٢/٣٨٦.

وساحات عزه.

فقد أحتل حنينه الى أهله ومحبيه الحيّز الأكبر،مقارنة باتجاهات الحنين الأخرى لديه. إذ مما لاشك فيه أنّ الإنسان حين يبتعد عن وطنه أول ما يشخص أمامه أهله واخوانه، ممّن كان يأنس بهم، ويشعر بالعّز والقوة والمنعة إزاءهم.

لقد سكن أبو فراس قصرا بمفرده يطلّ على البحر في قسطنطينية الروم[1]، فكانت أمواج ذلك البحر تهدر في نفسه، فتذكي إحساسه بالوحشة، والغربة، فيزفر زفرات تقطّع القلب، تتحول إلى قصائد تحمل في طّياتها حنينا فيّاضا، يعبّر عن ألم الشاعر، وشوقه، ومعاناته.لذا فأن ((صورة أسره ما تزال بصدقها ،وحرارتها ،وعفويتها أثرا خالدا من أخلد صور الأسر في الأدب العربي))[2] وعندما ينتابه القلق والحيرة يحاول أن يذكر كل شيء في الشام إذ يقول[3]:

لأيّكـــــــــم أذكـــــــــــر ؟	وفي أيّكـــــــم أفكّـــــــــر
وكــــــم لــــــي علـــــى بلــــدة	بكـــــــاء ومــــــــستعبر
ففــــــي حلــــــب عــــــدتي	وعـــــــزّي والمفخــــــــر
وفي منـــــبج مـــــــن رضـــــا	ه أنفــــــس مـــــا أذخــــر
ومـــــــن حبّـــــه زلفــــــة	بهــــــا يكــــــرم المحــــشر
وأصــــــــبية كــــــــالفراخ	أكـــــــــبرهم أصــــــــفر
وقــــــــوم الفنــــــــاهم	وغــــــصن الــــصبا أخـــضر
فحزنــــــــــي لاينقــــــضي	ودمعـــــــــــي لا يفــــــتر
وماهـــــــــــذه أدمعـــــــــي	ولا ذا الــــــــذي اضـــــمر
ولكـــــــن أداري الـــــــدموع	وأســـــــتر مـــــا أســـــتر

---

١ ـ أعيان الشيعة: ١٨/١٠٢.

٢ ـ الوطن في الشعر العربي: ٣٦١.

٣ ـ الديوان: ١٣٠ ـ ١٣٠.

إنّ شوقه ملتهب ،وبكاءه مستعر على الرغم من محاولته الظهور بمظهر المتجلد.فشعره في هذا الباب صورة دقيقة لحاله ،وما يعانيه من مرارة و لواعج ملتهبة،ومن فراق وحسرة.

فانظر إليه وهو يكتب من أسره إلى أخيه أبي الهيجاء[1]:

تقـــــرّ دمـــــوعي بـــــشوقي إليـــــك ويـــشهد قلــــبي بطـــول الكـــــرب

وإنـــــــي لمجتهـــــــد بـــــــالجحود ولكــــنّ نفـــسي تـــأبى الكـــذب

وإنـــــي عليـــــك لجـــــاري الـــدموع وإنـــــي عليـــــك لـــصبّ و صـــب

فالشاعر عبّر عن حرارة شوقه وشدته لأخيه أبي الهيجاء بهذه الأبيات التي تبلغ الذروة في المعاناة والحزن والألم ،فهي صورة صميمة لعذابه ولوعته ،إذ مهما حاول التمويه على مشاعره فهو لا يتمكن . فدموعه دائمة الجريان ،وإنه كلف هائم دائم على هذا الحال .

ولم يتردد الشاعر من توظيف حنينه لحثّ الأمير سيف الدولة على النظر بصدق لحاله ومعاناته كي يسرع في دفع فديته ، من ذلك قوله[2]:

إن في الأســـــــــــــر لـــــــــــصبًا دمعـــــــــــه للخـــــــــدّ صـــــــب

هـــــــو بـــــــالروم مقـــــــيم ولـــــــه بالـــــــشام قلـــــــب

مـــــستجدًا لم يـــــــصادف عوضـــــــا عمّـــــــا يحـــــــب

فهو الولهان المشتاق في بلاد الروم، بين جدران الأسر، غزير الدمع،بعيد عن مواطن الأهل والأحبة،ومجمع أوطار الفؤاد في حلب وفي غيرها،من بلاد الشام مسرح أيام شبابه الذي لم يتمتع به،فقلبه هناك، وجسمه أسير عند الأعداء، وهيهات أن يجد من يعوّضه عن أهله، وأحبّائه ووطنه.

لقد عملت آصرة المحبّة المتميزة بين الشاعر وأمه على الاستيلاء على القسم الأكبر من شوقه وحنينه .فقد أنّ وتوجّع لها كثيرا لاسيّما إذا ما عرفنا أنّه وحيدها إذ يقول[3]:

يـــــا حـــــسرةً مـــــا أكـــــاد أحملـــــها آخرهـــــا مـــــزعج وأولهـــــا

---

١ ـ المصدر نفسه: ٤٣.

٢ ـ الديوان: ٤٨.

٣ ـ المصدر نفسه: ١٧٨.

عليلة بالشام مفردة بات بأيدي العدى معللها

تمسك أحشاءها على حرق تطفأها والهموم تشعلها

إن حسرته على أمه أنسته حسرته على نفسه ،وألمها غطى على ألمه، فبات والهم يلفه إزاءها. إذ لا يملك إلا تلك الزفرات التي حاول من خلالها تهدئة روعها وتسبيرها.

لم يبق أحد في الأمارة إلا ووصله شوق الشاعر ولهيب قلبه المستعر، إلا زوجته فلم نجد لها ذكرا في كل رومياته، ويبدو إن هذه المسألة مرتبطة بنفسية فرسان العرب لا بنفسية أبي فراس وحده، فهم يخاطبون الزوجات عند النصر لا عند الهزيمة ،وأنهم يتباهون بشجاعتهم أمامهن، ولا يكون لهنّ عند الهزيمة، إذ أن الفارس العربي يظهر أمام أنثاه عند النصر، ويتوارى منها خجلا إذا هزم[1].

ولذا توارى أبو فراس أمام زوجته ولم يذكرها وهو المهزوم الأسير على الرغم من أننا لم نجده قد عدّ الأسر هزيمة ،فهو يفتخر بثباته على القتال غير نادم على ما آل إليه من مصير.

لقد خلط الشاعر حنينه إلى أهله بحنينه إلى ذلك الوطن الذي أحسّ بدفئه ،وغمره بعزّه أينما ولّى بوجهه في ربوعه.فلقد أطلّ علينا أبو فراس بلوحات عريضة فيها صدق الخفقان، وحرارة الأشواق، وفيها التلّفت الوجيع إلى ديار العز، ورباع الصبا، وملاعب الشباب ،ويهزّك قلم غمس في الجراح، وراح يملي على الأنفس الموجعة روائع تنضح بالدماء ،فأسمعهم ما يعبّر عن خوالج آمالهم، وبوارق أحلامهم،ويحدّثهم عن شقاوة الرفعة عندما تصطدم بالمذلة، وعن ضنك الإباء عندما تصرعه المسكنة ،وعن صولة الإمارة عندما ينغلق عليها الأسر، لا بل عن حسرة القمم والرواسي، عندما تلفها الأوداء والمنخفضات [2].

وكأنني بظروف الشاعر الخاصّة قد انعكست حنينا للوطن، واشتياقا للأرض، وإخلاصا للقريب.فقد علق ذهنه في وصف مكان الأهل والأحبّة ،حتى أصبح خاصية في نشاطه الفني، يعبّر من خلاله عن همومه ومآسيه التي علقت بذاكرته، فحرّكت وجدانه للتعبير عن مكنوناته الذاتية في تفرّدها ووحدتها المنغلقة على ذاتها، ودوافعه المحيطة به[3].فحينما تهبّ عليه نسمات منبج العليلة، يتقبلها، وقد فتح صدره، وأخذته نشوة الماضي عندما كان يعيش في ربوعها الجميلة

---

١ ـ ينظر: شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ (العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع): ٢٨٤.

٢ ـ ينظر: أبو فراس الحمداني/ دراسة في الشعر والتاريخ/١٠١.

٣ ـ ينظر: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي/ دراسة: ٢٤٣.

فيقول[1]:

قــــف في رســـوم المـــستجا	ب وحيــي أكنــاف المــصلى
فالجوســـق الميمـــون فالـــسـ	ـــقيا بهـــا فــالنهر أعلــى
تلـــك المنــــازل، والملا	عـــب ،لا أراهـــا الله محـــلا
أوطنتهــــا ،زمن الـــصبا،	وجعلــت منــبج لــي محّــلا
حيـــث التفــتّ رأيــت مــا	ء ســـابحا ،ووجـــدت ظـــلاّ
وتحـــلّ بالجــسر الجنـــا	ن؛وتــسكن الحــصن المعلــىّ
والمـــاء يفـــصل بـــين رو	ض الزهـــر ،في الــشطين فــصلا

الى أن يقول:

فلـــئن خلـــصت فـــإنّني	شـــرق العـــدى ،طفلا، وكهـــلا
مـــا كنـــت إلا الـــسيف زا	د علـــى صـــروف الـــدهر صــقلا
ولـــئن قتلــــت فأنمـــا	مـــوت الكـــرام الـــصيد قـــتلا

ويبدو أنّ الشاعر –من خلال أبياته السابقة –لم تكن غربته وحنينه بسبب البعد عن القبيلة ومضاربها فقط، بل سببهما البعد عن الجزيرة العربية كلها ،عن معالمها، وعن الأهل هناك، وعن نمط الحياة فيها ،وعن طبيعتها ،ونلمح في هذا اللون الجديد من الحنين، الضيق الشديد بالغربة، وبلورة الشعور العاطفي تجاه مسقط الرأس، فكل شيء في المكان الجديد، يذّكر الشاعر بوطنه، ويشبه جزيرته الجمال، والنوق، والحمام، وأسماء الأمكنة، وأشجار النخيل[2].لذا فإنّ تذكّر الشاعر المعالم الجغرافية لمدينته منبج ،يعني أن شوقه وصل حدّا كبيرا ،فهو يتغنّى بها ،لأنّ الخيال أخذه فأوقفه على أحد رباياها ، ينظر بتمعن إلى تلك الأماكن، فتتجلّى له الذكريات، فيستشعر عزّه، ومجده الماضيين.

---

١ . الديوان: ١٩١ . ١٩٢.

٢ . ينظر: الوطن في الشعر العربي: ٣٤٣

ولا شك في أن الشاعر قد سكب دموعا على ذلك الماضي، وتلك الديار، وكأننا نشعر أنّ كبرياءه قد أندحرت أمام عظمة شوقه،وألم غربته .ولذا فأنه سرعان ما استفاق ليتدارك الضعف واليأس الذي حلّ به،ليعود فيفخر بنفسه، وقوّته أمام الأعداء، إذ يأبى أن يكون الأسر قد نال منه،فهو كالسيف لم يزده الدهر إلا صقلا، ولمعانا، وإذا ما قتل فأنه فخور لأنه سيموت ميتة الكرام لا الجبناء.

إن أبا فراس حنّ إلى كل بلاد الشام ،أهلها ،ومرابعها ،وصحرائها،لأنه آلفها وتعايش معها ((فالإنسان بطبيعته ميّال إلى ما يألفه،فإذا غاب عنه أفتقده ،وشعر بدافع قوي يدفعه إليه))[1] .

إلا أن المجال الأرحب الذي كان شوقه يدفعه إليه هو الحرب،ومنازلة الفرسان[2].لأنّها المجال الأوسع –في نظره– لتحقيق ذاته ولذا نجده يقول[3]:

دع العبرات تنهمر انهمارا	ونار الوجد تستعر استعارا
أتطفأ حسرتي وتقرّ عيني	ولم أوقد مع الغازين نارا
رأيت الصبر أبعد ما يرجّى	أذا ما الجيش بالغازين سارا

فهو دائم الحزن كثير الحسرات ،لم يجد الصبر معه نفعا في هذه الحال كونه منع الحرب.وهذا المنع ولّد لديه غربة روحية أفرزت شوقا عارما الى تلك السوح .

فحين لاتجدي وسائله نفعا اللحاق بالفرسان ،يعود ليتغنّى بماضيه الحربي ،علّه يجد فيه التعويض، إذ أن ((للتاريخ والبطولات سحرا خاصا عند الشاعر،إذ يحقق من خلال التغنّي به كثيرا من طموحه،الذي يعجز عن بلوغه في مجتمعه ولحظته الحاضرة))[4] ولذا نجده يقول من القصيدة نفسها[5]:

وقد ثقفت للهيجاء رمحي	وأضمرت المهاري والمهارا

---

١ . الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث: ٢٨٨.

٢ . ينظر: أبو فراس الحمداني/ رحلة الحياة ومسيرة الموت، مع مختارات شعرية: ٢٢.

٣ . الديوان ١٠٠.

٤ . الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر: ٣٥٣.

٥ . الديوان: ١٠٠ . ١٠١.

وكان اذ ادعانا الأمر حفّت بنا الفتيان تبتدر ابتدارا

بخيل لا تعاند من عليها وقوم لا يرون الموت عارا

ستذكرني إذا طردت رجال دققت الرمح بينهم مرارا

وأرض كنت املأها خيولا وجو كنت أرهجه غبارا

إن الضياع، والشعور الحاد بافتقاد الوطن، والحيرة الشديدة، الناتجة عن اصطدام بالواقع المأساوي دفعت البارودي باتجاه العودة الى الماضي ،ليعيش في الخيال ،فتثور في نفسه الجراح وألوان العذاب،وتلّح على باله فكرة الوطن الضائع فتمزّق نفسه[1]. ولذا فان الشاعر استوطن عوضا عن وطنه البكاء، والأسى،فصار حليفه،ليرسله زفرات موجعه معّولة، إذ يرسب في اعماقه حزن عميق دائم،من جرّاء المصائب المهيضة للجناح،القاسمة للظهر وتتعدّد الذكريات ،فتتلوّن الدنيا بصيغة السواد، والألوان الداكنة،وتصطبغ بطابع الألم، والقتامة. فنقرأ له حنينا إلى وطنه حمل كل ذلك في طيّاته.

إن حنين البارودي ينقسم على قسمين، الأول كان شوقا إلى وطنه ، ومرابع صباه، وقد أخذ الحيّز الأكبر من ذلك، أما الآخر فهو بكاء أهله، وأولاده، وأصدقائه.

إنْ ما يربط الإنسان بوطنه حبّ يفوق كلّ حب، وهو رابط مقدس لا يعدله أيّ رابط،إذ ينشأ الحبّ فطرة،ويقوى فطنة، وينمو، ويترعرع أصالةوقد قيل فطرة الرجل معجونة،بحبّ الوطن، وحبّ الوطن ليس منة، بل فرض وواجب، وينبغي أن يكون حبّا لا يشوبه طمع، ولا تخالفه نزوة لأنّه قدسي يستعصي على الجحود[2].

لقد قال البارودي في منفاه- القصائد الخالدة التي بّثها شكواه وفيها يحّن للوطن، ويصف كل ما حوله ،ويراسل الأدباء، ويتلّهف على ذكر مرابعه، ويتتبع أخباره بمنتهى الدقّة،إذ لم يفتر حنينه الى الوطن طوال نفيه ،ولم تخف وطأة آلامه ،يوما من أيام محنة الاغتراب [3]فمن مناجاته الوجدانية لوطنه قوله[4]:

---

١ ـ ينظر: الحنين إلى الأوطان في شعر ابن الآبار وحازم القرطاجني: ٨٣

٢ ـ ينظر: الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام: ٤٩ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية الآداب الجامعة المستنصرية/١٩٨٨.

٣ ـ ينظر: محمود سامي البارودي: ١٦٩.

٤ ـ ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٦٢ ـ ٥٦٣.

وأطـــول شـــوقي اليـــك يـــا وطـــن ... وإن عـــزتني بحبّـــك المحـــن

أنـــت المنى، والحـــديث أن اقبـــل الـــصـ ... ـــبح، وهمي أن رنّـــق الوســـن

فكيـــف أنـــساك بالمغيـــب ولـــي ... فيـــك فـــؤاد بـــالوّد مـــرتهن؟

لـــست أبـــالي وقـــد سـلمت علـــى الـــد ... هـــر إذا مـــا أصـــابني الحـــزن

لقد أستطاع الشاعر بهذه الأبيات ،أن يعّبر عن ذاته ،بعبارة شريفة ،وإبانة صادقة ،عن كلّ سريرة من سرائره، وتتعدد اللوحات التي رسمتها ريشته لتفصح عمّا يكنّه قلبه من حبّ، وشوق لوطنه، فقد سجّل لنا في((لوحة الوداع)) الخالدة، مشاعره المختلفة في أطار حزين، فبينما اليأس يجثم بكآبته على جانب من جوانب الصورة، يضيء شعاع الأمل بجانبها الآخر. فخرجت قصيدة ((محا البين)) فنّا جديدا لمبدع يعاني الألم العبقري[1].

فهو يقول[2]:

محـــا الـــبين مـــا أبقـــت عيـــون المهـــا منّـــي ... فـــشبت ولم أقـــض اللبانـــة مـــن ســـنّي

ولّمـــا وقفنـــا للـــوداع وأســـبلت ... مـــدامعنا فـــوق الترائـــب كـــالمزن

أهبـــت بـــصبري ، أن يعـــود فعزّنـــي ... وناديـــت حلمـــي أن يثـــوب فلـــم يغـــن

ولم تمـــض إلا خطـــرة ثـــم أقلعـــت ... بنـــا عـــن شـــطوط الحـــي أجنحـــة الـــسفن

فكـــم مهجـــة مـــن زفـــرة الوجـــد في لظـــى ... وكـــم مقلـــة مـــن غـــزرة الـــدمع في دجـــن

ومـــا كنـــت جرّبـــت النـــوى قبـــل هـــذه ... فلّمـــا دهـــتني كـــدت أقـــضي مـــن الحـــزن

ولكـــنّني راجعـــت حلمـــي وردّنـــي ... إلى الحـــزم رأي لا يحـــوم علـــى أفـــن

وهنا تبرز ذات الشاعر وقد غمست بالحزن والألم ،لأنها ودّعت شواطئ الوطن.

توجّه الشاعر على متن سفينة الثّوار إلى سرنديب ،وكانت دموعه مزنا لشدتها، وصبره نافذ، إذ لم يغنه حلمه في ذلك الموقف الرهيب، فقلبه يستعر نارا، وعقله فقد توازنه حينما أخذت السفينة بمسيرها السريع، وذلك واضح، من توظيف الشاعر للفظه ((أقلعت)) التي دلت على

---

١ ـ ينظر: محمود سامي البارودي: ١٥٣.

٢ ـ ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٤٨.

سرعة الرحيل، إذ لم يتسنى له أن يمتع بجمال بلاده بعد .

لقد فاضت عيناه دمعا، وهو ما يزال في أرض وطنه، فكيف حاله ،وقد فصلته المسافات الشاسعة عنه، بعيدا عن كل مفاتنه، لقد براه الحزن، ورعت كبده الأشواق بسبب ما كان من بعد بينه وبين وطنه حتىّ قال[1]:

هل من طبيب لداء الحب أو راقِ ؟ ... يشفي عليلا أخا حزن وإيراق

لقد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقا ... حتى جرى البين فاستولى على الباقي

أكلّف النفس صبرا وهي جازعة ... والصبر في الحب أعيا كل مشتاق

يا روضة النيل لا مسّتك بائقة ... ولا عدتك سماء ذات إغداق

وأن مررت على المقياس فاهد له ... منّي تحية نفس ذات اعلاق

فهو يرعى نجوم الليل ،وكأنما شُدت عيونه إليها ،فحينما تطوف به الذكريات يهفو إلى نسمة من هواء مصر العبق، حمى قومه، ومنبت آدابه، وأعراقه.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى القول ((إن حنين البارودي وشوقه إلى وطنه لم يكن إلا ذكريات لمراتعه وأيأم عزه ودعوة ، واسترحاما لتخليصه مما هو فيه من الذل[2])).

ويبدو أنّ الباحث الفاضل أطلق حكمه هذا حسب نظرته إلى أصل الشاعر الشركسي فالشاعر لم يحن إلى مصر إبان إقامته في الأستانة موطن آبائه وأجداده·

أن شركسية البارودي، لا تنفي وطنيته، وحبّه لبلاده، فقد ولد الشاعر، وترعرع في مصر، وتنسّم هواءها ،وتنّعم بأطيابها، فالوطن عند مجموعة من الشعراء ليس مكان لعب الصبي بل هو البلد الذي يوفّر الحياة الأقتصادية الكريمة للمرء.ويقال أحب أوطان البلاد إلى الفتى- أرض ينال بها كريم المكسب، فموافقة البلاد، وطيب العيش فيها ،هما معيار الارتباط بالوطن[3]. ومن هنا فإن البارودي لم يعرف وطنا غير مصر، ولم يلتّذ لسواها .أما عدم حنينه لوطنه في أثناء إقامته في الأستانة فهذا مما لا يُعتد به: كأنموذج لجفاء الشاعر عن

---

١ ـ الديوان: ٢/٢٨٣ ـ ٢٨٨.

٢ ـ نفسية البارودي من خلال شعره:/٣٥٠ مجلة آداب الرافدين/ع٨/١٩٧٧/ كلية الآداب/ جامعة الموصل. د. عمر محمد

٣ ـ ينظر: الوطن العربي في الشعر العربي: ٢٨٩.

موطنه.فالبارودي حين أقام في تركيا، كان شابا صغيرا، لم يكن في مصر ما يشد آصرته إليها، من عائلة، وأولاد، كما لم يكن لديه من الذكريات الشيء الكثير الذي يشخص أمامه في الغربة، فضلا عن أن طموحات الشباب التي ذهب لأجلها، وربّما ملذات الحياة كل ذلك كان حائلا في عدم كتابته لقصائد الحنين في تلك الحقبة من الزمن .نستدل على ما نقول أننا نجد كثيرا من القصائد التي تطفح بالحنين عند الشاعر، كتبها أثناء رحيله عن مصر، محاربا في صفوف الجيش المصري، أثناء حروب الدولة العثمانية ضد روسيا، إذ يتأجج قلبه شوقا إلى وطنه فيشدو بحبه، ويتغنىّ.على أننا لم نعثر في ديوانه على أية أشارة حنين أو شوق لبلاد الترك التي عدّها الباحث موطن أهله وأجداده.

ولنسمعه وهو يتشوق لوطنه، وقد أبعدته الحرب عنه إذ يقول[1]:

فسقى السماك محلّه ومقامه	في مصر كلّ روية مرنان
حتى تعود الأرض بعد محولها	شتّى النماء كثيرة الألوان
بلد خلعتُ بها عذار سبيبتي	وطرحت في يمنى الغرام عناني
فصعيدها أحوى النبات وسرحها	ألمى الظلال وزهرها متدانِ
فارقتها طلبا لما هو كائن	والمرء طوع تقلّب الأزمان

وكل هذه الأبيات تدل على تفجر عواطفه نحو بلاده، فيحن أليها، بعد أن يمتلئ قلبه شوقا نحوها.

ولا أظن أنّ حنين البارودي- كما يقول الدكتور عمر محمد – حنينا لأماكن أنسه، وذكرياته الجميلة، وأيّام عزّه، ونعماه، وليس لوطنه.إذ أن الإنسان يحّن إلى ((كل الأماكن التي عاش فيها لحظات عزلته الماضية، التي عانى فيها الوحدة، والتي أستمتع فيها، ورغب عنها، فإنها تظلّ راسخة في داخله، لأنه في مكانه الجديد يرغب بالعودة إليها))[2] .

ويبدو أن الشاعر اتخذ من تلك الأماكن والأيام سبيلا لحنينه لوطنه، فالساعات التي قضاها في موطنه الأول هي ذاتها وطنه وحبه لها حبه لوطنه.ولذا فأن البارودي بكى وطنه بكاء حقيقيا ليس فيه أدنى زيف .إذ أنّ الوطن مهما كانت صورته في عين الإنسان الذي يعيش فيه، فأنه

---

١ ـ الديوان: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٨٨ ـ ٥٨٩.

٢ ـ جماليات المكان: ٥٢.

بالأبتعاد عنه ،يتصاعد شعوره إلى الدرجة التي يلغي فيها كل طماح الا طماح الوطن[1] .فليس له سواه، إنه مكان الصبا ،ومرتع الشباب ،وأيام العز، ففيه من يحب من الأهل ،والأصدقاء الذين شملهم حنينه، ولذا فقد تفاعل البارودي مع الطبيعة ، محمّلا إياها تحسّره وألمه ،علّها تعينه فيه، إذ أثار مشاعره حمامة، كانت تنوح بقربه، فاتخذها أنيسا ، في محاولة منه لبثّ لواعجه، وآهاته، إذ يقول[2]:

سل حمام الأيك عنّي	أنه أدرى بحزني
نحن في الحبّ سواء	كلّنا يبكي لغصن
غير أنّ الوجد منه	ليس مثل الوجد منّي
أنا أبكي من غرامي	وهو في الغصن يغنّي
وهو بالدمع بخيل	ودموعي ملء عيني
لست في الصبوة مثلي	فانصرف يا طير عنّي

إنه يصوّر حزنه الذي أضناه في صورة حوار مشبع بالعواطف ،والمشاعر الفيّاضة ،فالأبيات تدلّ على العاطفة الصادقة إلى جانب الرقّة في التصوير .

ويبدو أنّ الشاعر في حديثه للحمام ،كان في حالة نفسيّة متأزّمة ،تتصارع فيها كل متناقضات الحياة من حزن وشوق وخوف من المجهول ((فذكر الحمام دلالة على حنينه المتفاقم، حيث أوصله إلى تخيّل الاحتضار، فتخيل المآتم))[3] .فكأنه بدأ يرثي نفسه، وهنا، اختلف عن أبي فراس في أن أبا فراس حاول تقاسم الهم مع الحمامة النائحة، أما البارودي فقد غبطها لحريتها وغنائها.

ويختطف الموت زوجته، ولمّا تجاوز السابعة والثلاثين من عمرها فقد أمرضها الحزن وأعتصر كبدها الأسى ،وفتت مرارتها الألم منذ فراق الزوج الحبيب .فلقيت ربّها شهيدة الحب

---

١ ـ ينظر: شعر الأسرى العراقيين الحديث: دراسة موضوعية وفنية: ٦٢ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية الآداب/ جامعة القادسية/٢٠٠١.

٢ ـ الديوان: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٨٣.

٣ ـ رثاء الذات في شعر العربي إلى نهاية العصر الأموي: ١٨٩/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية/١٩٨٩.

والوفاء[1] ويفاجئ الناعي البارودي بالخبر فينزل عليه نزول الصاعقة ،وتدركه ريّة الشعر بقيثارتها ليكتب في رثائها شعرا موجعا ،نستشف من خلاله الألم ،والشوق الذي برى جسمه فيقول[2]:

أيد المنون قدحت أيّ زناد وأطرت أية شعلة بفؤادي

ورد البريد بغير ما أملّته تعس البريد وشاه وجه الحادي

فسقطتُ مغشيّا عليّ كأنما نهشت صميم القلب حيّة وادِ

أبلتني الحسرات حتّى لم يكد جسمي يلوح لأعين العوّاد

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي تقوى على ردّ الحبيب الغادي

لقد أستطاع الشاعر أن يصوّر الحزن الحقيقي على الحبيب الفقيد ،حتّى ليكاد المرء يحسّ من القصيدة لهفته وقد وهن عزمه،ويشعر بجمرات الحزن في كلماته،ويرى الدموع مدرارا على وسادته.

إن حزنه على زوجته كما يتضّح من قصائده فيها ((حزن عميق جدير بأن يعد نموذجا في الشعر العربي للعاطفة الصادقة بين الزوج والزوجة، والعلاقة القوية التي مزجت بين روحيهما،وحياتهما حتّى لتخال كل منهما شطر الآخر وجزءا منه لا يشتهي الحياة بدونه))[3].حتّى يترأى لنا أن احدهما يقضى عليه أن قضي على الآخر مما تقدّم نلحظ أنّ البارودي وظّف أغلب حنينه إلى وطنه على خلاف أبي فراس الذي بث الجزء الأكبر من شوقه إلى أهله ومحبيه.وبدا وكأنه يتطلّع إلى رؤيتهم ويذرف الدمع عليهم أكثر من وطنه.

ويبدو أن السر في ذلك يكمن في أن اليأس الذي تمكن من البارودي،ببدّد طموحاته، فضلا عمّا كان يعانيه من غربة اجتماعية منذ صباه ،مضافا إلى ذلك الخلاف الذي دبّ بين الثوار في المنفى،إذ كان ينظر إلى البارودي على أنّه أجنبي ((فحينما يسأل عرابي عن صحبه يقول:نحن خمسة مصريين، وأثنين أجانب))[4] .فأنكرت عليه مصريته بسبب أصله الشركسي. كل ذلك

---

١ ـ ينظر: محمود سامي البارودي: ١٦٦.

٢ ـ الديوان: ١/١٥٦ ـ ١٦١.

٣ ـ محمود سامي البارودي: ١٦٦.

٤ ـ قراءة في آثار البارودي: ٢٠٢/ مجلة العربي/ع ٤٣١/ السنة السابعة والثلاثون /١٩٩٤/ الكويت.

افقده الثقةبالناس ، إذ أخذ ينظر اليهم على أنّهم السبب في شقائه وبؤسه .ولذا تولّدت في نفسه فكرة الوطن الضائع.فلم يكن لديه وسيلة لأثبات وطنيته- وهو في منفاه- إلا شعره.فأخذ يكثر من الكتابة لوطنه ،والتشّوق اليه ،والتغنّي بمفاتنه حتّى غلب ذلك على شوقه لأهله ومحبّيه.

في حين انّ أبا فراس لم يكن يراوده ذلك الشعور بسبب أصالة نسبه، وكونه من اصحاب الأمارة.فأخذ غناؤه لأهله ومحبّيه يفوق غناؤه لوطنه، إذ أنّ الأهل والناس – في نظره- هم الوطن ولا جدوى منه بدونهم.

ومن كل ما تقدم نخلص الى أن الغربة بنوعيها المادي والمعنوي تحقّقت في شعر أبي فراس والبارودي، إذ شكيا وتألّما وذاقا مرارة البعد ولوعة الاشتياق.إلا أنهما اختلفا في شكايتهما لنوع تلك الغربة كلا بحسب تنشئته وميوله،ومكونات ذاته.فأبو فراس أبدى ضجره، واستغاثته من الغربة النفسية التي تفاقمت بداخله بعد أسره في حين أنّ البارودي شكى وتألّم من مكان أسره أكثر من شكواه الغربة الروحية.

ويبدو أنّ لكل أسبابه الخاصة.فحياة الحرب وألفة الأماكن الموحشة بعيدا عن الأهل والأحبة، والتعرّض للمواقف الصعبة التي تفرضها طبيعة الحرب لاسيما في العصور السابقة، فضلا عن أنّ القابلية على التنقل في الأماكن الوعرة التي تفرضها البيئة العربية خاصّة في بلاد الشام، كل ذلك ساهم وبشكل كبير في تخفيف معاناة أبي فراس من مكان أسره الذي كان أفضل حالا إذا ما قيس بمكان البارودي.

في حين أن تعوّد البارودي عيش الرخاء والأمارة سواء في عائلته أم في قصر الخديوي كان سببا في نفوره من أي مكان ليس شبيها بمكان عيشه في الماضي، فضلا عن أنّ الجفوة الاجتماعية المبكرة التي كان يعيشها الشاعر إزاء ابناء قومه خفّفت من وطأة الغربة النفسية عليه، فأخذ ينأى بنفسه لينقذها من مكانها هذا وبأي شكل كان.

من هنا فإنّ الأمل الذي كان يراود أبا فراس في انفراج أزمته والعودة الى ملاعب ذاته ثانية جعله يتّخذ من الحرب معادلا موضوعيا أساسيا في غربته عند الروم .أمّا البارودي فإنّ اضمحلال الرجاء في عودته وتمكّن اليأس منه ،فضلا عن تقدّمه بالسن كل ذلك أبعده عن التفكير في الحرب ومحاولة العودة إليها .ولذا صارت بعيدة كل البعد عن شعره في المنفى .إذ اتخذ من أيّام مرحه ونشوته في القصر الملكي بديلا عنها لتكون التعادليّة لحياته البائسة في المنفى.

أما الحنين فقد اتخذاه سبيلا لبثّ لواعجهما ،وما يختمر في قلبيهما من شوق عارم ،إلا أنّنا نلمس اختلافا بينهما في اتجاه هذا الحنين.فأبو فراس وظّف أغلب حنينه لأهله ومحبيه .على

العكس من البارودي الذي استحوذ وطنه على الجزء الأكبر من حنينه .

ويبدو أنّ السبب في ذلك يكمن في أنّ فقدان الثقة بالناس عند البارودي فضلا عن ان من نفاه كان منتصراً عليه جعله ذلك يتمسّك بوطنه ويتخذ من الغناء به والحنين إليه رمزا لإثبات وطنيته في حين أن أبا فراس اتخذ من الأهل والأحبة رمزية لوطنه التي ارتبطت جذور الشاعر بجذوره.

الفصل الثالث

صورة الذات وفقاً لتجليات الأصرة الاجتماعية

المبحث الأول

الذات بين الرضا والسخط الاجتماعي

لا يمكن لأحد أن يتخيّل إنسانا بلا مجتمع، كما لا يمكن لمجتمع أن يكون بلا أفراد، فالفرد والمجتمع وجهان لعملة واحدة وبما أنّ الأدب صورة معبّرة تعبيرا حقيقيا عن المجتمع الذي يحيا فيه لذا فلا يمكن للأديب أن يقدّم أفكاره ومشاعره بمعزل عن أحداث ومواقف وعلاقات مجتمعه الذي يعيش فيه[1]. ومن خلال أدبه ينعكس فهمه لهذا المجتمع . فالأديب يتخذ لنفسه دائما موقفا فكريا من مجتمعه[2].

وبناءاً على ما تقدّم فأن حياة أبي فراس والبارودي وما عاصراه من أمور عامة وخاصة . كل ذلك كان للمجتمع أثره الواضح فيه . إذ من خلال هذا الأثر تكوّن لديهما رؤية ذاتيّة وانطباع خاص تجاه مجتمعيهما سواء كان ذلك بالإيجاب أم بالسلب . فأبو فراس يعتزّ بقبيلته، وتهزّ أمجاد بني حمدان صميم نفسه ، فيكثر من المباهاة بهم ، وبوقائعهم ، وكلّهم أمير فارس [3]. إذ يقول: [4]

لنا في بني عمّي وأحياء أخوتي ... علا حيث سار النيران سوائر

وإنهم الساداتُ والغرر التي ... أطول على خصمي بها وأكاثر

ولم يقتصر فخره بأبناء عمومته بل تعدّاه إلى فخر بالعرب ، وبأجداده القدماء وكلّ أهله من بني حمدان فهو يقول[5]:

ونحن أناس لا توسّط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

---

١ ـ ينظر: سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب: ٤١.

٢ ـ الأدب وفنونه ـ دراسة ونقد: ٤٤.

٣ ـ ينظر: أبو فراس الحمداني: ٣٤.

٤ ـ الديوان: ١٢٤.

٥ ـ المصدر نفسه: ٨٨.

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم يغلها مهر

أعزّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلا وأكرم من فوق التراب ولا فخر

ويبدو أنّ هذا التفاخر والاعتداد ببني حمدان جاء نتيجة المكانة المرموقة التي حظي بها الحمدانيون وسط الدولة العباسية الام، إذ كانت الدولة الحمدانية من أقوى دويلات العرب آنذاك إلى الحدّ الذي لم يتمكن الروم من دخول الشام إلا بعد انقضاء ملك الحمدانيين وانتهاء سلطانهم[1] فضلا عمّا يمتلكه الشاعر من إرث قبلي مشرّف في جميع مناحي الحياة.

إلا أن أبا فراس وعلى الرغم من المحبّة الصادقة التي ظهرت في شعره تجاه أبناء عمومته ، وفخره بهم وبأمجادهم فأنّ مشاعرهم نحوه كانت مختلفة جدا .

ولا ندري لماذا ، أهو الحسد على المكانة المرموقة التي يتمتع بها في البلاط الحمداني ، أم لملكته الشعرية ، أم هو الخوف من طموحاته اللامحدودة التي بالغ بها الباحثون حتّى نجد بعضهم يعزو تأخر سيف الدولة عن مفاداته في أسره لسبب يكمن في محاولة أمير البلاد إبعاده عن الإمارة بغية الحد من نفوذه[2] .

لقد خلقت مشاعر البغض والحسد ، التي استشعرها الشاعر من أهله حالة من الاغتراب الاجتماعي في نفسه إذ يقول[3]:

غريب وأهلي حيث ما كنت حاضر وحيد وأهلي من رجال عصائب

وبقيت هذه الغربة ترافق حياته كلها حتى بدا له أنّ قومه تمنّوا لو أنّهم تخلّصوا منه فهو يقول[4]:

تمنّيتم أن تفقدوني وإنما تمنيتم أن تفقدوا العزّ أصيدا

أما أنا أعلى من تعدّون همّة وإن كنت أدنى من تعدّون مولدا

فعلى الرغم من المغانم التي أكسبهم إيّاها أبو فراس إلا إنهم يرجون الخلاص منه حتى ولو

---

١ ـ أبو فراس الحمداني: ١١١

٢ ـ ينظر: الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني: ٤٥ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة/ كلية الآداب/ جامعة بغداد/١٩٩٧.

٣ ـ الديوان: ٤٨.

٤ ـ المصدر نفسه: ٧٧.

كان المدافع الرئيس عنهم وعن دولتهم إذ يقول[1]:

وإن حـــاربوا كنـــت المجـــن أمـــامهم ... وإن ضـــربوا كنـــت المهنّـــد واليـــد

وتزداد شكا يته من قومه حين يقبع أربع سنوات في زنزانات الروم من غير أن يعبأوا به أو يسارعوا لنجدته فهو قوله [2]:

الم يـــرى هـــذا الـــدهر قبلـــي فاضـــلا ... ولم يظفـــر الحسّاد قبلـــي بمـــا جـــد ؟

أرى الغـــلّ مـــن تحـــت النفـــاق واجـــتني ... مـــن الغـــسل المـــاذي بـــسم الاســـاود

ويبدو أنّ لهذه الشكوى وهذا الجفاء أسبابها التي ربّما تعود إلى أيّام طفولته وصباه ، حين علم أنّ أباه قد قضى نحبه على يد ناصر الدولة أبي محمد الحسن بن عبد الله وهو أخ لسيف الدولة ، وابن أخ لسعيد المقتول ، وذلك نتيجة خلاف بينهما على ولاية الموصل سنة ٣٢٣ هـ [3] .

لقد كان لليتم الذي حلّ بالشاعر منذ الطفولة الأثر الفاعل في توليد هذه الفجوة ، فضلا عمّا للحوادث من دور كبير في توسعها لاسيما أيّام أسره وتباطؤ سيف الدولة عن دفع فديته ٠

على أنني لا اعتقد بوجود أي خلاف بين سيف الدولة وأبي فراس كما ذهب الى ذلك الدكتور عمر فرّوخ ، حين برهن على وجود هذا الخلاف بتباطؤ أمير حلب عن فكاك الشاعر تخوّفا من طموحاته التي قد تؤول إلى استبداده بالإمارة [4] ٠

إن الحياة الحربية التي قضاها الشاعر مع سيف الدولة لا تحمل أيّ دليل على ذلك، فقد تسلّم قيادة الجيوش، وقاد حملات واسعة ضدّ الروم، والقبائل العربية المتمرّدة على الحمدانيين، فضلا عن توليه إمارة منبج التي تعّد أهمّ مدنهم وأخطرها كونها اقرب الثغور لبلاد الروم[5] ٠ يضاف إلى ذلك لغة الخطاب الجميل بين أبي فراس وسيف الدولة، فقد كان يناديه بوالدي ، ويرد عليه سيف الدولة بسيدي ((وكان سيف الدولة يحبّ أبا فراس، ويميزه بالإكرام على سائر قومه ، ولم يمنح ثقة كاملة إلا له)) [6] ٠ رغم صغر سنه ٠ على أنّ تباطؤ سيف الدولة

---

١ ـ الديوان: ٧٧.

٢ ـ المصدر نفسه: ٦٨.

٣ ـ ينظر: أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم: ٤٦.

٤ ـ ينظر: المصدر نفسه: ٤٨.

٥ ـ ينظر: مشاهير شعراء الشيعة: ٣١٣/١، وأعلام الأدب العباسي: ٨١.

٦ ـ أبو فراس الحمداني: ٤٨ ـ ٤٩ ، والشعر في ظل سيف الدولة: ١٧٧

عن دفع فديته لا يعود لسبب شخصي بقدر ما يعود لأمر عام يتعلّق بمقدار الفدية التي يجب ان تدفع لكل الأسرى لا إلى أبي فراس وحده.

مما تقدم يتبيّن أنّ جفاء الشاعر مع الحمدانيين لم يشمل سيف الدولة ، برغم ما وجد في ديوانه من شعر يتضّمن عتبا لابن عمّه عتبا يلومه على تقاعسه عن نصرته وعلى سماعه الوشاة الذين لم يألوا جهدا بالتفرقة بينهما ٠ علما أنّ الشاعر ورغم كل ما صدر من أبناء قومه ضدّه فإنّ موقفه منهم كان الوفاء والتضحية إذ يقول[1]:

وإن حـــاربوا كنـــت المجـــنّ امـــامهم   وإن ضـــربوا كنـــت المهنّـــد واليـــدا

وان نـــاب خطـــب أو المّـــت ملمّـــة   جعلـت لهـا كفّـي ومـا ملكـت فـدا

ولم يختلف البارودي عن أبي فراس في موقفه من أسرته ، فقد كان كثير الفخر بحسبه ونسبه وأبناء أسرته ، إذ لم يتعرّض لهم بأية إساءة أو هجاء في شعره ، على الرغم من أنّ ديوانه حافل بعدد غير قليل من قصائد الهجاء الاجتماعي والشخصي الذي أكثر فيه من الهجاء الاجتماعي على غير عادة شعراء العربية[2]

لقد وجّه البارودي أغلب هجائه لأبناء مجتمعه، وشعبه فكان يشكو غدرهم ونفاقهم، وظلمهم آخذا بتعداد معايبهم بين آونه وأخرى، من ذلك قوله[3]:

نـــزّهت نفـــسي عمّـــا يدنـــسون بـــه   ونحلـة الـرّوض تـأبىَ شـيمة الجعـل

بـئس العـشير وبئـست مـصر مـن بلـد   أضـحت مناخـا لأهـل الـزور والخطـل

أرض تأثّـــل فيهـــا الظلـــم وانقـــذفت   صـواعق الغـدر بـين الـسهل والجبـل

وأصـــبح النـــاس في عميـــاء مظلمـــة   لم يخـط فيهـا امـرؤ إلا علـى زلـل

ولم يتوان من أن يوجّه هجاءه إلى الشعب برمّته لاسيما بعد فشله في ثورة الضبّاط، إذ أدانه ووصفه بالمستكين حينما لم يستجب لندائه في الثورة فهو يقول[4]:

---

١ ـ الديوان: ٧٧.

٢ ـ ينظر في الأدب الحديث: ١/١٩٢.

٣ ـ ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٤٠١.

٤ ـ الديوان: ٢/١٨٧.

أهبــت فعـــاد الــصوت لم يقــض حاجــة إلـــيّ ولبّـــاني الــصدى وهـــو طـــائع

فلـــــم أدر أنّ الله صــــــوّر قـــــبلكم تماثيـــل لـــم يخلـــق لهـــنّ مـــسامع

فـــلا تـــدعوا هـــذي القلـــوب فإنّهـــا قواريـــــر محـــنيّ عليهـــا الأ ضـــالع

ويبدو هنا أنّ نرجسيّة الشاعر طفحت بأقوى صورها ، فحين يقابل الشخص بالإجحاف الاجتماعي لعطائه والتغافل عنه سرعان ما يتّهم الوسط الذي حوله بالجهل والتخلّف [1] .

ولم يكن البارودي يثق بالناس كثيرا، وكان يدعو إلى الحذر والاحتراس منهم إذ يقول[2]:

ولـــست بطـــالب فـــي النـــاس خـــلا يناصحنـــي فعقلـــي قـــد كفانـــي

بلـــوت النـــاس واســـتخبرت عـــنهم صـــروف الدهـــر آنـــا بعـــد آن

فمـــا أبـــصرت غيـــر أخـــي كـــذب خلـــوب الـــودّ مـــصنوع الحنـــان

يـــصرّح بالعـــداوة وهـــو نـــاء ويمـــذق في المحبّـــة وهـــو دانـــي

لـــه في كـــلّ جارحـــة لـــسان يـــدور بـــه علـــى حكـــم الزمـــان

فـــلا تـــأمن علـــى نجـــواك صـــدرا فـــرب خديعـــة تحـــت اللـــسان

أمّا في منفاه فكان للضعف الذي انتابه ، والخذلان الذي مني به الأثر الكبير في تنمية روح الكراهية والنقمة على رفاقه الذين كانوا معه في السجن بشكل خاص، وعلى الشعب الذي يعتقد أنه السبب في فشل الثورة بشكل عام . لذا بدأ يصبّ جام غضبه عليهم بهجاء ((لم يترك خلّة ذميمة إلا ولصقها بهم ويبدا من خلال شعره هذا، وكأنه يريد أن يظهر للخديوي وبطانته ، وللمستعمرين الإنكليز أنه إنسان مخدوع أوقعته المقادير في أيدي الثوار الأجلاف الأغبياء))[3].

فهو يقول:[4]

---

١ ـ ينظر: نقد الشعر في المنظور النفسي: ١٢٦.

٢ ـ ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٦.

٣ ـ نفسية البارودي من خلال شعره: ٣٤٤ / مجلة آداب الرافدين/ع٨/ ١٩٧٧/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

٤ ـ الديوان: ٢/٢٩٥.

لأي خليـــل فـــي الزمـــان أرافـــق وأكثـــر مـــن لاقيـــت خـــبٌ منـــافق

بلـــوت بـــني الـــدنيا فلـــم أر صـــادقا فـــأين لعمـــري – الأكرمـــون الأصـــادق

فالشاعر ينزع عمّن يقصدهم كرامة الأصل والصدق، ويتهمهم بالخداع والمخاتلة، وكأنّ كلّ مالقيه من سوء كان سببه النـاس فمسؤولية فشله أنّه كانَ ضيعة بين ناس لا أخلاق لهم جهال فسّاق صبيان مخادعون كما يقول:[1]

أضـــعت زمـــاني بـــين قـــوم لـــو إن لـــي بهـــم غيرهـــم مـــا أرهقتنـــي البوائـــق

معاشـــر ســـادوا بالنفـــاق ومالهـــم أصـــول أظلّتهـــا فـــروع بواســـق

فـــأعلمهم عنـــد الخـــصومة جاهـــل واتقـــاهم عنـــد العفافـــة فاســـق

طلاقـــة وجـــه تحتهـــا الغـــيظ كاشـــر ونغمـــة ودّ بينهـــا الغـــدر ناعـــق

وأخـــلاق صـــبيان إذا مـــا بلـــوتهم علمـــت بـــأنّ الجهـــل فـــي النـــاس نـــافق

والشاعر لم يتحرّج من أن يصف أبناء قومه بكل الصفات الذميمة والألفاظ المشينة حتى يبدو أن عقله الباطن تغلّب على عقله الظاهر في لحظة ما فأفصح عن خبايا نفسه وما تكنّه ذاته تجاه الثوار المنفيين معه إذ يقول:[2]

بلـــوت بـــني الـــدنيا فلـــم أر صاحبـــا يـــدوم علـــى ودّ بغـــير تكلّـــف

رضـــيت بمـــن لا تـــشتهي الـــنفس قربـــة ومـــن لم يجـــد مندوحـــة يتكلـــف

ولـــو أنّنـــي صـــادفت خـــلا يـــسرّني علـــى عـــدواء الـــدار لـــم أتلـــهّف

إن البارودي كثير الذم لأهل زمانه ومن عاشرهم ، وكأنّه لم يجد من يشاكله أو يكون كفؤا له فهو يقول:[3]

أنـــا في زمـــان غـــادر ومعاشـــر يتلونـــون تلـــوّن الحـــرباء

---

١ ـ المصدر نفسه: ٢/٢٩٦ ـ ٢٩٨.

٢ ـ الديوان: ٢ /٢٣١.

٣ ـ المصدر نفسه: ١/٧١.

أعـــداء غيـــب لـــيس يـــسلم صـــاحب — مـــنهم وأخـــوة محـــضر ورخـــاء

أقبـــح بهـــم قومـــا بلـــوت إخـــاءهم — فبلـــوت أقبـــح ذمـــة وإخـــاء

قـــد أصبحـــوا للـــدهر ســـبة ناقـــم — في كـــل مـــصدر محنـــة وبـــلاء

واشـــدّ مـــا يلقـــى الفتـــى فـــي دهـــره — فقـــد الكـــرام وصحبـــة اللؤمـــاء

إن المتصفّح لديوان الشاعر يجد الكثير من هذا الشعر الذي سلّطه على أبناء مجتمعه ورفاقه الثوار[1] إذ يبدو أنّه سلك الطريق نفسها التي سلكها المتنبي، حينما كان ((يركّز على تعرية معايب مجتمعه ونفرته منها))[2] إلا أنّ الفارق بينهما إن مطامح المتنبي كانت قومية واسعة في وقت كان العرب يعانون التفكك والانقسام والسيطرة الأجنبية، في حين كانت نزعة البارودي يستشف منها روح الكراهية والانتقام، مما يدل على ضيق الأهداف التي كان يحملها التي قد تنحسر بشخصه.

مما تقدّم نلحظ أنّ البارودي كان شديد النقمة على أبناء قومه ومجتمعه ، ومن قام بالثورة معه. فسلّط عليهم هجاء اجتماعيا مقذعا ، إذ لم يتوان عن النيل من كرامتهم والحط من شأنهم ومن أن يصفهم بشتّى الصفات التي تنزع من الإنسان كرامته وإنسانيته، إذ بدا يتحدّث معهم بروح تسودها الكراهية والنقمة الاجتماعية في حين لم نجد مثل ذلك عند أبي فراس الذي توجّه لأبناء قومه بالقنب واللوم على كراهيتهم له وبغضهم إيّاه ، وتباطؤهم عن دفع الفدية بل وربما تمنّيهم فقدانه .وعتبه بهذا الاتجاه لم يتعدّ حدّ التأنيب واللوم، بأسلوب بعيد عن كل ما يخدش الكرامة أو يحّط من قيمة الإنسان.

فقد حاول الشاعر بهذا دفعهم على الاستفادة منه ومن قدراته الواسعة .على أنّ هناك أسبابا قديمة وأخرى حديثة دفعت كل من الشاعرين لاتخاذ الموقف المناسب مع مجتمعه، والذي يعتقد أنّه يتلائم وخلجات ذاته ومطامحها .

فلقد كان لمقتل والد أبي فراس على يد أبناء عمومته بالغ الأثر في خلق نوع من الجفاء الاجتماعي أو الإحساس بالغربة وهو بينهم ، إلا أن ذلك لم يتحّول عنده إلى حالة من الانتقام والكراهية ضدهم ، فهو كثير العناية والاعتزاز بهم ، والمدافع عن دولتهم ، وهذا يعود للرعاية الحسنة التي لقيها من الأمير سيف الدولة الحمداني التي ساعدت على تعويضه حنان والده

---

١ ـ ينظر أمثلة لذلك في ديوانه: ١٣/١، ٤٣/١، ٨١/١، ١٥١/١، ١٥٥/١، ١٨٥/٢

٢ ـ التطلع القومي عند المتنبي: ٧٦.

وعطفه ٠ وهذا – بدوره – دفعه إلى التفاني من أجل قومــه حتّى صار حالـه إلى اسر بغيض ـ في زنزانات الروم ، إذ ظل قابعا فيها أربع سنوات من غير أن يعبأ أحد به من قومه إلا أهله ومقربيه٠

والملاحظ أنّ الشــاعر – وعلى الرغـم من كل ذلك – بقي يسيــر على خطه الوطنــي دون أن يغير منه هذا التباطوء في دفع الفدية شيء بل زاده إصرارا وتمسّكا بقومه ووطنه ٠

بينما كان لمقتـل والد البارودي الأثر الكبير في خلق حالة من الانتقام في نفسه صارت فيما بعد عقدة مرافقة له في حياته لاسيما ضد العائلة المالكــة آنذاك ، إذ كان يعدّها المغتصبــة لحقه وحق أسرته في الحكم ، وأنها هي السبب في مقتل أبيه وجده لإمّه [1]٠

لقد تضافرت الأيّام وأحداثها على ازدياد نقمته على هذه الأسرة ، ومن يساندها ، على الرغم من انخراطه في سلك الجيش ، ودخوله القصر الملكي ، وتسلمّه مناصب قيادية عليا في الدولة ٠

إن وصــول البــارودي على رأس الوزارة في ذلك الوقت – لم يخفّف مــن حدة النار المستعرة في قلبـه ٠ إذ سـرعان مـا انـضم إلى الثـوار حين وجـدهم عـازمين علـى الإطاحـة بنظـام الحكـم آنـذاك٠ ليحقق بهـذا غايتيــن ، الأولــى تتمثل في تحقيـق أهدافــه بالانتقـام مـن تلـك الأســرة ٠ والثانيــة تفتح أمامه الطريق للتربع على عرش البلاد كاملة ، وهـذا مـا كـان يحلـم بـه طيلة حياته ٠ إلا أن الإخفاقات التـي منيت بها الثـورة حـالت دون ذلك ، فصار إلى المنفى بعيـدا عن كل النعم التي كان يتمتع بها ٠ وهذا ما أسعر ناره من جديد ليس على الحكومـة فقط ، وإنما على الثوّار الذين غرروا به ، فكانوا السبب في إزاحته عن مناصبه ٠

ولم تقتصـر كـراهيتـه للثوار والحكومة فقط، وإنما تعدتهما لتشمل الشعب برمته، إذ أخذ ينظر إليه على أنّه السبب في فشــل الثورة ، وعدم تحقيق طموحاته وآماله ٠ لذا صارت كل هذه الأطراف مجالا لهجائه هجاءا مرا ٠ إذ خيّم عليه اليأس فأفقده الأمل في كل شــيء ، المنصب ، والجاه ، والمال ، فلم يكن بين يديه ما يأسف عليه ، لاسيما حين وصـل بـه الحـال إلى التقـاطع كلّيا مع هذه الأطراف وتفضيل العزلة حتىّ بعد إطلاق سراحه من الأسر ٠

في حين أن الأمل ظلّ معقودا في نفس أبي فراس بالعودة إلى مسرح الحيـاة الـتي عاشها ، وأن يتمّكن من إعلاء الصـرح الذي خطّه له ولقومـه ، لذا نجده يحاول جاهدا الحفاظ على ديمومـة العلاقة الاجتماعيـة بينه وبين الحمدانيين إذ أن ((برّه بهم منعه من أن يضارهـم بمثـل الـذي أضروه

---

١ . ينظر نفسية البارودي من خلال شعره: ٢٢٨/ مجلة آداب الرافدين ع /٨/١٩٧٧/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

به))[1] على الرغم من معرفته ببغضهم له، وحسدهم إيّاه ٠

على أنّ الرابطة الاجتماعية في مجتمع أبي فراس غيرها في المجتمع المصري الحديث، إذ لا يمكن للفرد الذي يعيش في مجتمع قبلي أن يستغني عنه على عكس المجتمعات الحديثة٠ ((فالمجتمعات القائمة على أساس " النحن " هي مجتمعات ذات حظّ كبير من الثبات، وهي تحقّق لأعضائها نوعا من التوازن السيكولوجي يفقدونه إذا انفصلوا عنها، بل لقد تصبح من قوة التأثير بحيث يؤدي انفصال احد أفرادها إلى موته المحقق)) [2] وهذا ما حدا بأبي فراس للتمسّك بقومه وبالإلحاح على فكاكه من الأسر ٠ ففرق القبيلة عن المجتمع الحديث أنها تجمع تحت طيّاتها رابطتين، الدم، والأرض، وفي الجمع بينهما قوة الوطن الواحد [3] ٠ الذي حرص أبو فراس على أن لاينقصم عراه ٠

والصداقة هي الأخرى وجه من وجوه المجتمع ، يمكن من خلاله أن يتجلّى الطابع الاجتماعي المميز لذلك المجتمع ، ولما لهذا الطابع من أثر على نفسيي الشاعرين ، إذ أن ((للصديق قوة المساندة في السرّاء والضراء ، فهو الحبيب الذي تشترك نبضات قلبه مع نبضات قلب صديقه))[4]٠ وما إلى ذلك من دور كبير في تشكيلة موقفهما الأخير إزاء ابناء المجتمع ٠

فقد أدرك أبو فراس شدة القلب ، والتلون الذي تمتاز به الطبيعة البشرية غالبا، لذا أصبح يعاني صعوبة إيجاد الصديق المخلص الوفي الذي يمكن أن يظلّ مخلصا له طوال حياته ٠ إنّه مخلص في صداقته وعلاقته بالآخرين فهو ((يقف عند قوله لا يتغير ولا يتحول عن أخلاقه النبيلة مهما تغيّر الناس ، ومهما تكالبت عليه المصائب)) [5] إنه الأبي الكريم الصادق إذ يقول:[6]

غيري يغيّره الفعال الجافي	ويحول عن شيم الكريم الوافي

فللصداقة عنده مكانة سامية حتّى لتسمو على القرابة ، على الرغم من تمسّك أبي

---

١ . أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم: ٧٢.

٢ . الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة: ١١٦.

٣ . ينظر: المجتمع السليم: ٤٠.

٤ . الاغتراب والشعر في حياة الشريف الرضي: ١٠١.

٥ . دراسات في الأدب العربي: ٢٠١.

٦ . الديوان: ١٥٤.

فراس الشديد بآصرة القربى[1] .

لقد كان لأصدقائه الحظّ الأوفر في قلبه ، أحسب ذلك جزءا من مزايا الفروسية والفتوة التي يتمتع بها فهو يقول: [2]

ما كنت إذ كنت إلا طوع خلّاني	ليست مؤاخذة الأخوان من شأني
يجني الخليل فاستحلي جنايته	حتى أدلّ على عفوي وإحساني
ويتبع الذنب ذنبا حين يعرفني	عمدا واتبع غفرانا بغفران
يجني علي وأحنو صافحا أبدا	لاشيء أحسن من حان على جان

إنّه يلتذّ بطلب العفو ممّن جنى عليه حفاظا منه على المودة والصداقة، وهذا ديدنه في كل مناحي حياته، فقد أطّلعنا على صفحة وعفوه لأعدائه بعد النصر عليهم فكيف به مع خلانه وإخوانه. فالشاعر يود أن يخدم صديقه إذا حضر، ويرعاه إذا غاب ويشكره إذا أحس، ويغفر له إذا أساء، بل إنّه يذهب أبعد من هذا ((فيتمنّى أن يسيء صديقه إليه ، ويتجنىّ عليه ليقابله بالإحسان والغفران ، وإذا كان أبو فراس بالغ في هذا فانه يمثل على كل حال مبلغ رغبته في محاسنة إخوانه بكل ما فيه من الكرم والنبل))[3] فهو يقول: [4]

لم أؤاخذك بالجفاء لأنّي	واثق منك بالوفاء الصحيح
فجميل العدو غير جميل	وقبيح الصديق غير صديق

وأبو فراس عظيم الوفاء للصديق بعيد عن الغدر إذ يقول:[5]

فديتك ما الغدر من شيمتي	قديما ولا الهجر من مذهبي
وهبني كما تدّعي مذنبا	أما يقبل العذر من مذنب

إنّ الوفاء من الصفات المميّزة له بعد الفروسية ، إذ نجده ((وفيا لأصحابه يحفظ ودّهم،

---

١ ـ ينظر: دراسات في الأدب العربي: ٢٠٩.

٢ ـ الديوان: ٢٢٧

٣ ـ في الأدب العباسي: ٤١٣.

٤ ـ الديوان: ٦١.

٥ ـ المصدر نفسه: ٤٤.

وفيّا لأعدائه إذا قطع عهدا فإنه لا ينكث به ولا يغدر))[1] • إنه يرى أن يظلّ على وفائه حتىّ لأولئك الذين يخونون عهده ويحولون عن صداقته أو يغدرون به من ذلك قوله:[2]

وفيــــت وفـــي بعــض الوفــــاء مـــذلّة لآنــسة في الحـــيّ شـــيمتها الغـــدر

إنّه يتعشّق الوفاء على الرغم من قلّة الأخلّاء والإخوان إذ يقول:[3]

ولمـــا تخيــــّرت الأخــــلاء لــــم أجـــد صـبورا علــى حفــظ المــودّة والعـــهد

ســـليما علـــى طـــي الزمــــان ونـــشره أمينـا على النجوى صحيحا على البعد

ولمّــــا أســـاء الظـــن بـــي مــــن جعلتـــه وإيـاي مثـل الكـف نيطـت إلى الزنـد

حملـــت إلى ضنـــّي بــــه ســــوء ظنّــــه وأيقنـت أنـّي في الإخـاء لـه وحـــدي

وإنــي علـــى الحـــالين في العتـب والرضــى مقيـم على مـا يعـرف النـاس مـن ودّي

بهذه الشاكلة يرسم لنا الشاعر صورة جميلة للمثال الإنساني الصالح الذي يحرص على ديمومة الحياة بطريقة الصفح والتسامح • فالتسامح من القيم الإنسانية الخالدة التي تبناها الإسلام ، واحتضنها العربي إلى يومنا هذا ((فمن الشعر الذي يبرز فيه الاتجاه الإنساني بوضوح معنى ربما كان أوسع في دائرة الإنسانية ••• ونقصد به معنى التسامح ، وهو معنى قرآني كريم يتردّد دائما في كتاب الله))[4] • إذ أن أبا فراس من أوائل الذين يحرصون على أن ((يظل الزخم الإنساني والأخلاقي المحور الأساسي في نظرتهم إلى آصرة الصداقة))•[5] ليضع أمامنا مثالا الشخصية المتمثلة لأعلى القيم الإنسانية ، وأنبلها وأكثرها ديمومة وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على حسن التنشئة فضلا عن مصداقية التمسك بالعقيدة الإسلامية التي ساعدت بدورها على غرس تلك المفاهيم والقيم في ذاته •

أما موقف البارودي من الصديق فشبيه بموقفه من المجتمع بشكل عام ، إذا كان طابع

---

١ ـ أبو فراس الحمداني/ أحمد أبو حاقة: ٥٥.

٢ ـ الديوان: ٨٥.

٣ ـ المصدر نفسه: ٧٣.

٤ ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري٢٠٠.

٥ ـ ينظر: دراسات نقدية في الأدب العربي: ٢٧٦.

الشكوى والحذر من أصدقائه هو الطابع المميّز لشعره بهذا الاتجاه إذ يقول:[1]

قليـــل بـــآداب المـــودة مـــن يفـــي　　　فمـن لـي بخـلّ اصطفيـه واكتفـي

إن الشاعر يتوهم في أصدقائه الغدر والخيانة ، وإظهار الإخلاص واظهار العداوة ، حتّى أخذ يتنامى في نفسه إحساس بأن ((جميع الناس ضده، فهو لا يأمن جانبهم أبدا))[2] إذ ليس فيهم من يدوم على ودّه وإخلاصه فهو يقول:[3]

بلـــوت بـــني الـــدنيا فلـــم أر صـــاحبا　　　يـــدوم علـــى الـــود بغيـــر تكـــلّف

انه دائم الحديث عن ندرة الوفاء عند إخوانه وأصدقائه ، ويأسى لقلتهم إذ يقول: [4]

صـــحبت بـــني الـــدنيا طـــويلا فلـــم أجـــد　　　خلـيلا فهـل مـن صـاحب اسـتجدّه ؟

إنّ أغلب من وثق بهم ، وود إخلاصهم لم تصف قلوبهم معه ولذا فهو يقول[5]

فأكثـــر مـــن لاقيـــت لم يـــصف قلبـــه　　　وأصـــدق مـــن واليست لم يغـــن ودّه ؟

وقد تصل الشكوى عند بعض الشعراء – من أصـدقاء السوء أن ((يعدّونهم جزءا من المكان المرفوض))[6] ولذا يظل البارودي على حاله هذه يطلب خلا وفيا فلا يجد حتى أيقن أن الدنيا قد خلت تماما منهم فهو يقول:[7]

أطالـــب أيّـــامي بمـــا ليـــس عنـــدها　　　ومـــن طلـــب المعـــدوم أعيـــاه وجـــده

وعلى الرغم من اعتقاد الشاعر بخلو الدنيا – في نظره – من الأصدقاء الأوفياء بعد أن أوهته المقادير وخانته النفوس راح يتطلعّ للشفاء بالبعد عمّن صاحب منهم إذ يقول : [8]

---

١ ـ الديوان: ٢ /٢٣١.

٢ ـ نفسية البارودي من خلال شعره: ٣٥٢/ مجلة آداب الرافدين /ع ٨/ ١٩٧٧/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

٣ ـ الديوان: ٢/ ٢٣١.

٤ ـ المصدر نفسه: ١١٤/١.

٥ ـ المصدر نفسه: ١١٤/١.

٦ ـ دراسات نقدية في الأدب العربي/٢٧٥.

٧ ـ الديوان/ ١١٤.

٨ ـ المصدر نفسه/ ١١٤.

وأصـــعب مـــا يلقـــى الفتـــى في زمانـــه صـــحابة مـــن يـــشفي مـــن الـــداء فقـــده

أما هو فمخلص في صداقته ليس كباقي الناس إذ يقول:[1]

فاحـــذر النـــاس مـــا اســـتطعت فـــأن النـــ ـــــاس إلا اقلهـــــــم أعـــــــداء

واخبرنـــــي تجـــــد صـــــديقا حميمـــــا لم تغيـــــــــر وداده الأهـــــــــواء

صـــــادقا في الـــــذي يقـــــول وإن ضـــــا قـــت عليـــــه بـــــرحبها الـــــدهناء

وبهذا الأسلوب يسترسل البـارودي بحديثـه عن الصداقة والأصدقاء ، إذ كان الزيف والغدر السمات المميزة لصورهم على العكس من صورته هو فإنّه دائم الإخلاص والوفاء لمن يود٠

ويبدو أن الحوادث التي أورثت الشاعر الكراهية للناس دفعته إلى عدم التمييز بينهم ، إذ جعله ذلك دائم الريبة والحذر حتّى من أقربهم إليه لاسيما حادثة نفيه بعيدا عن وطنه ٠

ولم يحاول الشاعر مصافاة الناس والتّسامح معهم، ودفعهم إلى طريق الخيـر، بقدر ما كان يحذرّ منهـم ، وهو تحذير لنفسه أكثـر منه لغيره، إذ أنّه خبر الدنيا، فلم يجد فيها صاحبا وفيّا يصطفيه لنفسـه، ولذا نجده يسلك طريقـا بعيـدة نوعا ما عن التي سلكها أبو فراس بهذا الشـأن إذ حاول أبو فراس أن يحثّ قومه على التحلي بالوفـاء والإخلاص ٠ لاسيما بعد أن ألـزم نفسـه بالصـفح عنهـم والـوداد لهم٠ وهـذا غايـة الشعور بالمسؤولية الاجتماعيـة، التي نجـد أنّ جذوتها خبت عند البارودي ٠

وخلاصـة القول إنّ أبا فراس كان يعتزّ بأهله وقومه على الرغم من معرفته ببغضهم وحسدهم أياه فلم يتوجّه لهم إلا بالعتب واللوم والتأنيب ، والدعوة لهم بالإصـلاح ٠ وهذا ما نجد ملامحه في ذات البارودي إذ تحوّلت نقمته على الشعب في نفسه – لاسيما بعد أن خسـر كل شيء – إلى عقدة مرافقة له في حياتـه أفضت به إلى عزلة اجتماعيـة تامّة في المنفى، والى شبه عزلة بعد المنفى ٠

أما موقفهما من الصـداقة فإن أبا فـراس مخلص وفي للصـديق شـعاره الصـفح والتسـامح علـى الرغم من قلّة الأصـدقاء المخلصين في نظـره ، وهو بهـذا يعطينـا مثـالا للشخصيـة التي تحرص على ديمومـة العلاقـة الإنسانية ٠

في حين كان موقف البـارودي مـن أصـدقائه قريـب مـن موقفـه مـن المجتمـع ، فهـو دائم الشـكوى منهم ومـن غدرهم ، بل ربّما خلت الدنيا من صديق وفي له ٠

---

١ . الديوان ١/ ٢٢.

المبحث الثاني

صورة الذات وفقاً لمجريات العلاقة بالمرأة

احتلت المرأة في الشعر مساحة واسعة وحيزاً رحباً، وكان لها حضور متميز في القصيدة العربية. بسبب منزلتها العالية ومكانتها المرموقة في المجتمع العربي قبل الإسلام، وبعده، فضلاً عن أنّها لغة الحب ورمز الدفء والحنان [1]. فقد كان لها السلطان الأقوى على قلب الرجل على الرغم من كونها المخلوق الأضعف، وأنّه هو السيد المطاع فهي موقد من موقدات سلوك الرجل والشعر أحداها. يقول هارون الرشيد[2].

ملك الثلاث الآنسات عناني	وحللن من قلبي بكلّ مكانِ
مالي تطاوعني البريّة كلها	وأطيعهنّ وهنّ في عصياني
ما ذاك إلاّ أنّ سلطان الهوى	وبه قوين أعزّ من سلطاني

لقد مكّن الله عز وجل المرأة بوساطة السمات المحببّة فيها من أن تمسك بتلابيب الرجال حتّى راحوا يهيمون بها فاقدين ألبابهم، بسبب ما صاروا إليه من عشق أفقدهم رشدهم ٠

والعشق مسالكه لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، يملك الأبدان وأرواحها[3]. وهو في الوقت نفسه يكشف عن ماهيّة العاطفة بين الرجل والمرأة، وفيه تصوير لهوى الرجل ووجده، كما إنه يحوي وصفاً لخلق المرأة وأخلاقها، وفيه حكاية عمّا يجري بينهما[4].

لقد دأب العربي بفطرته على ملازمة النساء، والسعي لخلق علاقة جميلة بهنّ. ولذا راح يخوض الصعاب ويجتاز الأخطار لذلك. ومن هنا نجد أنّ المرأة استأثرت بجزء مهم من حياته على الرغم من شظف العيش، وقساوة البيئة التي كان يحياها. حتى هيمنت -في الغالب- على أجزاء

---

١ ـ ينظر: دراسات نقدية في الشعر العربي: ٦١.

٢ ـ ينظر: العقد الفريد: ٦/٤٦.

٣ ـ ينظر: ذمم الهوى: ٢٩١- ٢٩٢.

٤ ـ ينظر: الأدب وفنونه: ٩٢.

كبيرة ومهمة من قصائد الشاعر العربي التي ضمّنها عادة طرق معيشته، ومغامراته وبطولاته، ومجالسه، ورحلاته، الى أن أصبح لها الافتتاح الأول من تلك القصائد غالباً، وإنْ لم تكن تلك القصائد قائمة على الغزل. إذ أن للغزل وكما ذكر ابن قتيبة القابلية على جلب الأسماع ثم الوصول سريعاً إلى القلب فيكون برداً وسلاماً [1].

وبناءا على ما تقدّم فإنّ قراءة متأنيّة لشعر أي شاعر تفصح لنا عن مدى تعلّقه بالمرأة والأهداف التي كان يرجوها من وراء ذلك، فيتسّنى لنا بعدها أن نصنّف غزله على وفق التصانيف الشائعة للغزل من عفيف وتقليدي وماجن.

ووفقاً لذلك فإن للمرأة دورها البارز في حياة أبي فراس والبارودي لأنّ ((صورة المرأة ظلّت تجد طريقها إلى عطاء الشاعر، فتحتل مساحتها الخاصة من نماذجه عبر عصور العطاء الشعري دون استثناء)) [2]. فضلا عن كونهما شاعرين امتازا برقّة الطبع وسمو المكانة وصدق العاطفة.

لقد اختلف الدارسون في تبويب علاقة أبي فراس بالمرأة فمنهم من رأى فيها علاقة عابرة وموضوعا شغل حيّزا ما من شعرة، إذ إن المرأة لم تكن شاغلة المحارب، ولم تكن مالئة دنياه، وجاذبة قلبه، بل كانت ظرفاً عابراً، وموضوعا من موضوعات شعره، حتىّ أنّه يرى فيها أو في هواها جسر عبور إلى البلى[3] وكما يقول[4]:

فقالــت: لقــد أزرى بــك الــدهر بعــدنا	فقلـت: معـاذ الله بـل أنـت لا الــدهر
ولا كـــان للإحـــزان عنـــدي مـــسلك	إلى القلـب لكـنّ الهـوى للبلـى جـسر

إلا إن هذا لم يقف حائلا دون تعلّقه بالنساء ومحاولته تملّك قلوبهن فهو يحب و يهفو قلبه لهن على أنّ ذلك لا يقوده للاستلام لهواهنّ مهما أوتين حظاً من الجمال فهو يقول[5]:

ولا تملـــك الحـــسناء قلـــبي كلـــه	وإن شملتهـــا رقّـــة وشـــباب
وأجـــري فـــلا أعطـــي الهـــوى فـــضل	مقودي وأهفـو ولا يخفـى علـيَّ صـواب

---

١ ـ ينظر: الشعر والشعراء: ٧٤/١.

٢ ـ ينظر: قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري: ٢١.

٣ ـ ينظر:أبو فراس الحمداني شاعر النضال دراسة ومختارات: ٤٧ ، أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم: ١٠٧.

٤ ـ الديوان: ٨٥.

٥ ـ المصدر نفسه : ٢٧.

إنَّ الشاعر عرف الحب واكتوى بناره، ولربما عانى همومه وآلامه. وذلك ليس ببعيد على شاعر مثل أبي فراس امتاز ((بخفّة الطبع، ورقّة الشعور، ومعرفة واسعة بالجمال)) [1]. إلا أنَّه مع ذلك لم يصل حدّ العشق مع النساء لانشغاله بأمور أرفع شأنٌ منهنّ إذ أنّ الملك الضخم الشأن لا يعشق لأنّ في الرياسة الكبرى، وفي جواز ونفاذ النهى ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغّل في الحب والاحتراق في العشق[2].

ورأى بعض الدارسين أنَّ غزل أبي فراس غزل تقليدي جاف جاء مجارة لغزل الأقدمين إذ أنَّ الشاعر ليس له عروساً بعينها قصر غزله عليها [3] فقد ذكر أكثر من إسم من أسماء النساء في شعره من مثل هند أُم عمرو في قول [4]:

أجملـــــــــي يـــــــا أم عمـــــــرو زادك الله جمـــــــــــالا

إنّ نسيب الشاعر وغزله كان مجاراةً للنهج القديم، فهو يقف على الأطلال ليذكر أيامه الماضية ويتشوق إلى حبيبته مظهراً الشكوى والألم، متّخذاً من الأمل سبيلاً للتعلّل فالحب عنده يأسر الشجاع، ويذل العزيز، ويجعل السيد عبداً، لكن المحب يرضى ذلك كله ويشكر للحبيب المحسن ويعفو عن الحبيب المسيء [5].

وهناك فريق ثالث من الباحثين راح ينظر لعلاقة أبي فراس بالمرأة بعين المجون والعبثية.إذ اتخذ أصحاب هذا الرأي من بعض قصائده –التي تضمّنت أبياتاً قد تخرج إلى هذا المعنى- مثالاً لمجونه، وميله إلى اللهو من ذلك قوله[6]:

يــا ليلــة لســت أنــسى طيبهــا أبــداً كــأن كــلّ ســرور حاضــر فيهــا

باتـــت وبـــتّ وبـــات الـــزق ثالثنـــا حتّـــى الـــصباح تـــسقيني وأســـقيها

كـــان ســـود عناقيـــد بلمـــتها أهـــدت ســلافتها صـــرفا إلى فيهـــا

---

١ ـ في الأدب العباسي: ٤٠٧.

٢ ـ ينظر: رسائل الجاحظ / رسالة في النساء:مج ٢/ج١٥٤/٣.

٣ ـ ينظر: أبو فرس الحمداني دراسة في الشعر والتاريخ: ٦٥، الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني/ رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة: ٢٨٢/ كلية الآداب/ جامعة بغداد ١٩٩٧.

٤ ـ الديوان: ١٨٨.

٥ ـ بنظر: أبو فراس الحمداني فارس بني حمدان وشاعرهم: ١٠٥.

٦ الديوان: ٢٢٩.

فهذه الليلة لطيبها، وتمتّع الشاعر فيها بمحبوبته وشرابه لم يستطع نسيانها، ولربّما يتمنّى أن تعود.

إنَّ الحياة التي عاشها أبو فراس على الرغم من قصرها فإنّه عاشها كما ينبغي للفارس أن يعيش أحبّ وتغزّل وترك الكثير من القصائد في وصف ليال جميلة كان يُحييها [1].

وذهب قسم من أصحاب هذا الرأي إلى التنليل من انغماس الشاعر في المجون، بقولهم: إنه في نفسه ميل لذلك إذ ((قد يكون الغزل الاباحي أقرب إلى روحه من الغزل العفيف لأنّه جعل الثاني تقليدياً فأستهلّ به قصائده الطوال، وحوّل الأول مقطّعات صغيره مستقلّة، وفي سيرته أدلّة لاستهتاره، لقد شرب الخمر، ولهاً وتعته)) [2]. والباحث استدل على كلامه هذا، بقول الشاعر[3]:

ومــــــا في طلـــــب اللـــــهو	علــــى الفتيـــان مــــن عـــار

وكما اختلف الدارسون في وصف علاقة أبي فراس بالمرأة اختلفوا في وصف علاقة البارودي بها إذ ذهب بعضهم إلى أنَّ الشاعر أحبَّ وعرف الغرام، وشكى لوعته، وهي لوعة صادقة [4]. ومثالهم على ذلك كثرة ذكره لظبية المقياس التي يسمّيها تارة بهذا الاسم، وتارة بأسماء أخرى فهو يقول[5]:

يــا ظبيــة المقيــاس هــذا مـدمعي	فــردى وهــذا روع قلــبي فــارتعي
إن كـــان لا يرضـــيك إلا شـــقوتي	فلقــد بلغــت منــاك منهــا فــاقنعي
أنــا منــك بــين صــبابة لا تنقــضي	أيامـــــها وغوايـــــة لم تقلـــــع
هــذي منــاي وحبّــذا لــو نلتهــا	عــن طيــب نفــس فهــي اكــبر مقنــع

إنّه يبتهل لمحبوبته أن تنيله نظرة بعد إن إلتاع قلبه بحبّها، وأصناه الشوق والعذاب، وهو بذلك يكون قد سلك الطريق نفسها التي سار عليها الشعراء الفرسان العرب من أمثال عنترة

---

١ ـ ينظر: أبو فراس الحمداني/ رحلة الحياة ومسيرة الموت مع مختارات شعرية: ٢٨.

٢ ـ أبو فراس الحمداني / دراسة في الشعر والتاريخ: ٧٢.

٣ ـ الديوان: ١٣٦.

٤ ـ ينظر: البارودي رائد الشعر الحديث: ٥٦.

٥ ـ الديوان: ٢/١٩١- ١٩٢.

وغيره . إنَّ قلب البارودي ملتاع يشكو تباريح الغرام ويبكي آلامه ، ((وهو غرام حقيقي كابده مع بعض الفاتنات في روضة المقياس ، وحلوان ، وكاد ينفطر قلبه أسى وحزنا)) [1] ولذا فإنّه دائم الحزن واللوعة من هذا الغرام.

أما البعض الآخر فقد رأى في علاقته بالمرأة علاقة الرجل بالسلعة ، أي أنّ حبّه لها حسياً ومن يرتبط بالمرأة بهذه الصورة تكون ((المرأة عنده ليست غاية ولكنها وسيلة إليه – لهذا- لا يقف حبّه عند واحدة يهب لها قلبه وإخلاصه))[2].

إنَّ البارودي قضى شطراً من حياته في قصور إسماعيل الذي أولع ببنائها ، تلك القصور التي حوت من وسائل الترف والراحة ما يدفع الإنسان للانغماس بها ، إذ فيها ((ألوف الحسناوات والوصيفات الجميلات... ثم فريق الراقصات ، والمغنيات والممثلات والعازفات))[3] . وفي هذه البيئة اللاهية عاش الشاعر ردحاً من حياته ضابطاً للخديوي ووجيها من وجهاء القصر يقلّب نظره حيث يشاء ، ويحل ترحاله في أي مكان حل. ولذا فانه خير من وصف نفسه في هذه الحقبة من حياته بقوله[4]:

عصيت نذير الحلم في طاعة الجهل	وأغضبت في مرضاة حب المها عقلي
ونازعت أرسان البطالة والصبا	إلى غاية لم يأتها أحد قبلي
فخذ في حديثٍ غير لومي فإنني	بحب الغواني عن ملامك في شغلِ

إنه يفخر بوصوله في هذا المضمار سبيلاً لم يصله أحد قبله ، وهو يجهر بصبواته ، وتنقلّه بين الملاهي. وهذا يعني أنّه لا يحب لأنّ ((من علامات الحب الثبات وعدم التقلّب في الهوى))[5].

لذا فإنّه لم يتوان عن وصف الليالي التي كان ينغمس بها في لذّاته مع إحدى عشيقاته وهن كثر. فمن" ظبية المقياس" التي آثرها على الأخريات إلى " مهى سبرة " و " غزالة الجزيرة "

١ - البارودي رائد الشعر الحديث: ١١٠.

٢ - الحب المثالي عند العرب: ٩.

٣ - محمود سامي البارودي / علي الحديدي: ٦٢.

٤ - ديوان البارودي شرح لي عبد المقصود: ٤١٤.

٥ - الحب عن العرب: ٣٤٨.

ثم " ليلى حلوان" التي خصّص لها إحدى قصائده لوصف ليلة جميلة قضاها فيها إذ قال[1]:

مـــالي وللـــدار مـــن ليلـــى أحيـــيّها وقـــد خلـــت مـــن غوانيهـــا مغانيهـــا؟

يـــا ليلـــة بـــتّ أســـقي مـــن بنانـــتها ومـــن لواحظهـــا خمـــراً ومـــن فيهـــا

أحييتهـــا وأمـــتُّ النـــوم معتـــصماً بلـــذةٍ لا يكـــاد الـــدهر ينـــسيها

حتّـــى إذا رفّ خـــيط الفجـــر وابتـــدرت حمـــائم الأيـــك تـــشدو في أغانيهـــا

قامـــت تمايـــل ســـكرى في مـــآزرها والـــروع يبعثهـــا طـــوراً ويثنيهـــا

بهذه الصورة يسترسل الشاعر في وصف ليلته تلك، وصفاً دقيقاً ينمّ عن تمتعه بها. وهو لم يكتف بذلك الوصف بل راح يُرسل الدمع مدراراً لساعة فراقها إذ يقول:

فعـــدت والعـــين غرقـــى في مـــدامعها والقلـــب في لوعـــة تـــنزو نوازيهـــا

فهو يظهر تأسفه، وحسرته، ولوعته لأنّ الصباح لاح في الأفق، مما دفعه إلى فراقها. وكأنّه يشعرنا برغبته العارمة لإيقاف الزمن لئلا يطلع ذلك الصباح فيقطع عليه أنسه ولهوه، بل ولشدّة احتفائه بتلك الليلة أخذ يثبت حقيقة تعجّبه بها، إذ من خلال هذا التعجّب يعطينا صورة نفسه بحبه للهو، والانغماس فيه، فقد أكّد أنّه لو روى أحداث تلك الليلة لأهاجت نفوس السامعين وأثارت شجونهم فهو يقول:

فيـــا لهـــا ليلـــة كانـــت بوصـــلتها تـــاريخ لهـــو يُهـــيج الـــنفس راويهـــا

إنّ علاقة البارودي بالمرأة بحسب هذه الصورة هو ما قال به أغلب من كتبوا عنه، وعن شعره، ولذا فإنّ غزله وفقاً لما تقدّم يقع تحت باب اللذة بالحياة، وهو الغزل الذي يندرج باتجاه فنّي واقعي يدعو إلى اغتنام ما في الدنيا من مسرات، وتحقيق مبدأ فلسفة يدعو إلى تحيّن الفرص، واصطيادها، وإسعاد الحواس والتلذذ الأقصى في الوجود [2]. على الرغم من محاولة البعض تبويب هذه العلاقة بأبواب أقلّ لوماً وتعنيفاً له [3].

وينفرد محمد حسنين هيكل برأي ثالث خالف فيه الرأيين السابقين، إذ يرى أنّ ((غزله ولهوه

---

١ ـ ديوان البارودي شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٨٩ – ٥٩٠.

٢ ـ ينظر: الحنين إلى الأوطان في شعر ابن الآبار وحازم القرطبي: ٨٠.

٣ ـ ينظر: البارودي رائد الشعر الحديث: ٥٥، ومحمود سامي البارودي / علي الحديدي: ٦٤.

لم يكونا صادرين عن عاطفةألهبها الحب أو حرّكتها الخمرة بقدر ما حرّكها الحرص على التفّوق في حلبة الفحول الأولين.أنت تراه يذكر في الحب ما تكاد تظنّه حكاية حال كقصيدته عن غرامه بغادة حلوان. وأنا أميل إلى القول بأنّ هذا الغرام لا يزيد على صورة تخيّلها الشاعر، وأقصى ما يذهب إليه الظن أنّه صورة رآها في ليلة أنس فأعجبته، فخلع عليها من شعره معاني الغرام، وإن لم يملكه حب، ولم يقم بنفسه غرام))[1].

إنّ الذي دفع هيكل إلى هذا القول ما رآه من قصائد البارودي الغزلية، التي ما يلبث أن يتحوّل فيها من الغزل إلى الفخر، كما هو الحال في قصيدته التي يقول فيها [2]:

وما كنت أدري والشباب مطيّة	إلى الجهل أنّ العشق يقيّضه الخبل
رمى الله هاتيك العيون بما رمت	وحاسبها حسان من حكمه العدل

ويستمر الشاعر بغزله هذا إلى أن ينتقل بطريقة لطيفة ليفخر بقومه إذ يقول:

إذا نامت الأضغان عن وتراتها	فقومي قوم لا ينام لهم ذَحْل
رجال أولو بأس شديد ونجدة	فقولهم قول وفعلهم فعل
إذا غضبوا ردّوا إلى الأفق شمسه	وسال بدفّاع القنا الحزن والسهل

وطريقته في التغزل هذه كانت مألوفة عند الشعراء العرب القدماء.

مما تقدم نلحظ أنّ لوعة الغرام الحقيقي، وسمة الغزل الماجن والتقليدي كلها آراء قيلت في الشاعرين، إذ ذهب كل صاحب رأي بما يراه حقيقياً في شاعره. وإذا ما تحدّثنا عن حقيقة غرام أبي فراس فإنّنا نقف أمام لوحات غزلية تنبعث منها لوعة وأسى، وكأنها صورة لقلب خافق عرف الحب واكتوى بناره. ويبدو أنّ لهيب تلك النار كان بسبب صدق العاطفة المهيمنة على شعره حتى خيّل للقارئ أنّ الشاعر يتحدّث عن تجربة عاشها، وعرف مخابئها، على أنّ الأمرلا يعدو كونه مجاراة للتقليد الشعري العربي القديم الذي يُعرف بالغزل الصناعي، إذ يكون((في معظمه تطويراً لكثير من المعاني العامة في الغزل)) [3] إلا أنّه لم يكن تقليداً أعمى بقدر ما كان رمزاً لحكاية في ذات الشاعر، جاءت متناسبة وحال القصيدة التي يقولها. ففي رائيته المشهورة (أراك

١ ـ مقدمة ديوان البارودي: ١/ن.

٢ ـ ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبدا لرحيم: ٤٠٧ – ٤٠٩.

٣ ـ الغزل عند العرب:١٦٥.

عصي الدمع) أذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور البصير في أن غزل هذه القصيدة رمزي [1] فهو يقول [2]:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر

نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ولكنّ مثلي لا يذاع له سر

فالشاعر افتتح قصيدته بما يتناسب وقيمة الافتتاح، إذ جعل المقدمة له ليبين من خلالها أقدار الرجال – وهو منهم- فالحب ليس عيباً إنما العيب في أن يتمكّن منه الهوى، ثم يصبح مضغة هو ومن يُحب للأفواه. بعد هذا ينتقل بنا إلى الشكوى فيقول:

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

وهنا يفصح عن الضعف الذي قد يلّم به ليلاً وهو في زنزانات الروم، فيحّفزه على البكاء، بكاءاً ليس فيه تذلّل، وإنّما صفته الكبرياء.

وبهذا النفس يستمر الشاعر بغزله الذي لا يعدو كونه رمزاً للعلاقة التي تربطه بابن عمه سيف الدولة، إذ يتضح ذلك من عدّة أبيات منها قوله:

معلّلتي بالوصل والموت دونه إذا متّ ظمآناً فلا نزل القطر

حفظت وضيّعت المودة بيننا وأحسن من بعض الوفاء لك العذر

فقوله: " والموت دونه" إشارة لطيفة للوعود التي قطعها سيف الدولة على نفسه بدفع فدية الشاعر، ثم تأخّر عنها يتضح ذلك من قوله: " حفظت وضيعت المودّة بيننا " فأبو فراس يعتقد أنّه ظلّ وفياً لابن عمه، في حين أن ابن عمه قد ضيع تلك المودّة بعدم وفائه بالتزاماته، ولذا طالعنا بعد قليل بقوله:

تُسائلني مَن أنت؟ وهي عليمة وهل بفتى مثلي على حاله نكر ؟

وقوله: " تُسائلني من أنت؟ وهي عليمة " إشارة بارعة إلى قول سيف الدولة: " ومن يعرفك في خراسان " ثم ما يلبث الشاعر أن ينقلنا ومن غير إطالة إلى أعماق ذاته ليطلعنا على ما تكنّه من فخر وكبرياء، بطريقة تدل على عدم اكتراثه بحبيبته، إذ أنّ من أنكره سيف الدولة يعرفه البدو والحضر، وذلك في قوله:

---

١ . ينظر: في الأدب العباسي: ٤٠٨.

٢ . الديوان: ٨٤ – ٨٨.

ولا تنكري يا ابنة العمّ إنّه ليعرف من أنكرته البدو والحضر

وإنني لجرّار لكل كتيبة معوّدة أن لا يخل بها النصر

وإني لنزّال بكل مخوفة كثير إلى نزّالها النظر الشزر

بهذه الطريقة يسترسل الشاعر بفخره وهو يفخر بخصاله الكريمة من شجاعة وكرم، وإباء وعفو، ومروءة، وهذا هو غاية القصيدة، إذ أنّ حضور صورة المرأة المعشوقة في قصائد الفرسان والأجواد لا يعدو أن يكون جسراً للانطلاق إلى موضوع الفخر[1].

مما سبق نستدل على أن غزل أبي فراس في أغلبه إما تقليدياً جاء مجاراة لمنهج القدماء، أو لإظهار القدرة على الكتابة في كل الأغراض لا سيّما الغزل، الذي يعد باباً من أبواب زهو الفرسان، وطلبهم الكمال خاصة في الحياة الإسلامية. إذ إنّ تلك الحياة ((خرجت بالحب إلى أبعد الغايات، ورأت فيها إثارة للهمم، وطلباً للكمالات)) [2].

أو انه رمزياً يريد من خلاله التحدّث عن شيء أقضّ مضاجعه. إذ أنّ القصائد الغزلية القائمة بذاتها في شعره قليلة جداً إنّ لم تكن نادرة، على أن ذلك لا يعني أننا أمتنا عاطفته تجاه المرأة بقدر ما نريد أن نثبت حقيقة مفادها أنّ المرأة لم تشغل حيّزاً كبيراً من حياته، ولم تتمكّن من إخضاعه لهواها فهو يقول[3]:

و والله ماشبت إلاّ علالة ومن نار غير الحب قلبي يضرم

وهنا تتجلي صورة ذاته التي تنبيء عن انه خلق لأمر أكبر من أمر النساء، ولذا فنار قلبه مستعرة ربّما بسبب حال الإمارة أو بسبب حال دولة العرب المفكّكة.

وأمّا تطلعه للّهو فيبدو أنّه كان يراوده في أحيان معيّنة لا سيما وقت السلم والاستقرار إذ يقول[4]:

وما في طلب اللهو على الفتيان من عار

إنّه لا يجد عاراً في طلبه اللهو، ولذا أعتقد البعض أنّه لها وتمتّع بملذات الحياة، فقد جاء هذا

---

١ ـ ينظر: دراسات نقدية في الشعر العربي : ٧٤.

٢ ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة: ٢١٨.

٣ ـ الديوان: ١٩٧.

٤ ـ المصدر نفسه : ١٣٦.

النوع من غزله في قصائد مفردة مما يعني أنّ ((الاستهتار في اللهو كان أقرب إلى نفسه))[1]. يدفعه إليه رغبته في إقامة تلك الليالي على ندرتها فإحساسه بالإمارة والفتوّة ربّما ولّد في نفسه الإحساس بالنشوة الفائقة والشعور بالتفوّق مما دفعه بهذا الاتجاه [2]. فضلاً عن أنّ الشاعر ليس لديه حبيبة معينة، بسبب انشغاله بالحروب مما فرض عليه نوع من البعد المكاني عن عاصمة الدولة الحمدانية . وهذا الوضع ولّد بطبيعته في نفس الشاعر نوع من الرغبة – أحياناً- بممارسة اللهو وهذا ما سأ عرض له فيما بعد.

أما غزل البارودي فيمكن أن يقسّم على ثلاث مراحل بحسب حياته، تبدأ الأولى مع اكتمال سن الفتّوة عنده، إذ كانت تمثّل بالنسبة له مرحلة البناء إذ يقول[3]:

ســـــواي بتحنـــــان الاغاديــــــد يطـــــرب	وغـــــيري باللّـــــذات يلـــــهو ويُعجـــــبُ
ومـــــا أنـــــا ممـــــن تأســـــر الخمـــــر لبّـــــه	ويملـــــك سمعيـــــه الـــــيراع المثقّـــــبُ

إنّ البارودي في بداية حياته صوّب نظره إلى المجد والمعالي، فنأى بنفسه عن كل الملاهي بشكل عام، وعن المرأة بشكل خاص لئلا يكون ذلك عائقاً أمام طموحاته، فشحذ الهمم، وجرّد سيفه عن غمده طلباً لمجد الأجداد، إذ لم يدع لشيء في الدنيا أن يقلّل من عزمه، ويحول دون وصوله إلى مبتغاه فهو يقول[4]:

ومـــــا أنـــــا والـــــدنيا نعـــــيمٌ ولـــــذةٌ	بـــــذي تـــــرف تحنـــــو عليـــــه المـــــضاجع
فـــــلا الـــــسيف مفلـــــول ولا الـــــرأي عـــــازب	ولا الزنـــــد مفلـــــول ولا الـــــساق ظـــــالع

بهذه الصورة من العزم والقوة والإباء بدأ الشاعر حياته متطلّعاً إلى المجد من دون أن يجعل لعائق سلطاناً عليه. إلا أنّ للأيام حكمها، إذ كان للانتصارات التي حقّقها البارودي في حرب كريد، التي عجلت من ترقيته بالرتب العسكرية الفضل الأول في وصوله القصر الملكي واحتفائه بالقرب من الخديوي إسماعيل. وفي ذلك القصر قضى شاعرنا ثماني سنوات تهيأ له فيها من أسباب النعيم ما قصرت عنه الأعين إذ أخذ يتّنقل بين مجالس الطرب، وتدغدغ صور الحياة اللاهية أوتار حسّه، وتغوص إلى أعماق مشاعره، وتتحوّل في نفسه تجارب حقيقية تطفح

١ ـ أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم: ٦٩. .

٢ ـ ينظر: تصالح الأغراض والمفاهيم المتعارضة في شعر أبي فراس / دورة ندوة أبو فراس الحمداني: ١٣٥.

٣ ـ الديوان: ١/ ٣٠.

٤ ـ المصدر نفسه: ٢/ ١٨٥.

بالحيوية، وتجسد ما في شبابه من إقبال على الحياة، واندفاع على اللّذات[1]. وهنا بدأت المرحلة الثانية من حياته ، لقد استحوذ الجمال على نفسه فانشغل به كثيراً ولذا نجد إنّ لديه خطين غزليين مختلفين، كان لافتتانه بالجمال الأثر الأكبر في تكوينهما. الأول يتمثّل برغبته في الاستحواذ على أكثر من محبوبة.

إذ تجمعت بين يديه السبل لينعم بمجالس اللهو، والشراب والغناء وأسباب ذلك ((شباب ينفجر صبا، وفتوة وثراء يسلكه في علّية القوم، ومجد يعلو به إلى الهام، وفخار يكلل جبينه ببطولة في الحرب يتباهى بها على أقرانه، وتحبّبه إلى قلوب العذارى، وشعر يخلب اللب، ويسلب القلب من الضلوع... إنها حياة اللهو بين يدي البارودي... يتصيّد قلوب الغانيات فيشقى بحبهنّ تارة ويسعد أخرى، ويعبّ من الصهباء حتّى تظلّ به الأرض الفضاء تدور، ويعيش ما يشاء من ليالي الإنس ومجالس اللهو والغناء))[2].

إنّ هذا اللون من الحياة استثار شاعريته فصاغ لنا صوراً تحكي الجمال الذي يستمتع به والأحاسيس التي تخامره، ويفرد لكل حالة صورتها الخاصة بها فهو يقول[3]:

فكيف تسلبني قلبي بلا ترةٍ	فتاة خدر لها في الحيّ منتسبُ؟
مرّت علينا تهادى في صواحبها	كالبدر في هالة حفّت به الشهبُ
تهتزّ في فرعها الفينان في سرقٍ	كسمهري له من سوسنٍ عذبُ
كأنّ غرّتها من تحت طُرّتها	فجرٌ بجانحة الظلماء منتقبُ
كانت لنا آية في الحسن فاحتجبت	عنّا بليل النوى والبدر يحتجبُ

وبهذه الشاكلة ظلّ الشاعر يرسم هذه الصور من الجمال الماديّ والمعنوي بعد أنّ تمكّنت من لّبه لدرجة أنّه صار يخلع في حبّ الغيد رَسَنه ويبيع في ليل الهوى وسنه كما يقول[4]:

خلعت في حبّ غزلان الحمى رسني	وبعت بالسهد في ليلى الهوى وسني

١ ـ ينظر: الأدب العربي الحديث دراسة في شعره ونثره: ٥٢.

٢ ـ محمود سامي البارودي / علي الحديدي: ٦٣.

٣ ـ الديوان: ١/٤٩ ـ ٥٠.

٤ ـ ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٦٤.

وأعجبتني على ذمّ العذول لها صبابة نقلت سرّي إلى العلنِ

فليبلغ العذل منّي ما أراد فقد أسلمت للشوق روحي والضنى بدني

ويطالعنا الشاعر في أحيان معينّة وكأنّه أحبّ فتيّمه الحب فحينما ترحل حبيبته عنه – مثلا - يحيل رحيلها حلاوة الحب في نفسه التياعا، وعذابا .لكنّه يرضى ذلك منها بل ويتمنّى نظرة على البعد لتكتمل عيناه بها فيقول[1]:

يا راحلا غاب صبري بعد فرقته وأصبحت أسهم الأشواق تُصميني

إن كان يرضيك ما ألقاه من كمدٍ في الحب مُذ غُبت عنّي فهو يُرضيني

لم ألق بعدك يوماً أستبين به وجه المسرّة إلا ظلّ يُبكيني

قد كنتُ لا أكتفي بالشمل مجتمعاً فاليوم نظرة عينٍ منك تكفيني

لقد اتخذ الشاعر الجمال فريسة له فطوراً ينعم بحلاوته ولذّته فيسيل نغماً يتدفّق سلاسةً وجمالاً وطوراً آخر يُعذّبه الصد والشوق، والهجران فيصوغ الألم في عواطف لاذعة يمازجها حسن دقيق[2].

ووفقاً لما تقدم يتّضح أن الخلاف بين الشاعرين بالنسبة لعلاقتهما بالمرأة يكمن في ابتعاد أبي فراس عن اللهو والمجون لانشغاله بما هو أهم من ذلك وهو الحرب، بينما انغمس البارودي بملاذه مع النساء، حتى أخذ يمزج بين الغرام الحقيقي واللهوّ وكأنه يسعى إلى الإثنين معاً متناسياً ما نظّر له في شبابه من إلزام نفسه بعدم الميل إلى الملاهي حرصاً على التسلّق إلى المعالي، وهذا يعني أنّ رؤية الحمداني أبدية، فهو يصطف مع من ينظر إليها نظرة الفارس بوصفها رمزاً للحياة[3]. هذه النظرة تتماشى ونظرته الدينية. في حين أنّ نظرة البارودي تماشت وطبيعة الظروف التي عاشها إذ أخذ يكيّف نفسه بما يقتضيه واقع حاله.

أما القول بأنّ غزل البارودي تقليدي، فإن من قال بذلك قد لا يحيد عن الصواب، إلا أنّ ذلك كان في جزيرة سرنديب، حين مُنع عن كل الملاذ، فراح يطلب الزهد في هذه الدنيا، وهنا اتخذ من الغزل مقدّمات لقصائده في هذا المجال، لتكون أوعية حاملة لهمومه، وهو بهذا الغزل قد

---

١ - ديوان البارودي : شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم : ٥٧٨.

٢ - ينظر: محمود سامي البارودي / علي الحديدي: ٦٧.

٣ - ينظر: قضايا في الأدب والنقد: رؤية عربية، وقفة خليجية: ٢٨٣.

جاري فرسان العرب القدماء، متّخذاً من تجاربه القديمة مادّة له. على أنّه حاول أن يطبعه بطابع العفة التي ادّعاها كلا الشاعرين، بل وتفاخرا بها ((فالعفّة كالشجاعة والكرم في وزن واحد مما يفخر بها الرجال، وممّا يسودون لها... وطالما تباهى الرجال بعفّتهم وطالما مدحوا بها، ورثوا»[1]. فأبو فراس يعتّز بعفّته، ويتفاخر بتلك العفة التي تظافر على غرسها في نفسه عاملان، الأول مكتسب تمثّل بالجو العام السائد في البلاط الحمداني، إذ أنّ ((أوقيات اللهو كانت قليلة في بلاط حلب إذا قيست إلى غيره من البلاطات في العصر العباسي الذي عرف أنواع اللهو، والشراب، والرقص، والغناء والمجون... وكان سيف الدولة رجل حرب ونضال لا يشرب الخمر، ولا يسمع القيان، وكان يحظرهما على أبي فراس)) [2] لذا أخذ أبو فراس يصّور بعض الليالي تصويراً وكأنه يجد فيها شيئاً غير طبيعي، وهذا بسبب الطابع الوقاري على المجتمع الحمداني آنذاك، ومن وصفه لتلك الليالي قوله[3]:

وزيـــــارة مـــــن غـــــير وعـــــد	في ليلـــــة طُرقـــــت بـــــسعدِ
بـــــات الحبيـــــب إلى الـــــصبا	ح معـــــانقي خـــــداً لخـــــدِّ
يمتـــــــــار في وناظـــــــــري	مـــــا شـــــئت مـــــن خمـــــرٍ وورد

وفي مكان آخر يصف ليلة طيّبة أخرى فيقول[4]:

يـــا طيـــب ليلـــة ميـــلاد لهـــوت بهـــا	بـــأحور ســـاحر العيـــنين ممكـــور
والجـــو ينـــشر درّاً غـــير منـــتظم	والأرض بـــارزة في ثـــوب كـــافور

إنّ أغلب هذه الليالي – على قلتها – يبدو أنها من نسج خيال الشاعر، على الرغم من اعتقادي يميل نفسه قليلاً إلى اللهو ففي حديثه عن تلك الليالي لم يصفها بدقة كما هو متعارف عليه عند شعراء اللهو والمجون في العصر العباسي، وإنما اقتصر على ذكر الخطوط العامة التي ذكرها أغلب الشعراء ممن كتبوا بهذا الاتجاه. فضلاً عن أنّ المصادر التاريخية تذكر أنّه في إحدى المرات استأذن سيف الدولة في أن يسمع غناء ((ظلوم الشهرمانيّة إحدى

---

١ - الغزل في العصر الجاهلي: ٢٥٢.

٢ - شرح ديوان أبي فراس: ٢٠٢.

٣ - الديوان: ٧٩.

٤ - المصدر نفسه : ١٣٦.

الحسناوات لانّ نفسه تاقت لسماعها)) [1]. إنّ الذي يقضي الليالي مع من يحب في مجالس الأنس والسمر ليست به حاجة إلى الاستئذان من سيف الدولة لسماع إحدى المغنيات.

والذي اعتقده أنّ عقل الشاعر الباطني – برغبته في هذه المجالس – صاغ أغلب أحاديثه فظلت تدور في مخيلته حتّى طفحت إلى السطح رغماً عنه، يدلنا على ذلك أنّ عدداً من هذه القصائد التي أفاضت بأحاديث لهوه ومجونه، يقطع فيها الحديث عن النساء والخمر فجأة ليتحوّل إلى حديث الفخر بالشجاعة، وعلو الهمة مما يعني أنّ كلّ ما قدمه الشاعر ربما كان من وحي الخيال وليس حقيقياً مثال ذلك قوله[2]:

وكـــم مـــن ليلـــة لم أرو منهـــا ... حننـــت لهـــا وأرقَـــني إدّكـــار

فبـــتّ أعـــلّ خمـــراً مـــن رضـــاب ... لهـــا ســـكرٌ ولـــيس لهـــا خمـــار

إلى أن رقّ ثـــوب الليـــل عنّـــا ... وقالـــت: قـــمْ فقـــد بـــرد الـــسوار

ويسترسل الشاعر بهذا المعنى إلى أن يقول:

إذا مـــا العـــزّ أصـــبح في مكـــانٍ ... سمـــوت لـــه وأن بَعُـــد المـــزارُ

مقـــامي حيـــث لا أهـــوى قليـــلٌ ... ونـــومي عنـــد مـــن أقلـــى غـــرارُ

أبـــت لـــي همّـــتي وغـــرار سـيفي ... وعزمـــي والمطيـــة والقفـــارُ

ونفـــس لا تجاورهـــا الـــدنايا ... وعـــرض لا يـــرفّ عليـــه عـــارُ

إلى أن يقول:

إذا أمـــست نـــزار لنـــا عبيـــداً ... فـــإنّ النـــاس كلّهـــم نـــزارُ

لقد اتخذ الشاعر من المقدمة الغزلية افتتاحاً لقصيدته يسترعي بها القلوب ويظهر الحظوة التي يمتلكها بين النساء، وإن كانت غير حقيقية ليستدرجنا بصورة رتيبة إلى الفخر بالنفس كي يتخّذ من ذاته مثالاً يعكس من خلاله مآثر قومه وأفعالهم لينقلنا بذلك إلى مرحلة الفخر الجماعي. أما العامل الثاني الذي كان له الأثر الواضح في جعل العفّة سجية من سجايا الشاعر هو العامل الفطري. فمما لا شكّ فيه أنّ الوراثة، وحياة المرء الاجتماعية لهما الدور الكبير في

---

١ ـ شرح ديوان أبي فراس: ٢٠٢.

٢ ـ الديوان: ٩٣ – ٩٥.

تكوين شخصيته، وتنمية صفاته الغريزيّة، وتقويتها وإبرازها، وقد ((ورث شاعرنا الأمير عن أجداده وآبائه الشيء الكثير مما عُرف به هذا البيت الكريم، فكان مطبوع بالفطرة على مثل الأخلاق العربية العليا... فكانت رغباته قيد إرادة قوية ومجال واسع في الإمارة والرياسة))[1]. ولذا فهو يعتز بهذه السجايا بل ويتفاخر بها.

لقد تباينت آراء الدارسين حول عفّة أبي فراس إلا أنّ ((المشهور أنّه لم يمدح، ولم يهج، ولم يمجن)) [2]. إذ حوى ديوانه الكثير من الأبيات التي تضمّنت فخراً بعفّته وسمّواً عن اللهو. فبلغ بذلك منزلة عظيمة دفعته إلى أن يضع للعفّة شروطاً يتبين ذلك من قوله[3]:

عفافــــك غـــــيٌّ إنّمــــا عفّـــــة الفتـــــى   إذا عــــفّ عــــن لذّاتــــه وهــــو قـــــادر

فالعفة عنده أن يكون المرء قادراً على جماح رغباته ونزواته وكأنّه يعطي رأياً في مسألة العفاف، ويوضّح الحقائق المرتبطة بها.

فأين عفاف من لا يقدر على الوصول إلى غايته من عفاف من ترفّع وهو الأمير في زمن الجواري والقيان، اللواتي أكثر شعراء عصره من مخالطتهنّ، والتحدّث عنهنّ والتغزّل بهنّ غزلاً حسياً ماجناً[4]. وهذا ليس غريباً عليه فهو لا يشاكل شعراء عصره في كثيرمن المزايا إذ أنّ ((أبا الطيب وأبا فراس طبقة قائمة بذاتها بعيدة عن معاصريهم من الشعراء بعداً كبيرا)) [5]. فقد كان أغلب شعراء العصر العباسي يميلون إلى اللهو والمجون تماشياً مع طبيعة الحياة آنذاك، أما أبو فراس فكانت عفّته جداراً يحول دون انغماسه في تلك الحياة إذ يقول[6]:

ويـــا عفّـــتي مــــالي؟ ومالــــك؟ كلّـــــما   همــت بــأمر، هـــمَّ لـــي منــك زاجـــرُ

كأنّ الحجى والصون والعقل والتقى   لـــديّ لربـــات الخـــدور ضـــرائر

فعقله وصونه لنفسه ولدينه صار امرأة أخرى تمنعه زيارة من يهفو قلبه لها وهو بهذا يتحول من المنع الفطري إلى المنع المكتسب مع القدرة عليه.

---

١ ـ أعيان الشيعة: ٤٢/١٨.

٢ ـ أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم: ٩.

٣ ـ الديوان: ١٠٩.

٤ ـ ينظر: المرأة في أدب العصر العباسي: ١٧٥.

٥ ـ شاعريةأبي فراس دراسة مع مختارات في شعر الأميرالفارس الحارث بن سعيدالحمداني: ١.

٦ ـ الديوان: ١٠٨.

ولم تكن عفته لتمنعه يوماً من إعطاء رأيه في الحب فهو صاحب عواطف جيّاشة ومشاعر متّقدة حتّى أنّه أخذ ينحو في الحب منحى آخر غير ما كان مألوفاً في عصره إذ يقول[1]:

كيف السبيل إلى طيف يزاروه والنوم في جملة الاحباب هاجره

الحب آمره والصون زاجره والصبر أوّل ما يأتي وآخره

أنا الفتى إن صبا أو شفّه غزلٌ فللعفاف وللتقوى مآزره

وأشرف الناس أهل الحبّ منزلةً وأشرف الحبّ ما عفّت سرائره

إنّ أبا فراس يضع أمامنا الطريق السوي الذي اعتقده في الحب بعد أن خطّه لنفسه، فحين يهفو قلبه إلى من يُحب، هناك زاجر يمنعه التهّتك والمجون، إذ يلتحف العفاف حينما يقع فريسة لأهواء الصبا، ولم يكن تآزّره هذا مفروضاً عليه، إنما هو ما اختاره لنفسه وارتضاه لأنّ أشرف الحبّ ما عفّت سرائره.

وهو بحبّه هذا يعطينا صورة لنار تستعر بداخلة تحت رماد الحواجز المعنوية، والمشاغل المادّية التي من أهمّها الحرب يتضح ذلك من قوله[2]:

ولي فيك من فرط الصبابة آمر ودونك من حسن الصيانة زاجر

وبقوله هذا يطفح ما بنفسه من صراع داخلي مضطرم بين نار الحب وسمو العفاف.إذ تتجلّى ومن خلال ذلك بطولة الفرسان، فالإرادة والعزم لطرح الدنايا، وقهر النزوات والغرائز التي تدور في فلك الأنانية هي الشجاعة بعينها[3].

وإذا ما انتقل الحديث لعفّة البارودي فسنجد أن أراء الدارسين تتباين أيضا فيها بسبب تباين ظروف الحياة التي مرّ بها، إذ كانت له تجارب كثيرة في الحب،وكان فيها ((فاتك الصبوات... عرف الحب شريعة وجدانية فلم يتردد في اعتناقها ولو كان رئيس الوزراء، فالحب عنده جذوة روحية تصل صاحبها بسرائر الوجود، وترفعه إلى أوج المجد والخلود))[4] .

---

١ - المصدر نفسه: ١٠٢.

٢ - المصدر نفسه : ١٠٩.

٣ - ينظر: الشعر والمجتمع/ مختارات من الابحاث المقدمة لمهرجان المريد الثالث / ١٩٧٤ اسم البحث: مفهوم البطولة في الشعر العربي : ٧٧

٤ - محمود سامي البارودي: ٦٩.

فهو يقول[1]:

والعشق مكرمة إذا عف الفتى ... عمّا يهيم به الغوي الأصور

يقوى به قلب الجبان ويرعوي ... طمع الحريص، ويخضع المتكبرّ

والأبيات أعلاه تبين ما في قلب الشاعر من رقّة طبع،وعفة نفس،إلا أنّ دعواه العفّة، تتناقض واعترافه أنّ ((الشباب قد نزى به فانزلق وخرج عن خط العفّة الذي رسمه لنفسه[2]. إذ أنّ شعره في هذا المجال كثير جداً من ذلك قوله[3]:

وملمس عفّة قد نلت منه ... بأيدي اللهو ما شاء التمنّي

ملكتُ به عنان الشوق حتّى ... قضيتُ لبانتي وأرحت ظنّي

إنّ الشاعر عاش سنوات من عمره لا سيما أيّام فتوته وشبابه يستمتع بلهو الصباومفاتن الحياة، ويجري على طبيعة من الغواية [4]، ويعلن ذلك على الملأ بلا خشية من أحد إذ يقول[5]:

عصيت نذير الحلم في طاعة الجهل ... وأغضبت في مرضاة حب المها عقلي

ونازعت أرسان البطالة والصّبا ... إلى غايةٍ لم ياتها أحد قبلي

إنه يفخر بوصوله في هذا المجال حّداً لم يصله أحد قبله، ويبدو أنّه انتمى إلى بعض الشعراء ممنّ ((يرون أنّ كل امرأة مرشحة، ومؤهلة للحب وتحقيقه لهم، ومن هذه النظرة الواقعية انطلقوا في التغني بهذا الحب)) [6]. على أنّه لم يكتف بذلك، وإنّما أخذ يرى أنّ إثبات بشريته وارتفاعه عن مستوى البهائم إنّما يتّم من خلال انغماسه في اللهو والملذات إذ يقول[7]:

إذا المرء لم يطرب إلى اللهو والصبا ... فما هو إلا من عداد البهائم

وكأنما الاستمتاع بالشباب – في نظره – هو المعنى للبشرية السوية.

---

١ ـ الديوان: ٢/٥٧.

٢ ـ محمود سامي البارودي: ٦٩.

٣ ـ ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٧٨.

٤ ـ ينظر: محمود سامي البارودي / علي الحديدي: ٦٤.

٥ ـ ديوان البارودي : شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٤١٤.

٦ ـ العرجي شعر الغزل في العصر الأموي: ٦٦٠.

٧ ـ ديوان البارودي: شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٤٩٧.

مما تقدم يتضح أنّ عفة البارودي يربطها رابط المزاج فإذا صفت له الأيّام، وانقادت الدنيا بين يديه راح يدلّ بشبابه وجاهه على الحسان، ويتصيّد مجالس الإنس والسمر، وحينها يقول[1]:

ودعني من ذكر الوقار فإنّني ... على سرف من بغضة الحلماء

فما العيش إلا ساعة سوف تنقضي ... وذا الدهر فينا مولع برماء

ولا تحسبنّ المرء يبقى مخلّداً ... فما النقص إلا بعد كلّ نماء

أبي آدم باع الجنان بحبّه ... وبعت أنا الدنيا بجرعة ماء

أما الدين فله في النفس حرمته ولكن:

إذا ما قضينا واجب الدين حقّه ... فليس علينا في الخلاعة من وزر[2]

وأما إذا أدبرت عنه الدنيا فلا ملاذ له إلا الله فهو يقول[3]:

إذا المرء لم يركن إلى الله في الذي ... يحاذره من دهره فهو خاسر

نستشف من هذا كله أنّ الشاعر لم تخل نفسه من عفّة عصمته – على الأقل – من الانجرار الأبدي وراء الملاذ. فعفّته التي خرج عليها كثيراً حفظت له نفسه ولو بعد حين حينما اتّخذ من الزهد مسلكاً روحياً ينفض ما تراكم على ذاته من غبار أثر سنوات عجاف من النفي بعيداً عن ملاعبه، في حين أنّ تمسّك أبي فراس بعقيدة ناضجة منذ صباه فضلاً عن انصرافه إلى ما يتناسب وطبائعه كل ذلك جعل من العفّة طوقاً حصيناً منعه الانزلاق في مهاوي الخلاعة والمجون، وهذا ما دفعه ليتّخذ منها سبيلاً يتفاخر به لا يحثّ نفسه عليه فقط. وذلك ما لم نلحظه في شعر البارودي إذ صار شعار العفّة عنده مجالاً لإرشاد ذاته أو توظيفه في شعره الحكمي وهو كثير في ديوانه[4].

وبعد هذا كله لا بد لنا من وقفة جديدة على شعر الشاعرين لنستدل من خلالها على مدى طواعية كل منهما لمحبوبه، ودرجة تحمله الذل والخضوع أمامه، وحدود ذلك، لأنّ ((في الحبّ

---

١ . الديوان: ٢١/١.

٢ . المصدر نفسه: ٥/٢.

٣ . المصدر نفسه : ٦٧/٢.

٤ . ينظر ديوانه: ١٦٤/١، ١٩٣/١، ١٨٠/٢.

طاعة المحب لمحبوبه، وصرفه طباعه، قسراً إلى طباع من يحبه)) [1]. فالحب عند أبي فراس يأسر الشجاع، ويذلّ العزيز، ويجعل السيد عبداً كما يقول[2]:

أســـــاء فزادتـــــه الإســـــاءة حظـــــوة حبيـــب علـــى مـــا كـــان منـــه حبيـــب

يعـــــدّ علــــيَّ الواشــــيان ذنوبــــه ومـــن أيـــن للوجـــه الجميـــل ذنـــوب

فيـــا أيهـــا الجـــاني وتـــسأله الرضـــا ويـــا أيّهـــا الخـــاطي ونحـــن نتـــوب

لحـــى الله مـــن يرعـــاك في القـــرب وحـــده ومـــن لايـــوّد الغيـــب حتّـــى تغيـــب

ويبدو لي أنّ الشاعر اتّخذ من التذلّل أمام المحبوب رمزاً لقضايا معّينة مثلما وظّف المرأة سابقاً للغرض نفسه. فتارة يتعلّل به حينما يشتّد الألم عليه من ظلم أهله، حتى يبث ذلك شكوى غزلية ليست هي من الضواني، وإنّما ممّا يمسّه من حيف بسبب القطيعة التي استشعرها من أبناء عمومته لا سيما موقف سيف الدولة معه أيّام أسره. نستدل بقولنا هذا من خلال قصيدته التي يقول فيها[3]:

نفـــى النـــوم عـــن عـــيني خيـــال مـــسلّم تـــأوب مـــن أسمـــاء والركـــب نـــومّ

ظللـــت وأصـــحابي عباديـــد في الـــدجي ألـــذ بجـــوّال الوشـــاح وأنعـــم

وســـــائلة عنّـــــي فقلـــــت تعّجبـــــاً كـأنّـــك لا تـــدرين كيـــف المتـــيّم

ويبقى الشاعر مسترسلاً بغزله على هذه الشاكلة إلى أن يقول:

ووالله ماشـــــــــــــبت إلاّ علالـــــــــــة ومـــن نـــار غـــير الحـــبّ قلـــبي يـــضرم

والشاعر يصرح أنّ ما قاله من غزل كان تعلّلاً من هموم اضطرم لبه بنارها. وتارة نراه يتّخذ من حواره مع من يحبّ وتذلله له سبيلاً لإظهار ذاته والتفاخر بها على شاكلة قوله[4]:

تـــسائلني: مـــن أنـــت ؟ وهـــي عليمـــةٌ وهـــل بفتـــى مثلـــي علـــى حالـــه نكـــر؟!

١ ـ طوق الحمامة في الألفة والآلاف: ١٠٨.

٢ ـ الديوان: ٤٩.

٣ ـ المصدر نفسه : ١٩٦ – ١٩٧.

٤ ـ الديوان : ٨٥.

والشاعر لجأ للاستفهام التعجبي ليُثير في نفوسنا الدهشة لأنّ من كان مثله ليس بخاف ولا منكر. إلا أن هذا لا يعني أنّه لم يبد طواعية لمن يحب في غزله، وإن كان ذلك الغزل تقليدياً إذ يبدو أنه عده من باب التماشي مع النظرة السائدة في عصره التي تقضي أن التذلّل للمحبوب أو الصبر عليه ليس فيه أدنى مذلّة [1]، فهو يحبّ المرأة، ويسعد بقربها شريطة أن لا ينقاد لها إذ يقول[2]:

ولا تملك الحسناء قلبي كلّه ... وإنّ شملتها رقّة وشباب

وإذا ما أبكته تلك الحسناء فإنّ بكاءه لا يكون إلا سرّاً فهو يقول[3]:

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى ... وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر

فعلاقته بالمرأة علاقة فارس يعتزّ برجولته، وإرادته وعفّته من غير ميوعة وضعف واستسلام[4]. نتبين ذلك من هذه المقطوعة التي ليست بها أدنى حاجة إلى تعليق[5]:

لقد ضلّ من تحوي هواه خريدة ... وقد ذلّ من تقضي عليه كعاب

ولكنّني والحمد لله حازم ... أعزّ إذا ذلّت لهنّ رقاب

وأجري فلا أعطي الهوى فضل مقودي ... وأهفو ولا يخفى عليّ صواب

إذا الخلّ لم يهجرك إلاّ ملالة ... فليس له إلا الفراق عتاب

أما البارودي فقد امتلأ شعره الغزلي بالتذلّل، والتوسّل لمحبوبه من غير خفاء، إذ أنّ هذا يبدو مجاراةً للنهج الشعري القديم الذي يرى فيه أنّ طواعية المحبوب أسّاً من أسس الجمال في هذا المضمار، إذ أنّ أغلب الشعراء أخذوا بالتضرّع للمحبوبة، والإقرار لها بالعبوديّة لها حتى يسألونها أن تعتقهم [6] ولذا راح البارودي يصطنع المواقف أحياناً ليضع نفسه في موضع المتوسّل أمام

---

١ ـ ينظر: مشكلة الحب: ٣٣٤.

٢ ـ الديوان: ٤٧.

٣ ـ المصدر نفسه: ٨٤.

٤ ـ أبو فراس شاعر النضال / دراسة ومختارات: ٤٨.

٥ ـ الديوان: ٢٧.

٦ ـ ينظر اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: ٥٠٤.

المحبوبة فحين تمرض يقول فيها[1]:

دع حبيـــب القلـــب يـــا ســـقم	فبنفـــــسي لا بــــــه الألمُ
كيـــف حـــلّ الـــسقم في بـــدن	خلقـــت مـــن حـــسنهِ الـــنعمُ
يـــا لهـــا مـــن لوعـــة شعبـــت	ركـــن قلـــبي وهـــو ملتـــئم
منعـــــوني مـــــن زيارتـــــه	وحمـــى قلـــبي لـــه حـــرم
اتّهمـــــــوني في مـــــــودّته	والهـــوى مـــن شـــأنه الـــتهم
ربّ قـــــــنعهم بفريتهـــــــم	وانتـــصف مـــنهم بمـــا زعمـــوا
واشـــف نفـــساً أنـــت بارئهـــا	فإليـــك الـــبرء والـــسقم

والشاعر يتّخذ من موقفه هذا الذي ينبري فيه لفداء حبيبته ذريعة ليصوّر نفسه هو بالحالة التي انتابت حبيبه إذ يصدّ عنه ولا يعبأ به، فيتّخذ من ذلك سبباً للتوسل إليه لأن يصله فهو يقول[2]:

عليـــل أنـــت مـــسقمه	فمالـــك لا تكلّمـــه؟
ســـرى فيـــه الـــضنى حتـــى	بـــدت للعـــين أعظمـــه
فـــلا أن بـــاح تعـــذره	ولا أن نـــاح ترحمـــه
إذا كـــان الهـــوى ذنـــبي	فقـــل لـــي كيـــف أكتمـــه
ودمعـــي أنـــت مرســـله	وقلـــبي أنـــت مؤلمـــه

والبارودي يكثر من اعتذاراته، وبكائه، وتذلّله لمن يحب حتى كأنه ((عاش في الحب عيش الأطفال))[3] والسبب في ذلك أنّه تبع نزواته بعلاقاته مع النساء، إذ يمكن عدّه ممن ركبتهم غرائزهم، وهؤلاء بحسب رأي أصحاب التحليل النفسي، يبررون دوافعهم وانفعالاتهم

---

١ ـ ديوان البارودي شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٤٩٨ ـ ٤٩٩.

٢ ـ المصدر نفسه: ٥٠١.

٣ ـ الموازنة بين الشعراء: ٣٣٦.

ويمجدونها، ولا يستطيعون السيطرة عليها إرادياً فيتصرفون كالأطفال [1]. إلا أنّ ذلك لا يعني أنّ التذلل والخضوع كان سجية مطبوعة فيه بقدر ما كان من تأثير العصر والقصر في نفسه، إذ قضى ردحاً من حياته في قصر الخديوي إسماعيل يتّنقل بقلبه بين النساء الجميلات وحيث شاء، وهذا ما لم ينعم به أبو فراس، إذ عاش حياة اعتاد فيها الخشونة وأجواء الحرب. فضلاً عمّا كان من حرص البارودي الكبير في مجاراة الشعراء الفرسان القدماء في كل شيء لا سيما في طبيعة علاقتهم بالمرأة إذ أنّ العاشق وفق رؤيتهم شخص ((يقاسي آلام الحب وأوجاع الشوق، وتباريح الحزن، ويصف آهاته ودموعه وسقمه...)) [2] وهذا ما دأب عليه البارودي إذ زخرف به أغلب غزله التقليدي.

وتأسيساً على ما تقدّم يتبين لنا أن علاقة أبي فراس بالمرأة علاقة فارس يعتزّ برجولته، وإرادته، وعفته من غير ميوعة أو ضعف أو استسلام في حين أنّ علاقة البارودي بالمرأة كعلاقة الفراشة بالزهور فقد نقّل فؤاده حيث شاء من الهوى وبحسب حال حياته فحينما اقتضى الأمر الابتعاد عن النساء بحثاً عن المعالي وّطد نفسه على هذا الأمر، وحين وصل إلى القصر أطلق لنفسه العنان في أن تلهو وتتمتع بكل الملاذ. وحينما ألقته المقادير في دهاليز الظلام صارت العفة شعاراً يرفعه في غزله وفي ما قاله من حكم.

---

١ - ينظر: الشخصية السليمة دراسة من وجهة نظر علم النفس الإنساني: ٢٣٩.

٢ - الحب بين تراثين: ٩٠

المبحث الثالث:

صورة الذات في ضوء معاني الفخر

الفخر مدح يخصّ الإنسان به نفسه وقومه مباهاةً بكرم الحسب، ومنعة الجانب، ووفرة العطاء والإباء والوفاء، والمروءة وغير ذلك من المزايا، والخصال الشريفة التي كان شأنها عند العرب عظيماً، والتباهي بها مؤلوفٌ جارٍ على ألسنة شعرائهم وفي مختلف مجالسهم، وهم لا يرون في ذلك عيباً، ولا يعدّونه غروراً لا سيما إذا أيّدَ بذكر المآثر والوقائع[1]. ولم يكن أبو فراس والبارودي بمنأى عن هذا الفخر، بل كان شعرهما مطبوعاً بطابعه. فاعتدادهما بالفروسيّة ومعرفتهما بخوض المعارك، وتطلّعهما إلى نواصي المجد، كان لا بدّ له من أن يرتكز على ركيزة الفخر، إذ أنّ الفخر طريق تتخذه العرب للتباهي والتميّز على الآخرين، فضلاً عن كونه السبيل الأكثر قابلية على عرض مآثرهم، ووقائعهم، ولذا فلا يجيده إلا المجيد، وشهرته أكثر ما تعلق بالأمراء والشجعان، وأهل النسب كأمراء بني حمدان، وأشهرهم أبو فراس[2] وكثرته بينهم ((دليل على كبر نفوسهم، واعتدادهم بشجاعتهم، وتمسّكهم بقوميتهم[3].

لقد تهيأت لأبي فراس من الأسباب ما أن جعل نفسه توّاقة إلى الفخر متطلّعة إلى كلّ ما هو حسن مجيد إذ تيسّر له – وهو الطامح إلى معالي الأمور – أن يُباشر الحروب، وقيادة الجيوش، ويتقلّب في ذرى المجد، وهو ابن تسع عشرة سنة فنمت فيه غريزة الشجاعة، وقويت وعظمت، وهو إلى ذلك يجّر وراءه ماضياً ضخماً، وصيتاً عريضاً من تراث الآباء والأجداد، ويحمل في قرارة نفسه عقيدة دينيّة صلبة تعرف معها نفسه مالها، وما عليها. فأهّله ذلك لأن يتبوأ أسمى مقام بين العظماء ولأن يكون خالد الذكر ما بقي الدهر [4]. ولذا انطلق لسانه بالفخر بأهله وشخصه، فأمّا فخره بأهله وقبيلته فقد تبوّأ المكان الأول بين اتجاهات الفخر، ومرد ذلك أنّ الحمدانيين

---

١ . ينظر: فخر أبي فراس وأبي الطيب: بحث وتحليل وموازنة: ٥.

٢ ـ ينظر: تاريخ آداب العرب: ٢/١٠٤ – ١٠٥.

٣ ـ فخر أبي فراس وأبي الطيب: ١٠.

٤ ـ ينظر: شرح شافية أبي فراس في مناقب آل الرسول ومثالب بني العباس: ١٦.

حافظوا على مكانتهم العالية، وتمسّكوا بالفضائل العربية الأصيلة: الكرم، الوفاء، الإغاثة، الصدق، وصون الشرف والأخلاق العالية، فضلاً عن حرصهم على أمجادهم الموروثة[1].

لقد بدأ الشاعر ينطلق في فخره من فضاء رحب يتخيّر من خلاله ما يحلو له من صور وخصال ليوظّفها في شعره. على أن الشجاعة احتلّت حيزاً كبيراً قياساً لمعاني الفخر الأخرى وذلك لما لها من دور ريادي في المحافظة على الدولة الحمدانية، فضلاً عن أنّ المعروف عن بني حمدان أنهم دولة سيف وحرب بسبب موقعهم الجغرافي المتاخم لدولة الروم المعادية للعرب آنذاك. ولذا نجده يقول[2]:

إنـــــا إذا اشـــــتدّ الزمـــــا	ن، ونـــاب خطـــب وادلهـــمّ
ألفيـــــت حـــــول بيوتنـــــا	عـــدد الـــشجاعة والكـــرم
للقـــــا العـــــدى بـــــيض	الـــسيو ف وللنـــدى حمـــر الـــنّعم
هـــــذا وهـــــذا دأبنـــــا	يـــــودى دم ويـــــراق دم

إنّه بهذا التحدّي، والاستعداد العالي أراد أن يُثبت حقيقة أن الشجاعة والنجدة سجيّتان مطبوعتان في بني حمدان فهم متأهبون لردّ كلّ مهاجم.

ولم تكن شجاعتهم بمعزل عن باقي مزايا الفرسان، فهم – في نظره – قد جمعوا طرفي الحماسة، أو طرفي الفخر كلّه الشجاعة، والكرم، فهو يقول[3]:

لنـــا بيـــت علـــى عنـــق الثريـــا	بعيـــد مـــذاهب الأطنـــاب ســـام
تظلّلـــــه الفـــــوارس بـــــالعوالي	وتفرشـــــه الولائـــــد بالطعـــــام

إنّه اتّخذ من الشجاعة والكرم منطلقاً للتباهي بهم، لأنّ البيوت الحصينة، السامية في كرمها يتطلّع أهلها إلى أرفع المنازل بسبب ما تمتاز به من قوة، وهذا ما دفع أبا فراس إلى أن يتصوّر أهله أمنع الناس لا بل أفضلهم إذ يقول[4]:

---

١ ـ ينظر: أبو فراس الحمداني شاعر النضال / دراسة ومختارات: ١٣.

٢ ـ الديوان: ٢١١.

٣ ـ المصدر نفسه: ٢١٦ – ٢١٧.

٤ ـ المصدر نفسه: ٢٢.

ألم ترنـــا أعــز النـــاس جــاراً	وأمـــرعهم وأمـــنعهم جنابـــا
لنـــا الجبـــل المطـــلّ علـــى نـــزار	حللنـــا النجـــد منـــه والهـــضابا
تُفــــضلنا الأنــــام ولا نحاشــــى	ونوصــــف بالجميــــل ولا نحــــابى
ولقـــد علمـــت ربيعـــة بـــل نـــزار	بأنّـــا الـــرأس والنـــاس الـــذنابى

بهذه الصورة عبّر الشاعر عن فخره واعتزازه بقومه، حتىّ وصل بذلك مدى بعيداً، فقد أنزلهم منزلة الرأس بين الناس، وهو بذلك قد نظر إلى تاريخ قومه قديماً وحديثاً، فما رأى عنهم إلا جلائل الأمور، وفضائل الأعمال، فدفعه ذلك إلى أن ينظم بهم قصيدته الرائية المشهورة التي ربت أبياتها على المائتين والعشرين بيتاً ضمّنها تعداداً لمآثرهم وديواناً لتأريخهم المشرق ، بدأه من بدايات حياتهم قبل الإسلام حتّى وصل به ابن عمه سيف الدولة فخراً ينمّ عن اعتزازه بهم، ودفاعه عنهم. وقد بدأ قصيدته هذه بالغزل على عادة أغلب شعراء الفخر لتأتي منسجمة والغرض الذي يريد ((فالغزل أكثر ملائمة في مطالع الفخر من مطالع المدح لأنّ النفس في الفخر منفعلة مهتاجة، ولأنّ الغزل ضرب من القدرة والفتوّة والسمو يساير الفضائل التي يفخر بها الشاعر))[1].
بعدها ينتقل بشكل رتيب إلى التفاخر بمناقب آل حمدان حتىّ يصل به حداً يقول فيه[2]:

لنـــا في بـــني عمّـــي وأحيـــاء أخـــوتي	عـــلا حيـــث ســـار النيّـــران ســـوائر
وإنهّـــم الـــــسادات والغـــرر الـــتي	أطـــول علـــى خـــصمي بهـــا وأكـــابر
ولـــولا اجتنـــاب العتـــب مـــن غـــير منـــصفٍ	مـــا عزّنـــي قـــول ولا خـــان خـــاطر
ولا أنـــا فيمـــا قـــد تقـــدّم طالـــب	جـــزاءً ولا فيمـــا تـــأخّر وازر
نطقـــت بفـــضلي وامتـــدحت عـــشيرتي	فمـــا أنـــا مـــدّاح ولا أنـــا شـــاعر

إنّه لم يكتف بهذا القول الكثير، وهذا الفخر الذي أحصى به مناقب بني حمدان، فوقف على أغلب وقائعهم فرأى نفسه قد اختصر ولم يطنب، واقلّ ولم يُطل اجتناباً للعتب من غير منصف ولولا ذلك لما عزّه طول، ولا فاته خاطر. بعد هذا كلّه يستوقف الشاعر نفسه لينظر إلى

---

١ ـ اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري: ٦٨.

٢ ـ الديوان: ١٢٤.

ذاته فأنِفَ أن يُعرف بالمدّاح أو الشاعر إذا أريد بذلك المداح المتزلّف إذ ((كانت العرب لا ترضى التكسّب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقّها إلا بالشكر إعظاماً لها))[1]. فهو لا يسعى بفخره إلا لإظهار مناقب قومه ومحاسنهم، إذ يرى أنّهم خلقوا لغاية غير التي خُلق لأجلها الناس إذ يقول[2]:

لئن خُلق الأنام لحسو كأس ومزمار وطنبور وعود

فلم يُخلق بنو حمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

إنّها رسالة مجد خُطّت للأجداد بعد ما بنوا صروح العزّ شامخة في كل أرض وطئوها، ثمّ أسلموها للأبناء الذين حرصوا عليها بدورهم، وها هم الابناء يصونونها سليمة من كل ذلّ ودنّية فيصور أبو فراس ذلك بقوله[3]:

لنا أول في المكرمات وآخر وباطن مجد تغلبي وظاهر

نشيد كما شادوا ونبني كما بنوا لنا شرف ماضٍ وآخر حاضرُ

والبارودي هو الآخر اتخذ من مجد المماليك، ومناقبهم إبّان حكمهم البلاد المصرية سبيلاً للفخر بهم، وبمحاسنهم، على الرغم من أنّه شبّ في عصر غير عصرهم، فلم يشهد من مناقبهم شي. ولذا كان فخره بهم قاعدة للفخر بنفسه، لأنّه بحاجة ماسّة لإثبات ذاته، إذ أنّ الفخر أكثر الفنون الأدبيّة التصاقاً بالنفس، وتصويراً لها، واللجوء له يدلّ على نزعة عنيفة لإثبات الذات[4]. فهو يقول[5]:

أنا من معشر كرام على الدهر أفادوه عزّة وصلاحا

فرعوا بالقنا فنان المعالي وأعدّوا لبابها مفتاحا

عمّروا الأرض مّدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحا

---

١ . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/ ٨٠.

٢ . الديوان: ٨٠.

٣ . المصدر نفسه: ١١٢ - ١١٦.

٤ . ينظر: في الأدب الحديث: ٦١.

٥ . الديوان: ١/ ١١٠.

وفخره هنا كان بنفسه، يتّضح ذلك من قوله "أنا" إذ اتّخذ من آبائه منطلقاً لهذا الفخر. وهو يقول أيضاً [1]:

نمـــاني إلى العليـــاء فـــرع تأثّلـــت أرومتـــه في المجـــد، وافتـــر ســـعده

وإنـــي امـــرؤ لا اســـتكين لـــصولةٍ ولا شُـــدّ ســـاقي دون مـــسعاي قـــدّه

فشجاعته لم تتأتّ من فراغ، إنّه فرع من ذلك المجد المتأثل الذي خلّفه الأجداد له. فالسعي نحو المعالي لا يكون بالتمّني، كما أنّه لا يبدأ من فراغ، إنّه شيء متأصل في القوم يورثه الآباء لأبنائهم، ويحثونهم عليه فإنّه يقول[2]:

وحـــسب الفتـــى مجـــداً إذا طالـــب العـــلا بمـــا كـــان أوصـــاه أبـــوه وجـــدّه

إنّهم أوصوه بذلك، وهو بحاجة لهم كي يثبت أصالته ومجده. فالشاعر حينما يمجّد أجداده فهو يسلط الأضواء على الأنا في ماضيه، ممّا يوفّر له فرصة التمييز من الآخرين، ومن خلال تذكيرنا ببعض فضائل أسرته [3]. ولذا حرص الشاعر في – أغلب فخره – على الربط بين حاضره، وماضي أسرته المشرق، أو أنّه اتخذ من الفخر بهم منطلقاً لبناء مجده. ولذا كان تفاخره بهم مسلّطاً على حقيقة انتسابه لهم، مع عرض الخطوط العامة لتاريخهم من دون أن يخوض بالتفاصيل الدقيقة، كما فعل أبو فراس إذ أنّ أبا فراس وبعد فخره بشجاعة قومه ومراستهم في سوح القتال، راح يتخذ من الكرم سمة للاعتزاز بهم، مفّصلاً ومطنباً في القول بذلك، لا سيما إذا عرفنا أنّهم في عصر كان للكريم فيه المنزلة العالية، ولذا فهو يقول[4]:

أعـــزّ بـــني الـــدنيا وأعلـــى ذوي العـــلا وأكـــرم مـــن فـــوق الـــتراب ولا فخـــر

لقد بدأ الشاعر بتسليط الأضواء على تاريخ أجداده المشرق بطريقة تنم عن خبرة ودراية بكل دقائق الأمور، حرصاً منه على إيصال ذلك الماضي المشرق بحاضرهم المتألق. فقد استغل الدور الكبير الذي لعبه جده الحارث بن عوف في إيقاف سيل الدم المتدفق جراء الحرب التي اشتعلت قبل الإسلام، والتي عرفت بحرب داحس والغبراء ليذكّر بمناقب قومه، ومفاخرهم

---

١ ـ الديوان: ١ /١١٧.

٢ ـ المصدر نفسه : ١٨/١.

٣ ـ ينظر: تاريخ الأدب العربي: بلاشيبر: مج٢ / ٢٨٨.

٤ ـ الديوان: ٨٨.

ليساعد ذلك في إعلاء شأن الحمدانيين، إذ يقول[1]:

فجدّي الذي لمّ العشيرة جوده ... وقد طار فيها للتفرق طائر

تحمّل قتلاها وساق دياتها ... حمول لما جّرت عليه الجرائر

ودى مائة لولاه جرّت دماؤهم ... موارد موت ما لهنّ مصادر

ولم يقتصر جهده على إنهاء حالة القتال العنيف، ورأب الصدع، وإنّما طفح بكرمه حينما تحّمل مائة ديّة للقتلى، ولولا ذلك لظلّت تلك الدماء تسيل سنين طوال.

وبهذا النفس يسترسل الشاعر في تعداد مناقب قومه، فيقف على بناء سور ملطية الذي أشاده جدّه حمدون[2]، فهو يقول[3]:

بنى الثغر الباقي على الدهر ذكره ... نتائج فيها السابقات الضوامر

ثم ينتقل بعد ذلك ليفخر بقتل عمّه الحسين بن حمدان للوزير العباسي بن المعتضدي[4].فهو يقول[5]:

وعمي الذي أردى الوزير وفاتكاً ... وما الفارس القتّال إلا المجاهد

ويظل أبو فراس مسترسلاً بقصيدته هذه ليقف على أغلب مآثر الحمدانيين حتّى يصل مناقب أبيه فيقول[6]:

أولئك أعمامي ووالدي الذي ... حمى جنبات الملك والملك شاغر

بحيث نساء الغادرين طوالق ... وحيث اماء الناكثين حرائر

له بسليم وقعة جاهلية ... تقر بها قند وتشهد حاجر

وأذكت مذاكيه بسرح وأرضها ... من الضرّ نارٌ جمرها متطاير

---

١ ـ الديوان : ١١٢.

٢ ـ الديوان: هامش (٥) ص ١١٢.

٣ ـ المصدر نفسه: ١١٢.

٤ ـ المصدر نفسه: هامش (٢) ص ١١٣.

٥ ـ المصدر نفسه: ١١٣.

٦ ـ الديوان: ١١٥.

وأوّل مـــن شـــدّ المجيـــد بعينــــه	وأوّل مــن قــدّ الكمــيّ المظــاهر
غــزا الــروم لم يقــصد جوانــب غــزوة	ولا ســـبقته بــالمراد النـــذائر

ويستّمر الشاعر بفخره هذا ليشمل التغنّي بمناقب الحمدانيين في عصره، مع تأكيده على السير بنفس خطى الأجداد إذ يقول[1]:

فــإن تمــضي أشــياخي فلــم يمــض	مجدها ولا دثـرت تلـك العـلا والمـآثر
نـشيد كمـا شـادوا ونـبني كمـا بنـوا	لنـا شـرف مـاض وآخـر حاضـر

وهو بهذا رفد حاضر قومه بماضيهم الوضّاح ربطاً يشد من عزمهم، ويجعلهم أكثر سبقاً إلى جلائل الأعمال، ولذا فقد صبّ الشاعر جهده على قومه في هذا المجال أملاً منه في إبقاء ذكرهم خالداً أبد الدهر من غير أن ينسى حظّ ذاته من ذلك الفخر، إذ أنّ له الالتفاتات الرائعة في الفخر الشخصي.

لقد أولع أبو فراس في شعره بذكر الحرب والطعن والضرب في سبيل العز والمجد والرفعة على أنّه بدأ يفخر بذاته بعدما أيقن من ثبات أصله، وشرف نسبه، وبعدما أسّس للفخر بالأجداد ثم الآباء لئلا يكون فخره تقليدياً كما عند عامّة الشعراء. إذ وصف فخره بأنه ((مليء بالحيوية لأنّه يصوّر فيه واقعاً لا وهماً من أوهام الخيال))[2]. فمن بديع شعره في مجال الفخر الشخصي قوله[3]:

ألا مَــنْ مبلــغ ســروات قــومي	وســيف الدولــة الملــك الهمامــا
بــأنّي لم أدع فتيــات قــومي	إذا حــدّثن جمجمــن الكلامــا
شــريت ثنــاءهنّ ببــذل نفــسي	ونــار الحــرب تــضطرم اضــطراما
ولــمــا لم أجــد إلا فــراراً	اشــدّ مــن المنيــة أو حمامــا
حملــت علــى ورود المــوت نفــسي	وقلــت لعــصبتي موتــوا كرامــا

---

١ ـ المصدر نفسه: ١١٦.

٢ ـ الفن ومذاهبه: ٣٥٢.

٣ ـ الديوان: ٢١٣.

وعـــدت بـــصارم ويـــد وقلـــب حمـــاني أن أُلام وأن أضـــاما

ولم أبـــذل لخـــوفهم مّجنـــاً ولم ألـــبس حـــذار المـــوت لامـــا

إن أثر الفروسية، والفتوّة واضح في هذا الشعر، وفي أغلب فخره، فلا نكاد نقف على أثر من آثاره، إلا ويروعنا بشجاعته، وقوة بأسه.

ولم يكن فخره بشجاعته خيال تمنيات، أو هي مما استدعته الشاعرية الفارسة في حينها، بل كان حقيقة أثبتها بذكر المواقع التي خاض معاركه فيها، وحاز النصر على أعدائه. فهو الذي أثخن الجراح ببني كلاب ببالس، وكان معهم "كثير بن عوسجة" و "جهان بن عرفجة" حتى القوا إليه السلم، وأتوه طائعين، وحينها قال[1]:

ســلي عنّــي ســراة بــني كــلاب ببـالس عنـد مـشتجر العــوالي

لقينـــاهم بأســـياف قـــصارٍ كفـــين مؤونـــة الأســـل الطـــوال

ولـــي بـــابن عوســـجة كـــثير وســـاع الخطـــو في ضـــنك المحـــال

فقلـــن لـــه: الـــسلامة خـــير غـــنم وإنّ الـــذّل في ذاك المقـــال

وجهمـــان تجافـــت عنـــه بـــيض عـــدلن عـــن الـــصريح إلى المـــوالي

إنّ أبا فراس أثبت قومه جأشاً، وأسرعهم طعناً، فهو الذي ردّ غارة بني قشير بخمسة عشر فارساً، وشدّ عليهم بهذا العدد القليل، حتىّ هزمهم، واسترد منهم أموالاً كانوا استلبوها من عشيرة موالية لآل حمدان[2]. وقال[3]:

أيـــا عجبـــاً لأمـــر بـــني قـــشير أراعونـــا وقـــالوا القـــوم قـــلّ

وكـــانوا الكثـــر يومئـــذ ولكـــن كثرنـــا إذ تعاركنـــا وقلّـــوا

وقـــال الهـــام للأجـــساد هـــذا يفـــرق بيننـــا إن لم تولّـــوا

فولّـــوا للقنـــا والبـــيض فـــيهم وفي جيرانهـــم نهـــل وعـــلّ

---

١ ـ المصدر نفسه: ١٩٠.

٢ ـ ينظر: فخر أبي فراس، وأبي الطيّب: بحث وتحليل وموازنة: ٣٠.

٣ ـ الديوان: ١٩٠.

ورحنـــا بـــالقلائع كـــلّ نهـــد معلـــل فوقـــه نهـــد مطـــلّ

بهذه الثقة العالية والمراسة القتالية، تصدى لهم، مع ما معه من عدد قليل، فأوقع بهم الخسائر الباهظة وردّ كل ما حازه جيشهم. على أنّ هذا التمكّن، وهذه القدرة لم تكن لتصل حدّ الانتقام فلم تميت الصفح والعفو، والمروءة من نفسه. وأدلة ذلك كثيرة منها: أنّه قتل زيد بن منعة بن عفر بن كلاب، وأوقع بقومه وأسر منهم عدداً كبيراً فرماه النساء بأنفسهنّ. وحينها ردّ الأموال عليهنّ، وأطلق الأسرى لهنّ ، وأنشد هذه الأبيات[1]:

إبـــاء، إبـــاء البكـــر غـــير مذلّـــل وعـــزم كحـــدّ الـــسيف غـــير مفلّـــل

أأغـــضي علـــى الأمـــر الـــذي لا أريـــده ولّمـــا يقـــم بالعـــذر رمحـــي ومنـــصلي

أبـــى الله والمهـــر المنيعـــي والقـــنا وأبـــيض وقّـــاع علـــى كـــلّ مفـــصل

وفتيـــان صـــدق مـــن غطـــاريف وائـــل إذا قيـــل ركـــب المـــوت قـــالوا لـــه: إنـــزل

إلى أن يقول:

فلّمـــا أطعـــت الجهـــل والغـــيظ ســـاعة دعـــوت بحلمـــي أيهـــا الحلـــم أقبـــل

شـــفيع النزاريـــات غـــير مخيـــب وداعـــي النزاريـــات غـــير مخـــذّل

رددت بـــرغم الجـــيش مـــا حـــاز كلـــه وكلّفـــت مـــالي غـــرم كـــلّ مـــضلل

وهنا تتجّلى سمات الفارس الأبي الذي يعفو، ويصفح ويرّد الأموال، ويغرم نفسه ما ضاع من ذلك المال، على الرغم من المقدرة الفائقة. فالحلم من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها العربي، لا سيّما إنسانيته في معاملة الأسرى.

إنّ هذا النبل إزاء العدو هو إحياء للشجاعة في الخصم، حيث خانه الحظ، وهي اعتذار وّدي عن الفوز على ندّ ما كان أحراه مثلهم بالنصر لولا أنْ يجانبه التوفيق في المعركة[2]. وهذا ما دأب عليه الشاعر لا سيّما في معاركه مع قبائل العرب. ولم يكن حلمه هذا وليد ساعته، وإنّما سجيّة من سجايا نفسه فهو يقول في معرض تمدّحه بهذه الخصيصة[3]:

---

١ ـ المصدر نفسه : ١٧٦.

٢ ـ ينظر: تقاليد الفروسية عند العرب: ٢٦١.

٣ ـ الديوان: ٢١٦.

يقولـــون لا تخـــرق بحلمــــك هيبـــة وأحـــسن شـــيء زيـــن الهيبـــة الحلـــم

فـــلا تتركـــن العفـــو عـــن كـــلّ زلّـــة فمـــا العفـــو مـــذموم وإنّ عظـــم الجـــرمُ

وهو إلى ذلك إنما يضع نصب عينية قدرة الله التي لا يوازيها قدرة، فكأنّما بتجسيده لهذه الخلال، يسير وفق تعاليم الشريعة السمحاء. التي سبق وذكرنا مدى تمسّكه بها، ولذا فإنّه لا يستطيع النجاة أمام قضاء الله، إذا قضى عليه بهزيمة، أو أسر، أو موت في المعركة. وهذا يعني صدق حديثه عن ذاته إلى الحدّ الذي يمنعه الغرور والخوض فيما وراء قدرة الإنسان وهذا ديدنه في كلّ مستويات حياته، وظروفها فهو يقول[1]:

خيلـــــي وإنّ قلّـــــت كـــــثير نفعهـــــا بـــين الـــصورام، والقنـــا الرّعّـــاف

ومكـــارمي عـــدد النجـــوم ومنزلـــي مـــأوى الكـــرام، ومنـــزل الأضـــياف

لأ اقـــتني لـــصروف دهـــري عـــدّة حتـــىّ كـــأن صـــروفه أحـــلاف

شـــيم عرفـــت بهـــنّ مـــذ أنـــا يـــافع ولقـــد عرفـــت بمثلـــها أســـلاف

إنّها القيم المتأصّلة عند العربي التي احتلت من نفسه حيّزاً كبيراً حتّى تحكّمت به في أشد الظروف.

ولم تكن الشجاعة أو القيم المرتبطة بها المجال الوحيد الذي وظّفه الشاعر في فخره وإنّما تباهى بخصال ذاته سلماً وحرباً. إذ كان للكرم المكان السامي من نفسه لأنه يمثّل لبّ العلاقة بين الذات والآخر، هو ضابط السلوك بين الإنسان والإنسان في السماحة، والأريحية النفسية، وقبول الآخر، وفي حسن الأمان، والتأمين، والتواصل الإنساني غير النفعي، فهو قيمة وجوديّة للعربي ولا سيما البدوي[2]. ولذا سأوليها قدراً من الاهتمام.

إنّ شعره في هذا المجال ينقسم على قسمين، الأول تقليدي سار فيه على نهج الشعراء القدماء من إشادة بقومه، وكرمهم، وإنزالهم الضيف منزلة عظيمة من ذلك قوله[3]:

إذا مـــــررت بـــــوادٍ جـــــاش غاريـــــه فاعقـــل قلوصـــك، وانـــزل ذاك وادينـــا

---

١ - المصدر نفسه : ١٥٤.

٢ - ينظر. النقد الثقافي في قراءة الأنساق الثقافية العربية: ١٥٣.

٣ - الديوان: ٢٢٠.

وقوله[1]:

ولا والله مـــــا بخلــــت يمـــــيني ... ولا أصـــبحت أشـــقاكم بمـــالي

ولا أمـــسي يُحكّــم فيـــه بعـــدي ... قليـــل الحمـــد لـــي ســـوء الفعـــال

ولكنّـــي ســـأفنيه وأفـــني ... ذخـــائر مـــن ثـــواب أو كمـــال

إنّ هذه الصور ربّما تكون مبثوثة في شعر الشعراء السابقين له، ولذا يمكن أن يعدّها البعض من باب المحاكاة والتقليد، إلا انّ هناك صنفاً آخر أفصح عنه الشاعر، وفيه صور من كرمه لربّما انفرد بها عن الآخرين، إذ من خلالها نستشف تفانيه، وإخلاصه في شراء المجد التليد مقابل ما يبذله من المال والعطاء كقوله[2]:

نـــاري علـــى شـــرف تأجـــ ... ـــج للـــضيوف الـــسارية

يـــا نـــار إن لم تجلـــبي ... ضـــيفاً فلـــست بناريـــه

والعـــزّ مـــضروب الـــسُرا ... دق والقبـــاب لجاريـــة

يجـــني ولا يُجنـــى عليـــ ... ـــه وتتقـــي الحلْـــى بيـــه

وهنا يطفح النفس الفروسي، إذ حاول الشاعر أن يجمع كل ما من شأنه السمو والرفعة. ولذا نجده مبالغاً في كرمه وجوده إلى الحدّ الذي قد يودي به إلى الفقر ((فالشجاع دائماً كريم، لأنّ من يجود بنفسه في ساحات الوغى لا يمكن أن يبخل بالمال))[3]. إنّه باذل المال نابذ الحرص مترفّع عن العطاء وهذا من كرم الطبع وعلوّ المنزلة، فهو من أولئك الذين ينفقون و((يسرفون في الإعطاء، ويتلفون، ولا يحسبون حسابا، أو يلتمسون جزاءاً))[4]. فهو يقول[5]:

تعـــس الحـــريص وقـــلّ مـــا يـــأتي بـــه ... عوضـــاً عـــن الإلحـــاح والإلحـــاف

إنّ الغـــني هـــو الغـــني بنفـــسه ... ولـــو إنّه عـــاري المناكـــب حـــافِ

---

١ ـ المصدر نفسه: ١٧٣.

٢ ـ الديوان: ٢٣٢.

٣ ـ أبو فراس الحمداني / رحلة الحياة ومسيرة الموت مع مختارات شعرية: ٢٥.

٤ ـ تقاليد الفروسية عند العرب: ٢٣٧.

٥ ـ الديوان: ١٦٤.

مــا كــلّ مــا فــوق البــسيطة كافيــاً فــإذا اقنعــت فكــلّ شــيء كــافِ

وتعــاف لــي طمــع الحــريص أبــوّتي ومروءتــي وقنــاعتي وعفــافي

فطباعه الحسنة، وأخلاقه الحميدة صارت حائلاً دون وَقوعه في الحرص، أو الانجرار وراء العطاء المادّي.

وكعادة العرب فإنّ قرى الضيف لا تقتصر على الطعام والشراب أو المأوى، وإنّما أخذوا "يسعون إلى أن يتفوق بعضهم على بعض بلطف الاستقبال، والحفاوة" [1]. ولذا نجده يقول[2]:

ولـست بجهـم الوجـه في وجـه صـاحبي ولا قائـل للـضيف هـل أنـت راحـل

ولكــن قــراه مــا تــشهّى ورفــده ولــو ســأل الأعمــار مــا هــو سـائل

ينـال اختيـار الـصفح عـن كـلّ مـذنب لــه عنــدنا مــالا تنــال الوســائل

وهو إلى جانب كرمه هذا تعل العاطفة الإنسانية والمروءة في نفسه عندما تمتزجان بالفروسيّة عملاً جماً. فهو في إحدى قصائده يعطينا صورة مجسدة للكرم النبيل التي تصف عطاء الفارس حينما يلتقي بصبيّة تجر أذيالها في أثناء عودته من غزوة موفقة، وقد حاز جيشه من الغنائم الشيء الكثير إذ دفعه كرم النفس في ذاته إلى أن يخب لها كل ما غنمه جيشه وأنشد يقول[3]:

وســاحبة الأذيــال نحــوي لقيتهــا فلــم يلقهــا جــافي اللقــاء ولا وعــر

وهبــت لهــا مــا حــازه الجــيش كلــه ورحــت ولم يكــشف لأبياتهــا ســتر

ولا راح يطغيــني بأثوابــه الغنــى ولا بــات يُثنــيني عــن الكــرم الفقــر

ومــا حــاجتي في المــال أبغــي وفــوره ولا فرســي مهــر ولا ربّــه غمــر

إن من صفة الفرسان الأجواد أنّهم يهبون بالسليقة، ويهبون حرياً على تقاليدهم، أو ابتغاء الصيت، وحسن الذكر[4]. فكان هو واحداً منهم، إذ كشف عن خلق رفيع، كان أثراً من آثار العاطفة الإنسانية، والتربية الدينية، مع سمات المروءة العربية حين تمازجت مع بعضها، فولّدت

---

١ ـ تقاليد الفروسية عند العرب: ٢٣٧.

٢ ـ الديوان: ١٦٤.

٣ ـ المصدر نفسه: ٨٤ – ٨٧.

٤ ـ ينظر: تقاليد الفروسية عند العرب: ٢٣٧.

ذلك الكرم السخي الذي به يصان العرض، ويكسب الثناء الحميد، فضلاً عن الرضى الإلهي.علماً أنّ حاجة تلك الصبية كانت اقل بكثير ممّا أعطاها، إلا أنّه أبى إلا أن يكون عربياً فالعربي يحرص – في عطائه – أن تكون الهبة جديرة بالواهب دون الالتفات إلى درجة احتياج المنكوب[1].

ويظل الشاعر يطالعنا بهذه الصور البهيّة التي تدل على احتقار المال وحفاوة الضيافة إلى الحد الذي يصبح ضيفه أولى بمنزله منه إذ يقول[2]:

ويصبح الضيف أولانا بمنزلنا   نرضى بذلك ويمضي حكمه فينا

ويبقى هذا المعنى مهيمناً على أغلب صور كرمه، إذ يبدو أنّ لديه قناعة بأنّ المجد في إنفاق المال، إذ يصرّح بذلك في معرض مدحه لأحد أجداده بقوله[3]:

فآبوا بجدواه وآب بشكرهم   ومافيهما في صفقة المجد خاسر

وكيف يُنال المجد والجسم وادع   وكيف يحاز الحمد والوفر وافر؟

إنّه بهذا الاستفهام الاستنكاري يضع أمامنا حقيقة التضاد بين التطلّع إلى المجد، والخلود إلى الراحة، وبين نشر الحمد، والحرص على المال.

إنّ المصادر التي تحدّثت عن أبي فراس عكست تفاخره بتلك السجايا أجمعت على أنّه كان حريصاً على التحلّي بفضائل الأخلاق، ولذا نراه يطالعنا بتلك الصور الإنسانية وحرصه على تمثّلها، إذ أنّ بدوامها دوام الرابطة الاجتماعية، والعلائق البشرية، مثال ذلك قوله[4]:

أنا الجار لا زادي بطيء عليهم   ولا دون مالي للحوادث باب

ولا أطلب العوراء منهم أصيبها   ولا عورتي للطالبين تُصاب

فأي مثل للأخلاق السامية يحتذيه المرء أسمى من ذلك، وقد جمع الشجاعة مع الكرم مع المروءة مع الترفّع عن الدنايا . إنّه يعمد إلى ترتيب الأشياء كلّ حسب استحقاقه، فمروءته وغيرته لا تجعله في موقف المتذبذب حينما يتعرّض عرضه، وماله للانتهاك، إنّه يجزم الأمر

---

١ ـ ينظر: تقاليد الفروسية عند العرب: ٢٣٨.

٢ ـ الديوان: ٢٢٠.

٣ ـ المصدر نفسه: ١١٢.

٤ ـ المصدر نفسه: ٢٩.

بقوله[1]:

أحمــــــي حريمـــــــي أن يبـــــا ح ولـــــــستُ أحمـــــي ماليـــــا

إنّ الالتزام الديني، والنشأة الاجتماعية الحسنة لهما الدور الرئيس في صفاء نفسه، إذ ابتعد عن الأنانية والحقد عن كلّ الناس، فصار يرتاح لمن يشكر أو يكفر معروفه على السواء، فهو يعتقد أن فاته الشكر لم يفته الأجر كما يقول[2]:

ومـــا نعمـــة مـــشكورة قـــد صـــنعتها إلى غـير ذي شــكر بمــانعتي أخــرى

ســآتي جمـــيلاً مـــا حييـــت فـــإنّني إذا لم أفـد شـكراً أفـدت بـه أجـرا

ولم يقتصر الشاعر على الفخر بما هو دنيوي، وإنّما راح يلتمس أثر القيم الروحية، والدينية في نفسه، إذ يحدثنا عن ورعه وصلاحه، وحسن سيرته فهو من العفّة بحيث لا يظلم أحداً، فضلاً عن أنّه يسعى لإنصاف خصمه حتّى من نفسه مثلما ينتصف لها منهم وهذا يكشف ما بذاته من أثر العصر الذي يعيشه والانفتاح عليه إلى حدّ ما. إذ لم يكن فخره تقليدياً كسابقيه، حينما كانوا يتفنّون بظلمهم الناس، إنّه من أولئك الذين أخذوا ((بالتحرّي، والكشف الواعي.. ولذا فإنّ فخرهم بعيد عن الفخر الذي تشتّد فيه النزوة))[3]. فهو يقول[4]:

لـــست بالمستـــضيم مـــن هـــو دونـــي اعتـــداءاً ولـــست بالمستـــضام

أبـــذل الحـــقّ للخـــصوم إذا مـــا عجـــزت عـــن قـــدرة الحكّـــام

لا تخطّـــــى إلى المظـــــالم كفّـــــي حـــذراً مـــن أصـــابع الأيـــام

هذا هو أبو فراس يفخر بكل ما يجده من صفات ذاته ((وحيث حلّ، وأنى وجد، فهو يفخر سواء كان حّراً في بلاده منتصراً مزهواً بكبريائه، أم كان أسيراً مهزوماً، مخذولاً في بلاد الروم)) [5]. حتىّ صار الفخر سجّية نفسه. ففي أسره افتخر على أعدائه، وهو بينهم إذ يقول[6]:

---

١ ـ الديوان : ٢٣٢.

٢ ـ المصدر نفسه : ١٢٨.

٣ ـ للفنون الأدبية عند العرب: فن الفخر وتطوره في الأدب العربي: ١٠٠.

٤ ـ الديوان: ٢١٤.

٥ ـ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: ١٧٠ - ١٧١.

٦ ـ الديوان: ١٧٠- ١٧١.

ولله عنـــــدي في الإســـــار وغـــــيره مواهــب لم يخـصص بهــا أحــد قبلــي

حللـــت عقـــوداً أعجـــز النـــاس حلـــها ومـــازال عقـــدي لا يـــذمّ ولا حلّـــي

إذا عـــاينتني الـــروم قـــد ذلّ صـــيدها كـــأنّهم أســـرى لـــديّ بـــلا كبـــل

ويبدو أنه بفخره هذا يحثّ قومه على الإسراع في مفاداته لأنّ لا أحد يسد مكانه إذ يقول[1]:

متـــى تخلـــف الأيـــام مثلـــي لكـــم فتـــى طويـــل نجـــاد الـــسيف رحـــب المقلّـــد

متـــى تخلـــف الأيـــام مثلـــي لكـــم فتـــى شـــديداً علـــى البأســـاء غـــير ملهّـــد

إنّه كبير الثقة بنفسه، ولذا صار الصدق ميسم فخره، إذ نأى به عن المبالغة إلا ما ندر. وهو بذلك يكاد يتفرّد بهذه الخصيصة التي قلّما نلمسها لدى غيره من الشعراء[2]. وهذه الحقيقة هي نفسها التي طبعت شعره بطابع الفخر غالباً. فكل ما في حياته يرجع إلى هذا النوع من الشعر فضلاً عن انّه حمل نفسه على البحث عمّا يناسبها، فهو يقول[3]:

إذا مـــا العـــز أصـــبح في مكـــان سمـــوت لـــه، وإنّ بعـــد المـــزار

مقـــامي حيـــث لا أهـــوى قليـــل ونـــومي عنـــد مـــن أقلـــي غـــرار

إن التوجّه الفخري في شعره، وتعلّقه بجلائل الأمور كان بسبب ((النشأة العالية التي نشأ عليها والمكان السامي الذي كان يتبوءه)) [4]. إذ غرس فيه الترفّع عن كثير من الأمور منها على سبيل المثال، في أحد الأيام عُرضت على سيف الدولة خيوله، وبنو أخيه، وبنو عمه حضور، فكلّ اختار منها وطلب حاجته، وأمسك الأمير أبو فراس، فعتب عليه الأمير سيف الدولة ووجد من ذلك، وتكلّم فبلغ ذلك أبا فراس فأنشد يقول [5]:

غـــيري يغّـــيره الفعـــال الجـــافي ويحـــول عـــن شـــيم الكـــريم الـــوافي

---

١ ـ المصدر نفسه: ٦٦.

٢ ـ ينظر: الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني: ٣٨ / رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة / كلية الآداب جامعة بغداد / ١٩٩٧.

٣ ـ الديوان: ٩٤.

٤ ـ فخر أبي فراس وأبي الطيب: بحث وتحليل وموازنة: ٣٦.

٥ ـ الديوان: ١٥٣- ١٥٤.

إنّ الغــــني هـــو الغـــــني بنفـــسه ... ولـــو أنّـــه عـــاري المناكـــب حـــافِ

مـــا كـــلّ مـــا فـــوق البـــسيطة كافيـــاً ... فـــإذا قنعـــت فكـــل شـــيء كـــافِ

وتعـــاف لـــي طمـــع الحـــريص أبـــوتي ... ومروءتـــي وقنـــاعتي وعفـــافِ

مـــا كثـــرة الخيـــل الجيـــاد بزائـــدي ... شـــرفاً ولا عـــدد الـــسوام الـــضافِ

ومكـــارمي عـــدد النجـــوم ومنزلـــي ... مـــأوى الكـــرام ومنـــزل الأضـــياف

بهذه الألفاظ البسيطة، الكثيرة التداول التي جاءت على غير عادة الشعراء المفاخرين، إذ أنّهم يتخيرون الألفاظ الفخمة، والغريبة في تفاخرهم. يصف الشاعر ذاته، وطباعه بعيداً عن الجفاء والحرص، بعدما خبر الدنيا وأيقن بزوالها، وأنّ الخلق الرفيع هو السبيل لبناء المجد الأزلي. ولذا نجده يكشف عن الماهيّة التي من أجلها صنع ديوانه الشعري إذ يقول[1]:

الـــــشعر ديـــــوان العـــــرب ... أيـــــضاً وعنـــــوان الأدب

لم أعـــــد فيـــــه مفـــــاخري ... ومـــــديح آبـــــائي النجـــــب

ومقطّعـــــــــات ربّمـــــــــا ... حليـــــت مـــــنهنّ الكتـــــب

لا في المـــــــديح ولا الهجـــــــا ... ء ولا المجـــــون ولا اللعـــــب

فديوانه تضّمن مفاخره، ومفاخر آبائه، وأجداده، على أنّه ابتعد عن كلّ مديح سوى مديح قومه، وربأ بنفسه عن الهجاء، والمجون واللعب، فكأنّه رأى في مدح غير آبائه تزلفاً، وفي الهجاء سفهاً، والمجون خلاعة، وفي اللعب عبثاً يحطّ كلّ ذلك من قدره، وشرف نفسه.

وكما تعددت مجالات الفخر عند أبي فراس، فهي كذلك عند البارودي. فقد افتخر بنسبه، وشجاعته، وفروسيته إلى الحدّ الذي عدّه البعض نوعاً من المبالغات[2]. من ذلك قوله[3]:

ولـــي شـــيمة تـــأبى الـــدنايا وعزمـــة ... تـــردّ لهـــام الجـــيش وهـــو يمـــور

إذا ســـرت فـــالأرض الـــتي نحـــن فوقهـــا ... مـــراد لمهـــري والمعاقـــل دور

١ ـ المصدر نفسه: ٥٠.

٢ ـ ينظر: في الأدب الحديث: ١ / ٢٠٠.

٣ ـ الديوان: ٢ / ٢٩.

فلا عجب إن لم يصرني منزل فليس لعقبان الهواء وكور

همامة نفس ليس ينقي ركابها رواج على طول المدى وبكور

معوّدة إلا تكفّ عنانها عن انجدّ إلا أن تتمّ أمور

لها من وراء الغيب أذن سميعة وعين ترى ما لا يراه بصير

إنّه يفصح عن غروره لا سيّما في البيت الأخير، حينما أنزل نفسه منزلة أعلى من منزلة البشر، إنّها منزلة الأصفياء، والأنبياء، فالنداء يأتيه بالتبّصر من وراء الغيب، وإنّه يرى أبعد مما يراه المجربون، وأصحاب الرأي السديد.

إنّ هذا النوع من الفخر ساد في شعره إلى الحدّ الذي أخذ يترآى له أنّ الناس حسّاد له، على مكانته، وطبع في مخيلته أنّه فريد عصره، فهو يقول[1]:

فإن أكن عشت فرداً بين آصرتي فها أنا فرد بين أندادي

بلغت من فضل ربّي ما غنيت به عن كلّ قارٍ من الأملاك أو باد

فما مددت يدي إلا لمنح يسر ولا سعت قدمي إلا لإستتتعاد

إنّ الشاعر ألزم نفسه بما قال – في شبابه – طالما يلوح له بريق الوصول، إنّه يُغامر ويرمي بنفسه في المصاعب كلّما تيقّن من الخروج بالغنيمة، وهو لا يرضى بالغنيمة البخسة، فطلابه بعيد دوماً، إذ يقول[2]:

ولست ممّن إن دجا حادث ألقى زمام الأمر أو فوّضا

لكنّني ألقى الردى حاسراً وأصدع الخصم إذا أعرضا

جرّدت نفسي لطلاب العلا والسيف لا يُرهب أو يُنتضى

ولي من القول نصير إذا دعوته في حاجة أو فضا

لقد تهيأ للبارودي ما لم يتّهيأ لأحد غيره، من أقرانه، إنّه سليل عائلة مالكة، كان لها من الجاه والثراء الشيء الكثير، فضلاً عن حصوله على فرصة الدخول إلى المدرسة العسكرية

---

١ ـ المصدر نفسه : ١ / ١٧١.

٢ ـ المصدر نفسه : ٢ /١٥٩.

الحربيّة، مضافاً إلى كل ما تقدّم امتلاكه موهبة شعرية فذّة. كل ذلك جعله يصبو إلى معالي الأمور متّخذاً من هذه المزايا سبيلاً للتفاخر، والتباهي إلى حّد لم يصله أحد غيره، ممّا جعله يدخل دائرة الغرور فهو يقول[1]:

وأصبحت محسود الجلال كأنّني ... على كلّ نفس في الزمان أمير

إذا صلت كفّ الدهر عن غلوائه ... وإذا قلت غصّت بالقلوب صدور

ملكت مقاليد الكلام وحكمة ... لها كوكب فخم الضياء منير

فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى ... لباء بفضلي جرول وجرير

وما ضرّني أنّي تأخرت عنهم ... وفضلي بين العالمين شهير

فيا ربما أخلى من السبق أوّل ... وبذّ الجياد السابقات أخير

فهل وصل أحد إلى ما وصله البارودي من الغرور. إنّه لم يكتف بترفّعه إلى مصاف الأنبياء ولا بصولاته على الدهر، إنّما يتوهم بأنّه سبق الحطيئة، وجريراً على أن تأخّره عنهم لم يضرّه بعدما طفقت شهرته الآفاق، ولذا أخذ يطالب الأيام بالتبّصر لتضعه المكان الذي يستحّقه فهو يقول[2]:

ألم يأن للأيام أن تبصر الهدى ... فتخفض مأفوناً وترفع جهبذا؟

إذا لم يكن بالدهر خبل لما غدا ... يسير بنا في ظلمة الجور هكذا

فالدهر مخبول لا يميّز بين البشر، ولا يعرف قيمتهم حتىّ يعطي لكل ذي حقّ حقه.

ويبقى الفخر الشخصي ملازما الشاعر حتىّ آخر أيامه، فخراً نلمس منه مقدار اعتداده بنفسه اعتداداً يصل به حداً من المبالغة، والغرور، وهذا بدوره يفصح لنا عمّا يدور بمخّيلته من إحساس بالغبن، وعدم وضعه المكان الذي يستحق، أي أنّ فخره المتزايد هذا ربّما كان نوعامن التعويض. نستدل على ذلك من آخر أبيات كتبها في حياته وهو على فراش الموت وفي صحوته[3] إذ يقول[4]:

---

١ ـ الديوان: ٢/ ٣٠.

٢ ـ المصدر نفسه: ١ /٣٢٢.

٣ ـ ينظر: محمود سامي البارودي / علي الحديدي: ١٩٢

٤ ـ الديوان: ١ / ٢٠٦.

أنا مصدر الكلم النوادي بين الحواضر والبوادي

أنا فارس أنا شاعر في كل ملحمة ونادي

فإذا ركبت فإنني زيد الفوارس في الجلاد

وإذا نطقت فإنني قسّ بن ساعدة الأيادي

هذا وذلك ديدني في كل معضلة نأد

إنّه يفخر وهو على فراش الموت. وهذا على خلاف أغلب ممّن كان لديّهم تديّن. إنّه لا يريد مقابلة ربّه ضعيفاً، أو انّه لا يريد أن يظهر عليه الضعف بعد هذه الأزمات المتوالية وهذا نقيض الزهد الذي ادّعاه في أيام منفاه الأخيرة.

ولم يقتصر البارودي في فخره على شجاعته وبأسه، وكرمه، بل راح يتخذ من الخلال الحسنة – التي وصف نفسه بها – مجالاً آخر لفخره أملاً في توطيد مكانته الاجتماعية.

إنّ شاعريته، ورقة طبعه، والنشأة الحسنة، كل ذلك ساعد في غرس الخلق الكريم في نفسه فطفح كرماً ومروءة وليناً. ففي باب الكرم يحكى أن حافظاً زاره ذات يوم، وكان حافظ سيء الحال، فأنشد قصيدة نظمها في البارودي، وفيها البيتان:

أتيت ولي نفس أطلت جدالها سيقضي علبها كربها اليوم أو غدا

فإن لم تداركها بفضل فقد أتت تودّع مولاها، وتستقبل الردى

فلما سمع البارودي هذين البيتين بكى بكاءاً حارّاً، وناشد حافظاً أن يحذفهما من القصيدة، ونهض من مكانه، فأتى وبيده ظرف به أربعون جنيهاً من معاشه، ثم قال لحافظ: إني أبكي لأنّي عشت إلى زمن يقدّم فيه مثلي إلى مثلك هذا المبلغ الضئيل. على أنّ هذا المبلغ هو كل ما عنده[١]. فقال في ذلك[٢]:

لا تعذلنّي على وفر سمحتُ به للمعتفين فإنّي ماجد الشيم

إن لم يكن للفتى جود يسدّ به مفاقر الصحب فالمثراة كالعدم

---

١ - ينظر: محمود سامي البارودي / علي الحديدي: ١٨٦.

٢ - ديوان البارودي شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم: ٥٢٨.

فإن يكن قلّ مالي بعد وفرته   فإنّ مالي لا يقوى على كرمي

إنّه يعتذر باستحياء لأن ما عنده لا ينهض بما تجود به يده، إذ أن للجود النصيب الأوفر من ذاته، ولطالما تغنّى به، ذامّاً وفرة المال، والحرص عليه، إذ يقول[1]:

فلا تحسبنّ المال ينفع ربّه   إذا هو لم تحمد قراه العشائر

فقد يستجمّ المال، والمجد غائب   وقد لا يكون المال والمجد حاضر

وهو عالي الهمة يتّمثل في شعره الإباء والكبرياء. من ذلك قوله[2]:

إذا لم يكن إلا المعيشة مطلبٌ   فكلّ زهيد يملك النفس جابر

فحينما تنحط همة الإنسان في الحياة إلى الاكتفاء بما يسدّ الرمق، ويحفظ العيش، أغناه القليل الزهيد.

بهذا النفس الإنساني الذي ينم عن اعتزاز بالمعالي يظل الشاعر يطالعنا بأبيات فخره وعزّه. فمثلما افتخر في أيام سؤدده، نجده يفتخر في منفاه إذ يقول[3]:

وإني امرؤ لولا العوائق أذعنت   لسلطانه البدو المغيرة والحضر

من النفر الغرّ الذين سيوفهم   لها في حواشي كل داجية فجر

إذا استلّ منهم سيّد غرب سيفه   تفرّعت الأفلاك والتفت الدهر

لهم عمد مرفوعة، ومعاقل   وألوية حمر، وأفنية خضر

ونار لها في كلّ شرق ومغرب   لمدرع الظلماء ألسنة حمر

تمدّ يداً نحو السماء خضيبة   تصاحبها الشعرى ويلثمها الغفر

والبارودي بفخره هذا فاجأنا بما لم نعهده عنه سابقاً، قبل منفاه. فقد التفت لقومه، ومجدهم الزائل أكثر من التفاتته لنفسه. إذ أنَّ الإنسان – في الغالب – يلجأ إلى أنسابه، ومفاخر قومه، والتذكير بهم في المواقف الصعبة، أي عندما يغلبه المفاخرون، ويقهره المنافرون، بعد أن قطعوا

---

١ - الديوان: ٢ / ٧٠.

٢ - المصدر نفسه: ٢ /٦٨ .

٣ - المصدر نفسه: ٢ /٣٣.

عليه السبل، وسدّوا عليه أبواب الحيلة، فاتّخذ الأباء، والجدود تعلّة، ومعذرة يلتمس عندهم ما لا يجد عند نفسه، ويستعير من أعمالهم ما لا يجد في أعماله[1]. ولذا راح البارودي يذكّر بانجازاتهم ومآثرهم. فخيل قومه يرّج الخافقين صهيلها، وهي معوّدة قطع الفيافي.

بهذا النفس يبرز طابع الفخر البدوي على فخره. ولذا فإنه بذلك ابتعد عن الصدق لأنّ الحديث موّجه للمصريين والمتحدث عنهم المماليك سادة البلاد سابقاً. والطرفان ليست لهما أية علاقة بالبداوة ولذا يمكن القول إن فخره هذا ينبأ عن غلبة اليأس على نفسه، يأس من كل شيء، لأنّ من نفاه كان منتصراً عليه، ولأن قومه انهزموا هزيمة انتهت بتجريدهم من السيوف ولم تبق منهم باقية أكّد ذلك بقوله[2]:

أقاموا زماناً ثمّ بدّد شملهم ملول من الأيام شيمته الغدر

فلم يبق منهم غير آثار نعمة تضوع بريّاها الأحاديث والذكرُ

أما الحمداني فقد انصبّ اهتمامه في أسره بالفخر الشخصي وهذا أيضاً عكس ما ألفناه عنه قبل أسره، إذ كانت الغلبة للفخر القبلي آنذاك. فهو يقول في معرض حديثه عن شجاعته[3]:

وإنّي لجرار لكلّ كتيبة معّودة أن لا يخلّ بها النصر

وإنّي لنزّال بكل مخوفة كثير إلى نزّالها النظر الشزر

فأصدي إلى أن ترتوي البيض والقنا وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

وهذا نهاية الفخر. فالفارس يظلّ عطشاناً حتى ترتوي الرماح، والسيوف، ويبقى جائع حتى تشبع النسور والذئاب وهو هنا لا يذكر غير نفسه بخلاف البارودي. بل ذهب إلى أبعد من ذلك حينما أخذ يضع الحقائق نصب أعينهم، إذ ذكّرهم بمنزلته وسطهم، وما سيحل بهم إذا خسروه فهو يقول[4]:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدّهم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر

---

١ - المذاهب النقدية: ١٨٢.

٢ - الديوان: ٢ / ٣٥.

٣ - الديوان : ٨٦.

٤ - الديوان : ٨٧ - ٨٨.

فإن عشت فالطعن الذي يعرفونه وتلك القنا والبيض والضّمر الشقر

وإنّ متّ فالإنسان لا بد ميت وإن طالت الأيام وانفسح العمر

ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر

وكأننا بالشاعر يحدّث قومه من موقع القوة والتمكّن، لا موقع الضعف والاستسلام، بدليل البيت الأخير، الذي حاول فيه أن يؤكد حقيقة لا نظير له، ولا أحداً يسدّ مكانه. يدفعه إلى ذلك الرغبة في الظهور لا سيما بعد أن روّج الوشاة لنهايته. فالحاجة إلى التعبير عن الذات وتوكيدها، هي التي تدفع الفرد إلى الإفصاح عن شخصيته وبأنّه ما زال في دور العطاء، وبإمكانه القيام بأعمال جليلة[1]. على أنّ اعتداد أبي فراس بنفسه لم يصل إلى حدّ القطيعة مع قومه، إذ سرعان ما يلتفت ليطالعنا مباشرة بعد أبياته هذه بـ " نحن أناس" التي حاول بها رأب الصدع الذي حدث بينه وبينهم، لا سيما ابن عمّه سيف الدولة، وهذا ما يكشف لنا عن حاجته لهم إذ يقول[2]:

ونحن أناس لا توّسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطب الحسناء لم لا يغلها المهر

اعزّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلا وأكرم من فوق التراب ولا فخر

وهنا يعود الشاعر لقومه إذ ختم قصيدته بهم، بعد أن عمد إلى تجاهلهم طول تلك القصيدة التي زادت أبياتها على الخمسين بيتاً.

إن المتتبع الدقيق لفخر أبي فراس يلمس فيه حسه القومي بشكل واضح أحياناً، وأحياناً أخرى يبرز من خلال فخره بأهله وآبائه الأولين فهو يقول[3]:

دع الوطن المألوف دأبك أهله وعد من الأهل الذين تكاشروا

فأهلك من أصفى، وودّك من صفا وإن نزحت دار، وقلت عشائر

فأهله حيث صفى العيش، وطاب الودّ، حتى وإن بعدت الدار.

---

١ ـ ينظر : أصول علم النفس: ٩٦.

٢ ـ الديوان : ٨٨.

٣ ـ الديوان : ١١٠.

وينتظم أبو فراس في سلك الشعراء الذين أخذتهم العزّة العربية، فافتخروا بها، ورأوها ذات قيمة في المجد [1]. إذ يقول[2]:

أسيف الهدى وقريع العرب	علام الجفاء؟ وفيم الغضب
وإنّك للجبل المشمخرّ	لي بل لقومك بل للعرب
علا تستفاد ومال يفاد	وعز يشاد ونعمى تُرب

إنّه يذّكر الأمير الحمداني بالمسؤولية العربية الكبرى، وإن هذه المسؤولية من السعة بحيث تتطلّب رجاحة وسعة في نفسه لتتحمل كل المجريات، وهموم الشاعر واحدة منها.

وهو يعد مجد سيف الدولة ، وانتصاراته مجداً للعرب، ونصراً لهم، وعزّة وفخراً. على

ان فخره القومي لم يرتق إلى مستوى فخره القبلي، أو الشخصي، ذلك لأنّ الفخر القومي يظهر عندما تذوب شخصيّة الأديب في أمّته بحيث يصبح معهم كلّا واحداً [3]. وهذا ما لم نلحظه عند أبي فراس، إذ اتخذ من مفاخر أهله سبباً لفخره بالعرب.

أمّا البارودي فقد انعدم عنده هذا النفس، فلم نجد له فخراً بالعرب، وهذه المسألة ليست بها حاجة إلى إبانة، فالرجل من عنصر شركسي، أي من قوميّة تركيّة، وليست عربيّة، ولذا مال بشعره عن التغنّي بالعرب، على أنّ هذا لم يخدش وطنيته، ولا قلّل من ولائه لبلاده مصر.

نخلص من كل ما تقدّم إلى أنّ شعر الشاعرين حوى فخراً شخصياً، وقبلياً، تمثّل في مرحلتين الأولى تحت ظلال الوطن والأخرى في ظلمات الحبس بعيداً عن ملاعب الفتيان.

فالشاعران اتخذا من الفخر بآبائهما منطلقاً للفخر بنفسيهما. إلا أنّهما افترقا في أمور عدّة فصورة الفخر عند أبي فراس حفلت بالدفاع عن النفس، ودفع الريبة والذل، وما إلى ذلك من معان كانت ضرورية بالنسبة للشاعر الفارس، فضلاً عن ابتهاجه، وتباهيه بمناقب الآباء والأجداد، إلى الحدّ الذي أصبح فخره بهم أكثر من فخره بنفسه وهذا هو شأن الشعراء القدماء الذين كانت عنايتهم بمفاخر قبائلهم تشغلهم عن الاهتمام بمفاخرهم، وكأنّهم لا يشعرون لأنفسهم بوجود خاص[4]. فقلّ أن نراه يفخر بنفسه دون أن يذكر قومه، ويستمد من مآثرهم

---

١ ـ ينظر: أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم: ٦١.

٢ ـ الديوان: ٤٦.

٣ ـ ينظر: في الأدب وفنونه: ٦٢.

٤ ـ ينظر: فخر أبي فراس وأبي الطيب: بحث وتحليل وموازنة: ٢٥.

وأمجادهم لا سيما قبل سنوات أسره لأنّ ذلك يعد ((صورة من صور تعزيز القدرة، ووجه من وجوه الشعور بالحماية، والرعاية، فالفرد على الرغم من امتلاكه المواهب، واتّصافه بالصفات البطوليّة في بعض الأحيان، فهو بحاجة إلى قوّة إضافية تعزّز قوته، وسواعد متينة تمد تواصله بما يجعله واثقاً من الحديث عن أيّة مأثرة من المآثر، ومتمكناً من أداء أيّة مهمة)) [1].

وإذا ما أردنا مثالاً فما علينا إلا أن نقرأ رائيته التي خصّ بها أسرته وقومه، وهي طويلة تضمنت أكثر من مائتين وعشرين بيتاً تبدأ بقوله[2]:

لعلّ خيال العامرية زائر ... فيسعد مهجور ويُسعد هاجر

أمّا البارودي فقد انصب فخره على نفسه، قبل منفاه إذ اتخذ من التباهي بأجداده، والتركيز على أصالتهم، وانتمائه لهم حافزاً للتفاخر بذاته.

إنّ تعليل هذه المقارنة بين أبي فراس والبارودي، هو أنّ أبا فراس عربي أصالة، لا تحوم الشكوك حول نسبه، فضلاً عن أن مآثر قومه ما زالت في تزايد، فذاته ذابت هي نفسها ذواتهم. في حين أنّ البارودي مملوكي تركي القومية، انتهى حكم آبائه منذ تسلط أسرة محمد علي باشا على البلاد. فلم يبق للشاعر إلا التذكير بهم، والاتكاء على أمجادهم، ومحاسن أعمالهم، علّه يستطيع – وهو وريثهم – أن يرتفع بمجدهم من جديد. فكان اعتداده بهم باباً من أبواب التعويض للنسب الذي طعن به أكثر من مرة[3]. إذ أن " العربي شديد التمسّك بنسبه، وحسبه، عظيم الاعتزاز به"[4].

وأبو فراس – في فخره – يتعمّد الألفاظ البسيطة المؤثّرة فهو((لا يعرف التعقيد النفسي في فخره لذلك نجد أن وزن قصيدته، ينفجر كما تنفجر نفسه... وهو يتعمّد النغم الذي يهدر هدراً، أو يقرع قرعاً ذلك أن أبا فراس يُعبّر عما يُعانيه ببراءة، وعذوبة، فيبقى الانفعال في شعره... لهذا يُخيل إلينا أن شعر أبي فراس في الفخر يقرب إلى شعر عمرو بن كلثوم بحدّة العاطفة، وصدق الانفعال))[5].

وهو إذا افتخر، وتحمّس وذكر الحروب يقول قولاً صادقاً يطابق الفعل، ولا يكون كمن

---

١ - محاولات في دراسة اجتماع الأدب:٢ /٥٤ - ٥٥.

٢ - الديوان: ١٠٧ .

٣ - ينظر: قراءة في آثار البارودي: ٢٠٢ مجلة العربي / ع٤٣١ / أكتوبر ١٩٩٤م / الكويت.

٤ - دراسات في الأدب العربي (د. شاكر هادي حمود) : ٢٣.

٥ - الفنون الأدبية عند العرب: فن الفخر وتطوره في الأدب العربي: ١٤١.

يقول ما لايفعل ويفخر بما ليس فيه، إذ نمت شخصيته، واطمأنّت خطوطها العامة في وضوح وصفاء[1]. فصار في شعره بعيداً عن المبالغات إلا في القليل النادر، إذ يكاد ينفرد بهذه الميزة التي قلّما توفّرت لشاعر آخر[2]. ولذا فإنّ اللون الجدّي يسيطر على معظم شعره لا سيّما فخره، بسبب من موقف الحمدانيين من الحرب العربية الرومية. كما أنّ هذه الجدّ يعكس لنا لوناً من ألوان التحدّي الداخلي، وصوتاً يعلو ليرسّخ أجواء الإحساس بالذات.

والبارودي أخذ يتباهى في فخره إلى الغاية التي ليس من ورائها غاية[3]. وهو بذلك يستمد من روحه الحربية، وشعره الحماسي، بعد اطلاعه على شعر الشعراء الفرسان العرب صورة لفخره، تستمد قوتها – لا سيّما قبل منفاه – من نار نفسه التوّاقة إلى المطامح، والمجد، حتى كان فخره وحماسته يتوهجان توهجاً لأنّهما طفحا من نفس أبلت في الحروب بلاءاً حسناً، نفس قوّية صُلبة مُلئت طموحاً ومضاءً لا يعرف فتوراً ولا ضعفاً، وكأنّها الصخرة التي تحطّمت عليها الأحداث[4]. إذ مضى بعزيمة عالية للوصول إلى ما يريد، وينشد قصائد الفخر المتضخّمة دائماً بوجود الذات لتعطيه القدرة على التوازن، ومصارعة الحياة التي أعطته الكثير، فسعى أكثر مما أعطت بدافع الطموح.

أما المرحلة الثانية من حياة الشاعرين، وهي مرحلة السجن، فنلحظ فيها تضخم الذات عند أبي فراس في فخره وضمورها في نفس البارودي، وهو عكس ما كانا عليه قبل السجن، وأسباب ذلك أن أبا فراس بفخره المتزايد بنفسه، حاول توجيه الأنظار لها، وإعطائها قيمة عالية لتكون محط اهتمام الحمدانيين به، لا سيما بتذكيرهم بما سيلحق بهم إذا ما هم خسروه، وهذا كلّه بدافع حثّهم على الإسراع بفديته.

في حين أن اليأس المتمكّن من نفس البارودي أغلق بوجهه كلّ منافذ الأمل، إذ أنّ من نفاه هو منتصر عليه، فلم يبق في مخيلته إلاّ ذكريات آبائه الماضيين، وظّفها سبيلاً للتفاخر، وتعويضاً للهزيمة، متناسياً – في أغلب الأحيان – ذاته التي طالما تضخمت قبل منفاه.

---

١ ـ ينظر: شرح شافية أبي في مناقب آل الرسول ومثالب بني العباس: ١٦.

٢ ـ ينظر: الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني: ١٨١ .

٣ ـ ينظر البارودي رائد الشعر الحديث: ١٠٨.

٤ ـ ينظر: البارودي رائد الشعر الحديث : ١٨٠.

الخاتمة:

وبعد هذه الجولة في شعر شاعرين كبيرين من شعراء العربيّة، صار لزاماً علينا أن نقف على أهمّ النتائج التي توصل إليها البحث. والتي من خلالها يمكن للمتلقّي رسم صورة لذات كل منهما بعد أن اطلع على الأسباب التي أفضت إليها. إذ أجهد الباحث نفسه في رسمها من خلال أهمّ الجوانب الحياتية التي عُرف بها الشاعران، ومارسها قولاً وفعلاً.

لقد تضافرت عوامل سايكولوجية، وبيئية واجتماعية دفعت بالشاعرين إلى التطلع الحربي. فالأثر الديني، والمنزلة السياسية والعسكرية كانا عوامل رئيسة في صقل الشخصية القتالية عند أبي فراس الحمداني. ساعده في ذلك البيئة الحمدانية الحربية، إذ أثرت قابلياته القتالية، وحفزته على استعادة الدور الريادي الذي لعبه والده وسط الحمدانيين قبل مقتله. في حين أنّ المطامح الشخصية اللامحدودة، والاعتداد بالنسب المملوكي، فضلاً عن رغبة السير على خطى الشعراء الفرسان، كل ذلك أوقد في نفس البارودي جذوة التطلع للممارسة الفعلية للحرب، أملاً في تمكنه إعادة بناء مجد المماليك من خلال احتلاله المكانة المرموقة التي يستحقها.

وبناءاً على ذلك، كانت شجاعة أبي فراس مطمحاً شخصياً، وجد بوادره في نفسه، فسعى إلى تنميته، وتفعيله، إذ اشتركت عوامل عدة في بنائه، حتّى أصبحت الشجاعة عنده عنواناً يتغنى ويتفاخر به، وصار الخطّ العام لشعره يحمل هذه الصورة التي هي انعكاس لشخصيته، إذ تعودّ الصعاب غير آبه بالموت، وهذا بفضل التنشئة الاجتماعية، والثبات على المبدأ. بينما كانت شجاعة البارودي استجابة لحاجات نفسية ملحة. فشعوره بالمظلومية قاده إلى الإحساس بوجوب الثأر ممن يجدهم مغتصبين لحقه. فكانت الفروسية باباً لتلبية المطامح. ولذا بدأ يندفع بشدة وتفاني في الدخول إلى المعارك عسى أن ينال مبتغاه. إذ أفضى به ذلك إلى حال لم يعد بها ليعبأ بالموت، أو يحسب له حساباً ما دام يعتقد أنّه في طريقه إلى الغنيمة. أمّا إذا تقطّعت الأسباب به، فإنّ الموت يغدو شبحاً يطارده فيهم بالتخلص منه. وهو بتطلعه هذا تمثّل سمات الفرسان، أو تغنى بها، يدفعه لها نشأة ملكية، ونفس شاعرة وطموح واسع.

إنّ أبا فراس وظّف جلّ حياته مدافعاً عن عقيدته، وقومه بروح تواقة للنصر، ولذا لم يعبأ بكل الظروف الصعبة والاستثنائية التي يمكن أن تلم به، في سوح القتال، فهو صبور جلد لا يعرف للفرار طريقاً. وهو مع شدة بأسه في المعركة، إلا أنّه كان نبيلاً تتمثل فيه كل القيم

السامية التي يفترض تحلي الفرسان بها لا سيما بعد انتهاء المعركة.

أما البارودي فقد تهيأ للحرب بكل ما أوتي من قوة تدفعه الرغبة في التميز والظهورأملاً باعتلائه ارفع المناصب في الدولة. وهو أقل تحملاً لظروف الحرب القاسية من أبي فراس بسبب اختلاف النشأة بينهما، فأبو فراس اعتاد حياة الخشونة وركوب الصعاب، بينما كانت حياة البارودي مطرزة بالترف والتنعّم. فضلاً عن اختلاف الغايات المرجوّة من الحرب بينهما فغاية أبي فراس شمولية، في حين أنّ غاية البارودي شخصية آنية.

إن الاعتداء بالنفس والاندفاع في الحرب أفضى بأبي فراس إلى الأسر. وإن الطموحات الواسعة دفعت البارودي إلى المنفى بعيداً عن أماكن عزه وغناه. ولذا تشكل في ذاتيهما هاجس إنهاء معاناتهما وبأسرع ما يمكن.

إن تنامي الشعور بالمسؤولية السياسية والعسكرية، والدينية، والاجتماعية دفع أبا فراس بالإلحاح على فكّ أسره، وإنهاء معاناته إلى الحدّ الذي وصل به أحياناً إلى الوهن، أو الضعف على أنه لم يطلب فديته إلا من ابن عمه أمير البلاد.

إنّ خلوّ المكان الذي شغله أبو فراس، ولّد في نفسه الإحساس بأنّ هناك شوطاً ما لا بد من قطعه، إذ أنّ شخصيته غنية بالطموح والأمل. فكانت تلك كنوزاً في ذاته تدفقت حيوية فياضة في وجوه الحياة المختلفة. فشعره يكشف عن رجل يسعى دون أن يكون هناك توسط لديه بين الحياة والموت، فأما الحياة التي يطمح إليها أو الموت العزيز.

بينما نظرة متأنية لطرق الاستعطاف التي سلكها البارودي تدلنا على اختلاف المبررات التي قدمها لإطلاق سراحه، وهذا يعني تنصّله من بعض المبادئ التي آمن بها، ودافع عنها. فمرة يتنكر للثورة حينما يتطلب منه التنكر. ومرة يرى أنها قامت لأجل الدين والحق حينما يفشل مسعاه الأول، وثالثة يحاول مدح أعدائه ممن كان بأيديهم امره بعد أن تمكن اليأس من نفسه وتقطعت به الأسباب، وماتت بداخله كل المطامح، الامر الذي دفعه للتشبث ببقية حياته. وهذا التباين بين الشاعرين سببه التباين في الغايات التي كان من اجلها الحبس. فهي عند أبي فراس غاية مجتمع، بينما كانت عند البارودي جرياً وراء المطامح الشخصيّة.

وبناء على هذه الغايات اختلفت صور الشكوى بينهما، فأبو فراس توجه بالشكوى لكل الحمدانيين لاسيما سيف الدولة، شكوى تحمل في طياتها معاناته اثر انحباسه عن ملاعب ذاته المتمثلة بسوح القتال، وقرى الضيوف، فضلاً عن إغاثة الملهوفين.

إن السكينة، وظلام الليل، كانتا حافزينَ لانطلاق تلك الشكوى اذ زاد من آلامه ما وصله من مصائب أهله، ومحبيه، لا سيما أمّه، إذ افرد لها القصائد يبثها من أسره لتحمل مشاركته

إياها في آلامها، وليوقر الصبر في نفسها من دون أن يتطرق لحاله وألمه، وهذا غاية الاستشعار بالمسؤولية، فضلاً عن أنه يكشف مقدار المجالدة التي أبداها الشاعر في تحمله لعاديات الزمن. وهو برغم ذلك كله لم يستغث إلا بابن عمه، استغاثة ممزوجة بشيء من الكبرياء، والتفاخر بالنفس، حتى لا يدع الضعف يتمكن منه. ولما لم تجد استغاثته شيئاً توجه بالعتاب لبني حمدان عتاباً مرّاً، يؤنّبهم لتباطؤهم عن نصرته. والشاعر مع هذا التباطؤ إلا أنّه حاول أن يصبر نفسه لتتمكن من تجاوز المحنة، على الرغم من أننا نشعر أنه يتظاهر بالصبر أحياناً.

أما البارودي فأكثر ما كانت شكواه من مكان أسره، إذ اتخذ من الليل البهيم فسحة لتذكّر أيام عزه وسؤدده، فكان محبسه بذله وهوانه، حافزاً للمقارنة بين الماضي المشرق والحاضر المظلم. ولذا وهن وضعف إلى الحد الذي بدا عليه الاستسلام واضحاً. فكانت مصائب أهله وعاء يصب فيه مصائبه، وهذا دليل على تفاقم الأزمة في نفسه، وتزايد ألمه إذ جعله ذلك يتناسى كل مصيبة سوى مصيبته. ولذا أخذ بالتنصل من كل المبادئ التي آمن بها، ودافع عنها وراح يطلق صرخات الاستغاثة علّه يجد آذان صاغية، إذ أنّه انهار في نهاية المطاف لولا محاولته التشبث بالصبر.

إنّ الغربة طفحت وبكل أشكالها في شعر الشاعرين، إذ ألقت الغربة الروحية بظلالها على نفس أبي فراس قياساً بالغربة المكانية التي لم يعبأ كثيراً بها، ومرد ذلك يكمن في إحساسه بالتضحيات الجسيمة والجليلة التي قدمها لابناء قومه، إذ لم يكن ليتوقع منهم أن يتركوه طوال اربع سنوات في بلاد الروم.

أما عدم اكتراث الشاعر بغربة المكان، فتعليل ذلك تعوده الأماكن الموحشة، ونزوله القفار إذ أملت حياة الحرب عليه هذا. ولذا نجده يتخذ من تذكره لتلك الحياة معادلاً موضوعياً لمعاناة الأسر وذله. إذ كثُر ذكرها في رومياته، فقلما تخلو قصيدة منها.

إن العاطفة الشجية التي حملها أبو فراس، والتي أملاها عليه كرم محتده، وقر في نفسه الحنين إلى أهله ومرابع فتوته، حنيناً تميز بغلبة الشوق للأهل والخلان أكثر منه للوطن، إذ يبدو أن هؤلاء هم الوطن في نظر الشاعر.

أما البارودي فقد هيمنت غربة المكان على ذاته أكثر من هيمنة الغربة النفسية عليه. إذ أن الجفاء الذي كان يعتقده، ويعانيه من ابناء شعبه، طبع في نفسه التعود على الاغتراب، في حين أنّ الحياة المترفة التي كان يحياها منذ صباه جعلته ينفر من كل الأماكن التي لا تشاكل مكان نشأته وعيشه. من هنا كانت الأيام الجميلة، وحياة العز التي عاشها سابقاً لا سيما في القصر الملكي هي المعادل الموضوعي لذل الأسر وهوان الغربة، أملاً منه في نزع اليأس الذي خيّم

عليه حتى أخذ ينظر لتلك الأيام على أنها الوطن، ولذا كثُر حديثه وحنينه لها، ولوطنه، إذا ما قورن بشوقه لأهله وذويه، يدفعه لذلك الطعن الذي وجّه لنسبه، ووطنيته من قبل المنفيين.

إنّ ثقل الاغتراب الذي ألقى بضلاله على نفسي الشاعرين جعل لكل منهما موقفاً معيناً تجاه المجتمع الذي ينتمي إليه كلّ منهما.

فتفهم أبي فراس للمسؤولية القومية الملقاة على عاتقه، خفف من لهجة القطيعة الموجهة لقومه التي ربما راودته في ساعات معينة إبان محنته، على الرغم من تيقنه من بغضهم وحسدهم إيّاه ، وموقفه هذا عكسه أيضاً على أصدقائه وممن تربطه معهم وشائج الصلة.

في حين أن الجفاء التام بين البارودي وقومه لا سيما بعد نفيه، فضلاً عن فقدان جميع امتيازاته وتحطم معظم طموحاته، ولّد عنده عقدة الكراهية لهم، أفضت به إلى عزلة تامة في منفاه، وشبه عزلة بعد منفاه. وموقفه هذا انعكس على أصدقائه أيضاً، إذ كان دائم الشكوى منهم، قليل الثقة بهم.

ووفقاً لتجليات ذاتي الشاعرين كانت علاقتهما بالمرأة فعلاقة أبي فراس بها علاقة فارس يعتز برجولته، وإرادته، وعفته من غير ميوعة أو ضعف أو استسلام.

بينما كانت علاقة البارودي بها علاقته بالسلعة، وهو بذلك يعكس الأحوال التي كان عليها. إذ ابتعد عنها حينما تطلب منه ذلك إبان شبابه. وطلبه المجد والمعالي. وهو متهتّك متمتع بكل الملاذ عندما يصبح من وجهاء القصر الملكي، وهو زاهد فيها حينما يصبح في سرنديب يحف به الظلام من كل جانب.

أما الفخر فكان شأنه كبيراً عند الشاعرين. فأبو فراس تفاخر – قبل أسره – بقومه أكثر من تفاخره بذاته كونه في مجتمع تذوب الأنا به في ذوات الجماعة. في حين أنّه صبّ فخره – في أسره – على شخصه دون أن ينسى قومه بين الحين والآخر، أملاً في تسليط الأضواء على ذاته بعدما صارت في زوايا النسيان، فضلاً عن أنّه أراد الكشف عن مكامن تلك الذات ومدى اعتداده بها. بينما غلب الفخر الشخصي على شعر البارودي قبل منفاه، لأنّ أهله هزموا، ولم يبق منهم إلا آثارهم فكانت منطلقاً للفخر بذاته التي تطلعت إلى المطامح الواسعة . اما في منفاه فكانت الصورة معكوسة تماماً إذ افتخر بأهله أكثر من نفسه لان اليأس خيّم عليه فقطع عنه كل شعاعات الأمل فلم يبق أمامه إلا ذكرى الأجداد والآباء يتغنى بها علّه يتناسى هزيمته.

المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة

القرآن الكريم.

- أبو فراس الحمداني – أحمد أبو حاقة – المكتب التجاري ـ بيروت – ١٩٦٣.
- أبو فراس الحمداني ـ محسن عبد الكريم الامين الحسيني العاملي ـ ط١ ـ مطبعة الترقي ـ دمشق ـ ١٩٤٥.
- أبو فراس الحمداني رحلة الحياة ومسيرة الموت مع مختارات شعرية – د. منذر الحايك – منشورات دار علاء الدين – سوريا – دمشق – ٢٠٠٠.
- ابو فراس الحمداني شاعر النضال : دراسة ومختارات- د ميخائيل مسعود- الشركة العالمية للكتاب – لبنان- ١٩٩٧ م.
- أبو فراس الحمداني: فارس بني حمدان وشاعرهم – د. عمر فروخ – ط٢ - دار لبنان للطباعة والنشر – بيروت - لبنان – ١٩٨٨.
- أبو فراس الحمداني: الموقف والتشكيل الجمالي – د. النعمان القاضي – دار الثقافة للنشر والتوزيع (د. ت).
- الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث – أنيس الخوري المقدسي – ط٢ – بيروت ـ لبنان – ١٩٦٠.
- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري – د. محمد مصطفى هدارة – ط٢ - دار المعارف بمصر – ١٩٧٠.
- اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري – د. يوسف حسين بكار – دار المعارف بمصر – ١٩٧١.
- اتجاهات النقد المعاصر في مصر – عكاشة شايف – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – ١٩٨٥.
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر - محمد محمد حسين – مكتبة الآداب – القاهرة (د.ت).
- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي – دراسة – د. عبد القادر فيدوح – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ١٩٩٢.
- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر ـ د. عبد القادر القط ـ دار النهضة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ١٩٧٨.
- أدباء السجون – عبد العزيز الحقلي – دار الكتاب العربي – (د.ت).
- أدباء العرب في الأعصر العباسية ـ بطرس البستاني ـ ط٦ ـ دار المكشوف ودار الثقافة – بيروت ١٩٦٨.
- الأدب العربي الحديث: دارسة في شعره ونثره – د. سالم أحمد الحمداني – د. فائق مصطفى أحمد – مديرية دار الكتب للطباعة والنشر – ١٩٨٧.
- الأدب العربي المعاصر في مصر – د. شوقي ضيف – ط٣ – دار المعارف بمصر (د.ت).
- الأدب وفنونه: دراسة ونقد – عز الدين إسماعيل – ط٦ – دار الفكر العربي – ١٩٧٦.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية – د. مجيد عبد الحميد ناجي – ط١ – المؤسسة الجامعية للدراسات

والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٩٨٤.
. الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة – مصطفى سويف – دار المعارف بمصر – ١٩٥١.
. أسس النقد الأدبي عند العرب – د. أحمد أحمد بدوي – ط٣ – مكتبة نهضة مصر بالفجالة – ١٩٦٤.
. الإسلام والأدب – د. محمود البستاني – المكتبة الأدبية المختصة – قم – إيران – ١٤٢٢هـ.
. أصول علم النفس – د. أحمد عزّت راجح – ط – جامعة الإسكندرية (د.ت).
. أصول النقد الأدبي – احمد الشايب – ط٧ – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٦٤.
. الأعلام – خير الدين الزركلي – ط٤ – بيروت – دار العلم للملايين – ١٩٧٩.
. أعلام الأدب العباسي – د. محمود رضوان الداية – ط٣ – مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٩٨٧.
. أعيان الشيعة – السيد محسن الأمين الحسيني العاملي – ط١ – مطبعة الترقي – دمشق – ٢٠٠٠م.
. الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي . عزيز السيد جاسم . دار الشؤون الثقافية العامة . بغداد . ١٩٨٧.
. الاغتراب في الشعر العراقي – مرحلة الرواد – محمد راضي جعفر – منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق – ١٩٩٩.
. الإنسان يبحث عن المعنى مقدمة في العلاج بالمعنى التسامي بالنفس – فكتور فرانكل – ط١ – ترجمة د. طلعت منصور – مراجعة د. عبد العزيز القوصي – دار القلم – الكويت – ١٩٨٢.
. البارودي رائد الشعر الحديث – د.شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – ١٩٦٤.
. البلاغة الفنّية – علي الجندي – ط٢- مكتبة الأنجلو مصرية- القاهرة – ١٩٦٦.
. بناة النهضة العربيّة - جرجي زيدان – دار الهلال – القاهرة (د.ت)
. تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعي – ط٤ – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان - ١٩٧٤.
. تاريخ آداب اللغة العربيّة – جرجي زيدان – مكتبة الحياة – بيروت – (د.ت) .
. تاريخ الأدب العباسي – رينولد انكلسن – ترجمة وتحقيق د. صفاء خلّوصي – الناشر المكتبة الأهليّة- بغداد – مطبعة اسعد – ١٩٦٧.
. تاريخ الأدب العباسي – بلاشير – ترجمة إبراهيم الكيلاني – منشورات وزارة الثقافة – دمشق – ١٩٧٣.
. تاريخ الأدب العربي – عمر فرّوخ ط٦ – دار العلم للملايين – ١٩٩٢.
. تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان – نقلة إلى العربية – د. عبد الحليم النجار – دار المعارف بمصر – ١٩٦١.
. التحليل النفسي للذات العربية – أنماطها السلوكيّة والأسطوريّة- د. علي زيعور – ط٢- دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت – ١٩٧٨.
. التطلع القومي عند المتنبي – جاسم محسن عبود – منشورات وزارة الإعلام – العراق – ١٩٧٧.
. تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة – د. شكري فيصل – ط٤- دار العلم للملايين – بيروت – (د.ت).
. تطوّر القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث (من ١٨٨١- ١٩٣٨م) – حسن أحمد الكبير – دار الفكر العربي – ١٩٧٨.
. تقاليد الفروسيّة عند العرب – واصف بطرس غالي – ترجمة – د. أنور لوقا – مراجعة وتحقيق حسني محمد النّجار – دار المعارف بمصر ١٩٦٠.

- التيار القومي في الشعر العراقي الحديث منذ الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ حتّى نكسة حزيران ١٩٦٧ - . د. ماجد أحمد السامرّائي – منشورات وزارة الثقافة والإعلام – جمهورية العراق – ١٩٨٣.
- ثقافة الناقد الأدبي – د محمد النويهي – ط٢- مكتبة الخانجي – ١٩٦٩.
- الثورة العرابيّة والاحتلال الإنكليزي – عبد الرحمن الرافعي – الدار القوميّة – القاهرة – ١٩٦٩.
- الجامع في تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم. حنّا الفاخوري – ط٢ – دار الجيل. بيروت. لبنان – ١٩٩٥ .
- جماليات المكان – جاستون – باشلار – ترجمة – غالب هلسا – دار الجاحظ – بغداد – ١٩٨٠.
- الحب بين تراثين- ناجية مراني- ط ٢ –المكتبة العالمية- بغداد - ١٩٨٥
- الحب عند العرب . د. عادل كامل الالوسي. ط١ – الدار العربية للموسوعات – بيروت – لبنان – ١٩٩٩.
- الحب المثالي عند العرب – يوسف خليف – دار المعارف – بمصر – ١٩٦١.
- الحنين إلى الأوطان في شعر ابن الآبار وحازم القرطاجنّي . احمد الطولي. المبعة العصريّة. تونس. (د. ت).
- الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث – د. ماهر حسين فهمي – معهد البحوث والدراسات العربية – جامعة الدول العربية – ١٩٧٠.
- دراسات في الأدب العربي. إنعام الجندي. ط٢ – دار الأندلس للطباعة والنشر – بيروت – لبنان – ١٩٦٧.
- دراسات في الأدب العربي – د. شاكر هادي التميمي – ط٢ – مكتب جهينة للطباعة والاستنساخ – بغداد ٢٠٠٢.
- دراسات في علم النفس الأدبي – حامد عبد القادر – المطبعة النموذجية – القاهرة – ١٩٤٩.
- دراسات نقدية في الأدب العربي – د. محمود عبد الله الجادر – مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر – بغداد – ١٩٩٠ .
- دراسات نقدية في الشعر العربي – د. بهجت عبد الغفور الحديثي – ط١ – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٩٢.
- دورة (أبو فراس الحمداني) أبحاث الندوة ووقائعها – مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري – ط٢ – الكويت – ٢٠٠٣.
- الدولة الحمدانية في الموصل وحلب – د. فيصل السامر – ط١ – مطبعة الإيمان – بغداد – ١٩٧٠.
- ديوان ابو فراس الحمداني (٣٢٠ – ٣٥٧ هـ) عني بجمعه ونشره د. سامي الدهان – الاختيار والتقديم والشرح – أحمد عكيدي – ط١ – منشورات وزارة الثقافة – سوريا – دمشق – ٢٠٠٤.
- ديوان أبي فراس الحمداني - شرح وتقديم عباس عبد الستار – ط٢ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٩٨٦.
- ديوان البارودي: محمود سامي البارودي باشا – ضبطه وصححه وشرحه: علي الجارم، محمد شفيق معروف – المطبعة الأميرية بالقاهرة – ١٩٥٤.
- ديوان رئيس الوزراء محمود سامي البارودي باشا – شرح علي عبد المقصود عبد الرحيم – ط١ – دار الجبل – بيروت ١٩٩٥.
- ذم الهوى – لابن الجوزي – تح: مصطفى عبد الواحد – ط١ – مطبعة السعادة – ١٩٦٢.

. رسائل الجاحظ – أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ "رسالة في الحنين إلى الأوطان" اختيار الإمام عبد الله بن حسان – تح: عبد السلام هارون – ط١ – مكتبة الخانجي بمصر – ١٩٧٩.

. رسائل الجاحظ " رسالة في النساء".

. زهر الآداب وثمر الألباب – لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحُصري القيرواني – شرحه ووضع فهارسه – علي محمد البجاوي – ط٢ – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – ١٩٦٩.

. السجون وأثارها في الآداب العربية من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي – د. واضح الصمد – ط١ – المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٩٩٥.

. سيف الدولة وعصر الحمدانيين – سامي الكيالي – مطابع دار المعارف – ١٩٥٩.

. سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب – يوسف ميخائيل أسعد – دار الشؤون العامة – بغداد – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – د. ت.

. شاعرية أبي فراس – دراسة مع مختارات في شعر الأمير الفارس الحارث بن سعيد الحمداني – نعمان ماهر الكنعاني - مطبعة الكاتب – بغداد (د.ت).

. الشخصية- ريتشاردس لازورس – ترجمة سيد محمد غنيم- مراجعة د.محمد عثمان نجاتي- ط٢- دار الشرق- بيروت- ١٩٨٤م

. شخصية الإنسان تكوينها وطبيعتها واضطراباتها - د. علي جابر الربيعي – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ١٩٩٤.

. الشخصية السليمة – دراسة من وجهة نظر علم النفس الإنساني – سدني – م. جورارد تيد لاندزمن – ترجمة أحمد دلي الكربولي، د. موفق الحمداني – مطبعة التعليم العالي – بغداد – ١٩٨٨.

. الشخصية وقياسها – د. لويس كامل، د. محمد عماد الدين إسماعيل، د. عطية محمود هنار – ط١ – مكتبة النهضة المصرية – ١٩٥٩.

. شرح شافية أبي فراس في مناقب ال الرسول ومثالب بني العباس – أبي جعفر محمد بن أمير الحاج الحسيني – تح: صفاء الدين البصري – ط١ – طهران – ١٤١٦ هـ.

. شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي. عباس محمود العقا. نهضة مصر – الفجالة – القاهرة – (د.ت).

. شعر الحرب عند العرب – نوري حمودي القيسي – الموسوعة الصغيرة – منشورات دار الجاحظ للنشر – العراق – ١٩٨١.

. شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة – د. زكي المحاسني – دار المعارف بمصر – ١٩٧٠.

. شعر الحرب في العصر الجاهلي – د. علي الجندي – مكتبة الأنجلو مصرية – مطبعة الرسالة – القاهرة – (د.ت).

. شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ " العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري" - د. نصرت عبد الرحمن – ط١ – مكتبة الأقصى – عمان - ١٩٧٧.

. الشعر في رحاب سيف الدولة – د. سعد محمود عبد الجبار – ط١ – مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٩٨١.

. الشعر في ظل سيف الدولة. د. درويش الجندي. ط١. مطبعة الرسالة – مكتبة الأنجلو مصرية – ١٩٥٩.

. الشعر والشعراء – لابن قتيبة – تحقيق وشرح – أحمد محمد شاكر – دار المعارف بمصر (د.ت).
. الشعر والمجتمع – مختارات من الأبحاث المقدمة لمهرجان المربد الثالث ١٩٧٤ " مفهوم البطولة في الشعر العربي – سليم الزركلي " منشورات وزارة الإعلام – العراق – (د.ت).
. الصورة الفنية في شعر أبي تمام – د. عبد القادر الرباعي – جامعة اليرموك – الأردن – ١٩٨٠م.
. طبقات فحول الشعراء :- محمد بن سلام الجمحي " ٢٣١ هـ" – قرأه وشرحه محمود محمد شاكر – مطبعة المدني مصر – القاهرة
. الطبيعة في الشعر الجاهلي – د. نوري حمود القيسي – دار الإرشاد – بيروت – (د.ت).
. طوق الحمامة في الألفة والآلاف – ابن حزم الأندلسي (٤٥٦ هـ) – حققه وقدم له صلاح الدين القاسمي – دار الشؤون العامة – بغداد – ١٩٨٦.
. العرجي وشعر الغزل في العصر الأموي – وليم نقولا شتير – ط١ – منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – ١٩٨٦.
. العزلة والمجتمع – نيقولاي برد يائق – ترجمة فؤاد كامل – راجعه علي أدهم – مكتبة النهضة المصرية – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سلسلة الألف كتاب – القاهرة – ١٩٦٠.
. العقد الفريد – ابن عبد ربه الأندلسي – شرحه وضبطه وصححه ورتب فهارسه – احمد الزين – وإبراهيم الإيباري – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٩٦٧.
. علاقة النقد بالإبداع الأدبي . د. ماجدة حمود . منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية . ١٩٩٧.
. علم النفس والتأريخ – د. ريكان إبراهيم – ط١ – دار الشؤون الثقافية – العامة – بغداد – ١٩٨٨.
. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت ٤٦٥ هـ) – تح: محمد محي الدين عبد الحميد – ط ٤ – دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة – بيروت – لبنان – ١٩٧٢.
. عمر بن أبي ربيعة ونزار قباني – د. ماهر حسن فهمي – دار نهضة مصر – القاهرة – ١٩٧١.
. الغزل عند العرب – حسان أبو رحاب – ط١ – مطبعة مصر – القاهرة – بيروت – لبنان – ١٩٦١.
. الغزل في العصر الجاهلي- د.أحمد محمد الحوفي- دار القلم –بيروت- لبنان – ١٩٧١م
. فحولة الشعراء . عبد الملك بن قريب الأصمعي - (ت ٢١٦ هـ) – دار الكتاب الجديد – بيروت – ١٩٧١.
. فخر أبي فراس وأبي الطيب – بحث وتحليل وموازنة - عبد الغني باجقني – الجامعة السورية – ١٩٣٢.
. الفن والأدب – بحث جمالي في الأنواع والمدارس الأدبية والفنية – ميشال العاصي – ط٢ – منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ١٩٧٠.
. الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د. شوقي ضيف – دار المعارف بمصر – ١٩٦٩.
. الفنون الأدبية عند العرب: فن الفخر وتطوره في الأدب العربي – إيليا حاوي – ط١- منشورات دار الشرق الجديد – ١٩٦٠.
. فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين . مصطفى الشكعة . مطبعة المعرفة . مكتبة الأنجلو مصرية – ١٩٨٥.
. في الأدب الحديث . عمر الدسوقي . ط٣ . دار الفكر العربي . مطبعة لجنة البيان العربي . القاهرة . ١٩٥٤
. في الأدب الحديث – عمر الدسوقي – ط٧ – دار الفكر العربي (د.ت).

. في الأدب العباسي - د. محمد مهدي البصير - ط٢ - مطبعة السعدي - بغداد - ١٩٥٥.
. في الأدب المعاصر - د. عبد الرحمن عثمان - مطبعة دار النشر للجامعات المصرية - القاهرة - ١٩٦٨.
. في الأدب وفنونه - علي بوملحم - المطبعة العصرية للطباعة والنشر - صيدا - لبنان - ١٩٧٠.
. قاموس علم الاجتماع - د. محمد عاطف غيث - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - د.ت.
. قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري - د. محمود عبد الله الجادر - ط١ - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - ٢٠٠٢.
. قضايا في الأدب والنقد - رؤية عربية، وقفة خليجية - د. ماهر حسن فهمي - دار الثقافة - قطر - الدوحة - ١٩٨٦.
. لمحات من البطولة العربية في شعر الحرب " في القرن الأول للهجرة " غانم جواد رضا - منشورات دار الجاحظ للنشر - العراق - ١٩٨١ - الموسوعة الصغيرة (١٠٣).
. المجتمع السليم - اريك فروم - تعريب محمود محمود - مكتبة الأنجلو مصرية - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة -(د ت).
. محاولات في دراسة اجتماع الأدب - د. نوري حمودي القيسي - ط١ - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - ١٩٩٤.
. محمود سامي البارودي . علي محمد الحديدي . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٦٧م
. محمود سامي البارودي - عمر الدسوقي - ط٢ - دار المعارف بمصر - ١٩٥٨.
. محمود سامي البارودي شاعر النهضة . علي محمد الحديدي . مكتبة الأنجلو مصرية . القاهرة . ١٩٦٩.
. المختصر في تاريخ البشر - لأبي الفدا - دار الطباعة العربية - بيروت - (د.ت).
. المذاهب النقدية . . ماهر حسن فهمي - دار قطري بن الفجاءة للنشر والتوزيع - الدوحة - قطر - ١٩٨٣.
. المرأة في أدب العصر العباسي - واجدة مجيد عبد الله الاطرقجي - منشورات دار الرشيد للنشر - جمهورية العراق - ١٩٨١.
. المرجع في علم النفس - د. سعد جلال - مؤسسة المطبوعات الحديثة - القاهرة - ١٩٥٩.
. مشاهير شعراء الشيعة . عبد الحسين الشيستيري . ط١ . المكتبة الأدبية المختصة - قم - إيران - ١٤٢١.
. مشكلة الإنسان - د. زكريا إبراهيم - ط١ - مصر - ١٩٥٩.
. مشكلة الحب - د. زكريا إبراهيم - ط٢ - دار مصر للطباعة - مصر - (د.ت).
. معجم الشعراء العباسيين . عفيف عبد الرحمن . ط١ . دار صادر للطباعة والنشر . بيروت . لبنان - ٢٠٠٠.
. معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى ٢٠٢ م - كامل سلمان الجبوري - ط١ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ٢٠٠٣م.
. معجم المؤلفين - تراجم مصنفي الكتب العربية - عفيف عبد الرحمن - ط١ - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - ٢٠٠٠.
. مع المتنبي في شعره الحربي . د. هادي نهر . ط١. مطبعة الجامعة المستنصرية . بغداد . ١٩٧٩.
. مقاربات مفهومية في الأدب العربي الحديث - ثنائية التناقض والانسجام - منصور قيسومة - دار سحر للنشر - تونس - ١٩٩٤.

. مقالات في الشعر الجاهلي – يوسف اليوسف – ط٤ – دار الحقائق – بيروت – ١٩٨٥.
من أنا – سعدية محمد علي بهادر – مراجعة د. كافية رمضان –شركة المطبعة العصرية ومكتباتها – الكويت – ١٩٨٣.
. منهاج البلغاء وسراج الأدباء – أبي الحسن حازم القرطاجني (٦٨٤ هـ) تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة – دار الكتب الشرقية – تونس – ١٩٦٦.
. الموازنة بيئتها ومناهجها في النقد الأدبي – د. محمد فوزي عبد الرحمن – دار قطري بن الفجاءة – الدوحة – قطر – ١٩٨٣.
. الموازنة بين الشعراء – زكي مبارك – ط٢ – دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة – ١٩٣٦.
. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري – أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي – تح: السيد أحمد صقر – ط٢ – دار المعارف – القاهرة – ١٩٧٢.
. الموشح – محمد بن عمران المرزباني. (ت ٣٤٨ هـ) تح: علي محمد البحاوي. دار النهضة – مصر. ١٩٦٥.
. نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة – القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي – تح: عبود الشالجي – بحمدون – لبنان – ١٩٧١.
. نظريات الشخصية – ك –هول – ج – لندزي – ترجمة د. أحمد فرج، قدري محمود حنفي – مراجعة د. لويس كامل مليكة – دار الفكر العربي – (د.ت).
. النقد الأدبي – أحمد الشايب – ط٧ – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة – ١٩٦٤.
. النقد الأدبي الحديث – أصوله واتجاهات رواده – د. محمد زغلول سلام – منشأة المعارف – الإسكندرية – ١٩٨١.
. النقد التطبيقي والموازنات – محمد الصادق عفيفي – مؤسسة الخانجي بمصر – ١٩٧٨ – (د.ت).
النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية – عبد الله محمد الغذامي – ط١ – المركز الثقافي العربي – مكتبة أبو ذر الغفاري – الدار البيضاء – بيروت – ٢٠٠٠.
. نقد الشعر العربي الحديث في العراق – ١٩٢٠ – ١٩٥٨ – عباس توفيق – دار الرسالة للطباعة – العراق – (د.ت).
. نقد الشعر في المنظور النفسي. د. ريكان إبراهيم. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. ١٩٧٩.
. هذه هي الشخصانية. عمانوئيل مونيه. ترجمة تيسير شيخ الأرض. دار بيروت للطباعة والنشر – ١٩٥٦.
. وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية – د. نوري حمودي القيسي – مطبعة مؤسسة دار الكتب – جامعة الموصل – ١٩٧٤م.
. الوساطة بين المتنبي وخصومه – القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني – تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم علي محمد البجاوي – ط٤ – مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة – ١٩٦٦م.
. وطن وغربة: عرض وتحليل لمفهوم الوطن في الإسلام – الشيخ ياسين عيسى العاملي – ط١ – دار الهادي للطباعة والتوزيع – بيروت – لبنان – ١٤٢٢ ه – ٢٠٠٢ م.
. وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي – محمد النويهي – معهد البحوث والدراسات العربية – مطبعة الرسالة – ١٩٦٦.

. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر – عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي – تح: محي الدين عبد الحميد – دار الفكر – بيروت – ١٩٧٣.

الرسائل والأطاريح الجامعية

. الحماسة في شعر أبي فراس الحمداني – يحيى ولي فتاح – رسالة ماجستير – كلية الآداب – جامعة بغداد – ١٩٩٧.

. رثاء الذات في الشعر العربي إلى نهاية العصر الأموي – دراسة موضوعية فنية – رسالة ماجستير – ازدهار عبد الرزاق التميمي – كلية الآداب – الجامعة المستنصرية – ١٩٨٩.

. الروميات في شعر المتنبي وأبي فراس الحمداني – رسالة ماجستير – تحسين كافي طه الآلوسي – كلية التربية – ابن رشد – جامعة بغداد – ١٩٩٧ .

. شعر أبي فراس الحمداني – دراسة دلالية – اطروحة دكتوراه – أميرة محمد محمود البياتي – كلية التربية للبنات – جامعة بغداد – ٢٠٠٣.

. شعر الأسرى العراقيين الحديث – دراسة موضوعية – رسالة ماجستير – بشير عبد زيد عطية – كلية الآداب – جامعة القادسية – ٢٠٠١.

. الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام – رسالة ماجستير – صاحب خليل إبراهيم – كلية الآداب – الجامعة المستنصرية – ١٩٨٨.

. لغة شعر أبي فراس – رسالة ماجستير – هناء شلاكه موسى آل شيخ مهدي – كلية التربية للبنات – جامعة الكوفة – ٢٠٠١.

. الموازنة منهجاً نقدياً قديماً وحديثاً – رسالة ماجستير – إسماعيل خلباص حمادي الزاملي – كلية التربية – أبن رشد – جامعة بغداد – ١٩٨٩.

. الوصم الاجتماعي ومفهوم الذات الاجتماعية عند مجهولي النسب والأيتام – دراسة ميدانية في دور الدولة للرعاية الاجتماعية – رسالة ماجستير – محمد غازي صبار القيسي – كلية الآداب – جامعة بغداد – ٢٠٠٠.

. وعي الذات وعلاقته بالتوافق المنهجي – رسالة ماجستير – كريم عبد ساجر خلف الشمري – كلية الآداب – جامعة بغداد – ٢٠٠٠.

المجلات والدوريات

. جريدة الصباح – ع ٢٧٧ – ٧ حزيران – ٢٠٠٤ – العراق " التمركز حول الذات في القصيدة العربية المعاصرة رؤى متفاوتة – حوار وتقديم أثير محمد شهاب ".

. مجلة آداب الرافدين – ع٨ – ١٩٧٧ – كلية الآداب – جامعة الموصل " نفسية البارودي من خلال شعره – د. عمر محمد ".

. مجلة آفاق عربية– ع٢ – ١٩٧٨ – بغداد " شعر السجون في القرن الأول الهجري ".

. مجلة الثقافة العربية – المؤسسة العامة للصحافة بالجمهورية العربية الليبية – ع١١ السنة(٣) – ١٩٧٦ – " محنة أبي فراس بقلم محمد إبراهيم ابو سنة ".

. مجلة عالم الفكر – ع١ – مج١٠ – ١٩٧٩ – الكويت – عد خاص " الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً – قيس النوري " .

. مجلة عالم الفكر – ع١ – مج ١٠ – ١٩٧٩ – الكويت – عدد خاص " مشكلة الاغتراب – ندوة ".

. مجلة العربي – ع٤٣١ السنة السابعة والثلاثون ١٩٩٤ – الكويت" قراءة في آثار البارودي – عرض صالح العاقل

. مجلة القادسية للعلوم التربوية – ع٣ – مج ٢ – ٢٠٠٢ – " شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام دراسة وتحليل د. محمد فتاح عبيد الجباوي ".

. مجلة قبس العربية – ع١ – ٢٠٠٥ – كلية التربية الأساسية – الجامعة المستنصرية – " موازنة بين قصيدة الحمام لأبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد – طاهر داخل طاهر".

Ministry of Higher Education
and Scientific Research.
AL_Qadisya University.
College of Arts.

**The Picture of Essence between Abi- Firas AL_Hemdani and Mehmood Sami AL_Barudi:
A Comparison Study**

A Dissertation
Submitted to the council of the College of Arts , University of AL_Qadisya, in partial fulfilment of the requirements for the Degree of Ph. D. in Arabic Language and its Literatures / Literature.

By
Yasir Ali Abid Selman

Supervised by
Prof. Dr. Shakir Hadi Humod AL_Timeemi

٢٠٠٧

Abstract
The relation between psychology and literature is very old. Its roots extend to long centuries, in view of the fact that the writer is a mirror for the life in which he is living, this means , keeping to represent the scenes coordinated with his expressions. This research is considered as a study for the picture of the personality which is the core of the human personality.

The research aims in his study to make the equalization syllabus is the core which the study depends on. The equalization (or comparison) is a kind from the critics which happens between two poets or two literary ages or two poems in providing that there is a similarity and a difference between them.

Comparison (or equalization) is very old in Arabs. Its origins extend to pre-Islamic period (age) and then the history of literature helps us with many of comparisons such as: U'm Jendeb, the wife of U'mr'a Al_Qays which happened between U'mr'a Al_Qays and AL_Kem elfehal according to certain conditions, which the results were to U'm Jendeb. There is another kind of comparison which often happens in Arab

markets such as the comparison happened between Hesan bin Thabit an el_Khensa which judged by el_Nabigha. The comparisons continued in this form and developed, especially, in modern age. After every comparison, there is a judge. This psychological comparison happened between two great poets from Arab poets according to analytic, realitic syllabus. The poets are Al_Harith bin Abi elma'ali , Sa'eed bin Hemdan bin Hemdun AL_The'libi who is known Abi Firas AL_Hemdani who was born in (٣٢٠ H) and died in (٣٥٧ H) while the second is Mehmud Sami Basha who is called elbarudi , was born in ١٨٣٩ and died in ١٩٠٤.

The choice of these poets was not randomly but for their similarity between them. They were princes , knights and warriors. These are the causes for their comparison between them in a way different from others.

The personality of writer and what surrounded it is functioned for studying poetic text. In this study, the poetry is functioned for finding, in the souls of the two poets, a hope in drawing self-picture to show the similarity and difference between them and their reasons.

This study is divided into three chapters after an introduction. The introduction includes a talk about the self (essence) and its definitions and then a summery is about a comparison and its beginnings in Arabs reaching to the modern age. After that, the researcher talks about the life of poets and the aspects of similarity.

The first chapter includes three sections. In these sections, the talk is about the self-picture according to the war results and the ability of the fighter in coordination to chivalry features and the picture of that fighter in the war and his bearing.

The second chapter is specialized to the life of the two poets in prison and the reasons of this prison and the strangeness which appeared in their poetry represented in the picture of surrendering, challenging, complaining, patient and appealing for aid and then the feeling of strangeness.

In the third chapter, the researcher talks about the two pictures of the researchers according to the social relations from the friend relation, then the ending includes the most important results, while the criticized, historical and psychological references were the source which the research depended on.

THE
RESEARCH ER

YASER ALI ABED SALMAN

ياسر علي عبد سلمان

صورة الذات

بين

أبي فراس الحمداني و محمود سامي البارودي

دراسة موازنة

صورة الذات هي النتيجة التي سعى إليها المؤلف من خلال شاعرين بارزين في الشعر العربي وهما الحمداني والبارودي، منطلقاً- المؤلف - من السمات الشخصية والحياتية التي تقاطعت في حياة الإثنين معاً .

فهما فارسان وأميران وهذا جعل لهما مناخاً خصباً لتمثل شخصيتهما ، أما ما يميز هذه الدراسة عن سابقاتها أنها اتخذت العمل الأدبي وكل ما له علاقة به وسيلة للدخول في ذات مبدعه والتي قد تخفى أغلب الأحيان على المتلقي .

وهذا ما أغنى دراسته في إدخال عوامل المحيط بالإنتاج لفهم الدوافع والعواطف الحقيقية وراء المنتج الأدبي الذي اختلف بالمكان والزمان، فمن الفروسية والحرب إلى وطأة السجن والظلام والغربة .

كلها كانت مباحث مهمة لتغذية هذه الدراسة التي قلما نجدها في النقد الأدبي اليوم .

